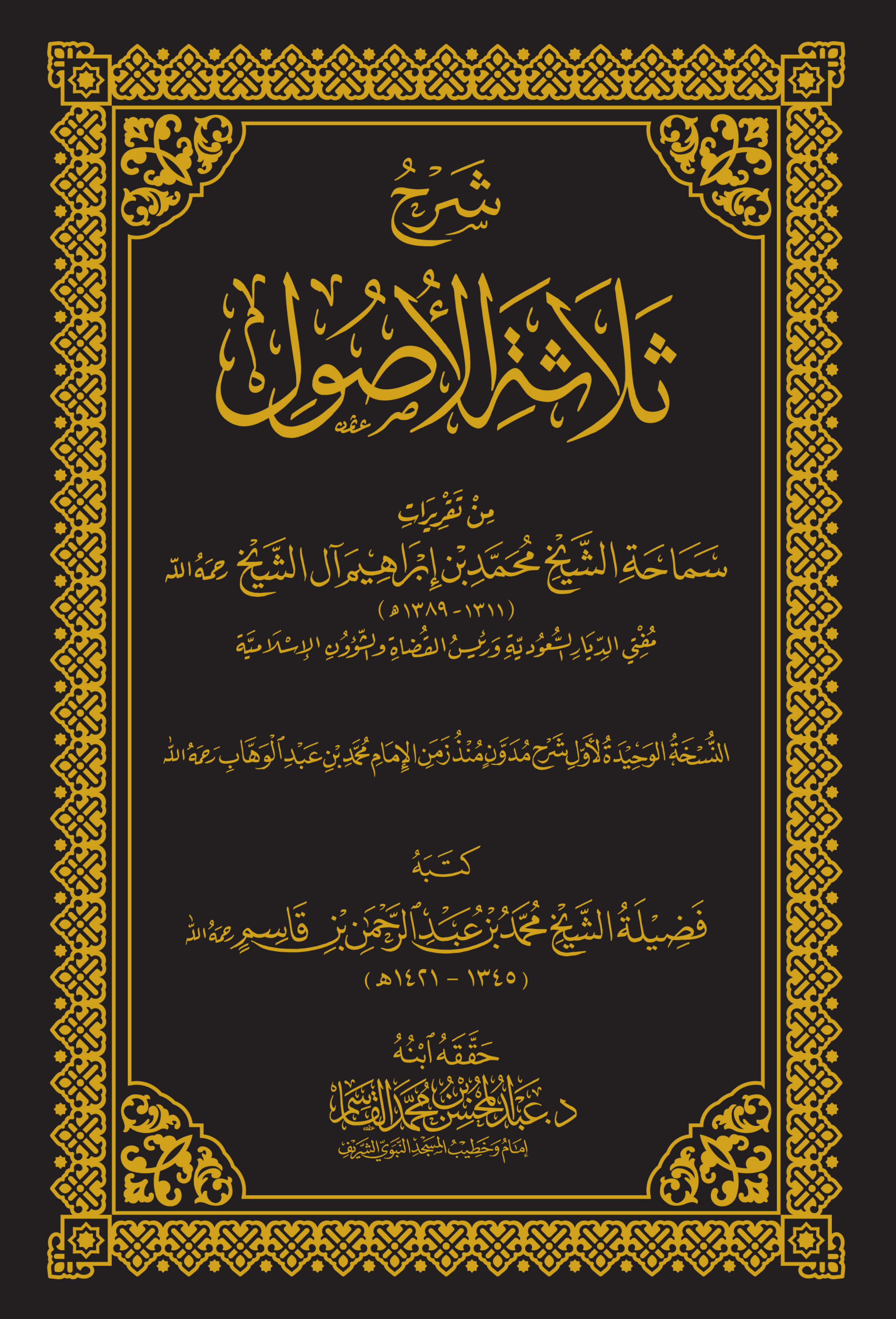


شرح ثلاثة الأصول

من تقريرات

سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله

(١٣١١ - ١٣٨٩ هـ)

مفتي الديار السعودية ورئيس القضاة والشؤون الإسلامية

النسخة الوحيدة لأول شرح مدون منذ زمن الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

كتبه

فضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله

(١٣٤٥ - ١٤٢١هـ)

حققه ابنه

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف


شرح
ثلاثة الأصول

ⓗ عبد المحسن بن محمد القاسم ١٤٤٠هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبد المحسن بن محمد

شرح ثلاثة الأصول. / عبد المحسن بن محمد القاسم. ـ الرياض، ١٤٤٠هـ.

٣٥٢ ص ١٧ x ٢٤سم

ردمك: ٠-٨١٤٨-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١ـ العقيدة الإسلامية. أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٠/١٢٥٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١٢٥٧

ردمك: ٠-٨١٤٨-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩م



من تقريرات

سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله

(١٣١١ - ١٣٨٩ هـ)

مفتي الديار السعودية ورئيس القضاة والشؤون الإسلامية

النسخة الوحيدة لأول شرح مدون منذ زمن الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

كتبه

فضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله

(١٣٤٥ - ١٤٢١هـ)

حققه ابنه

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

المقدمة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن العلم نور وهدى للعالمين، وبه الرفعة لأهله في الدارين، وهو ميراث النبوة الموصل إلى رضوان اللَّه وجنات النعيم.

وأشرف العلوم ما يصحح به المرء ٱعتقاده، فيستقيم للعبد دينه، ويظفر بصراط اللَّه المستقيم، ولهذا كانت العقيدة الصحيحة ـ تعلماً، وتعليماً، وتأليفاً، وذبّاً، ونصحاً، ودعوة ـ أُولى أولويات العلماء الراسخين من السابقين واللاحقين.

وقد أولاها سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله جُلَّ ٱهتمامه، فعكف على تدريسها أكثر من أربعين عاماً، ومن متون العقيدة التي أعاد شرحها مراراً: «**ثلاثة الأصول**» للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وقد قرأها الوالد رحمه الله عليه ست مرات، وكان سماحته يشرحها والوالد يُقيِّد شرحه عليها كاملاً في كل مرة، فتكررت كتابته لهذا الشرح ست مرات، يكتبه في حينه بلفظه وحروفه من فيه، محافظة على أمانة النقل، وحرصاً على تقييد الفوائد.

ولأهمية هذا الشرح، ولكونه النسخة الوحيدة، ولشدة الحاجة إليه، ولغزارة علم صاحبه وجلالة قدره؛ عملتُ على تحقيقه وإخراجه، وقدمت بين يدي ذلك ما يأتي:

أولاً: ترجمة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.

ثانياً: ترجمة الوالد محمد وقُرْبُه من سماحة الشيخ رحمهما الله.

ثالثاً: صلة الجد عبد الرحمن بسماحة الشيخ رحمهما الله.

رابعاً: أهمية متن «**ثلاثة الأصول**».

خامساً: مزايا الشرح.

سادساً: منهج التحقيق.

سابعاً: نماذج من المخطوطات.

أسأل اللَّه أن ينفع بهذا الشرح كما نفع بأصله، وأن يجزي علماء المسلمين وأئمة الدين خير الجزاء وأوفره، وأن يتغمدهم بمغفرته ورحمته، وأن يجمعنا بهم في جنات النعيم.

وصلى اللَّه وسلَّم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.



ترجمة سماحة الشيخ
محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)

ٱسمه ونسبه: هو سماحة الشيخ العلامة محمد بن الشيخ إبراهيم ٱبن الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ حسن بن إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم اللَّه جميعاً.

مولده: ولد في مدينة الرياض، في حي دُخْنة، في ١٧ من المحرم عام ١٣١١هـ.

نشأته: نشأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيت علم ودين؛ فوالده الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ قاضي الرياض، وله رسائل وفتاوى، توفي عام ١٣٢٩هـ.

وقد بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من صغره في الأخذ بأسباب العلم والمعرفة؛ فتلقَّى القرآن الكريم وهو بين الثامنة والعاشرة من عمره ثم حفظه.

شيوخه:

١ ـ حفظ القرآن على عبد الرحمن ٱبن مفيريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم درس فنّ «التجويد».

٢ ـ تلقَّى علم «العقائد» عن عمِّه الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) هذه الترجمة مقتبسة من ترجمة الوالد لسماحة الشيخ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، ينظر: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ٩).

٣ ـ وأخذ «الفقه» عن الشيخ حمد بن فارس أولاً، ثم على الشيخين سعد بن حمد ٱبن عتيق ومحمد ٱبن محمود رحمهما الله.

٤ ـ وأخذ علم «الفرائض» عن والده الشيخ إبراهيم رحمه الله أولاً، ثم عن الشيخ عبد اللَّه بن راشد رحمه الله؛ ومما قرأ عليه في ذلك: ألفية الفرائض.

٥ ـ وفي «الحديث وعلومه»؛ قرأ بلوغ المرام وثُلث المنتقى على عمِّه الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله، ثم أعاد بلوغ المرام على الشيخ سعد ٱبن عتيق رحمه الله؛ وقرأ عليه أيضاً: ألفية العراقي في مصطلح الحديث.

٦ ـ وأخذ علم «العربية» عن الشيخ حمد بن فارس رحمه الله.

هذا ومن المستفيض أن سماحة الشيخ رحمه الله كان كثير الدأب على المطالعة في مختلف الكتب وتدريسها، فكان هذا مصدراً ثانياً غنياً بتنمية حصيلته العلميَّة وتوسيع أُفقه، وأعانهُ على ذلك ما عُرف عنه من حِدَّة الذكاء ورجاحة العقل.

ٱشتغاله بالتدريس:

حين توفي عمه الشيخ عبد اللَّه عام **١٣٣٩**هـ أخذ سماحة الشيخ مجلسَه؛ فبدأ بالتدريس إلى جانب مشايخه الذين ما زالوا على قيد الحياة.

فقد كان يَعمر أكثر نهاره بالتدريس؛ حيث كان يجلس ثلاث جلسات منتظمة:

الأولى: بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس.

والثانية: بعد ٱرتفاع الشمس مدّة تتراوح ما بين ساعتين وأربع ساعات.

والثالثة: بعد صلاة العصر.

وهناك جلسة رابعة ـ لكنها ليست مستمرة ـ وهي بعد صلاة الظهر.

وكل هذه الجلسات كانت تعقد في جامع الشيخ عبد اللَّه بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ المعروف الآن في حي دُخْنة شمال الميدان ـ ما عدا جلسة الضحى؛ فقد كانت في أول الأمر في هذا الجامع ثم نقلها إلى بيته.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينقطع بعد المغرب لمطالعة دروس الغد في الكتب التي كان يُدرِّسها بعد الفجر ـ ومنها: الروض المربع، وسبل السلام، وشرح ٱبن عقيل على ألفية ٱبن مالك ـ وما يُعين عليها من المراجع.

وفيما يأتي عرض للكتب التي كان يقوم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتدريسها:

أولاً: بعد صلاة الفجر: ألفية ٱبن مالك مع شرح ٱبن عقيل، وزاد المستقنع مع شرحه الروض المربع، وبلوغ المرام، والآجُرُّومِيَّة، وملحة الإعراب، وقَطْر النَّدى، وعمدة الأحكام، وأصول الأحكام، والحموية، والتدمرية، ونخبة الفِكَر.

الثلاثة الأُوَل مستمرة، وكان يقوم بتدريسها على ترتيبها المذكور؛ أما باقي الكتب فبالتعاقب على فترات مختلفة طيلة أيام تدريسه.

ثانياً: بعد شروق الشمس: يُدرِّس في العقائد: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وثلاثة الأصول، والعقيدة الواسطية؛ بٱستمرار.

أما مسائل التوحيد، ومسائل الجاهلية، ولُمعة الٱعتقاد، وأصول الإيمان؛ فعلى فترات.

وفي الحديث: الأربعون النووية، وعمدة الأحكام؛ بٱستمرار.

وفي الفقه: آداب المشي إلى الصلاة.

وقد يدرِّس غيرها لكنه نادر.

وبعد الٱنتهاء من هذه المختصرات تقرأ المطولات؛ ومنها: فتح المجيد، وشرح الطحاوية، وشرح الأربعين النووية، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسنن الأربعة، ومؤلفات شيخ الإسلام ٱبن تيمية وٱبن القيم وٱبن كثير؛ بدون ٱستثناء، وكل ما جَدَّ من كتب السلف والمحققين من العلماء، ولكنها على فترات، يتراوح ما يُقرأ منها في اليوم ما بين خمسة وعشرة غالباً.

ثالثاً: بعد صلاة الظهر، ويدرِّس فيه: زاد المستقنع بشرحه الروض المربع، وبلوغ المرام.

رابعاً: بعد صلاة العصر، ويدرِّس فيه: كتاب التوحيد وشرحه، وقد يقرأ في مسند الإمام أحمد، أو مسند ٱبن أبي شيبة، والجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، أو نحوها.

وقد ٱستمرَّ يُزاول التدريس بنشاط لا يَفتُر وهمة لا تكلّ واحداً وأربعين عاماً، من عام **١٣٣٩**هـ إلى عام ١٣٨١هـ، وتوقف عن التدريس قبل وفاته بثمان سنين؛ لكثرة أعماله.

طريقته في التدريس:

كان رحمه الله يعطي مجالس العلم حقَّها من الٱحترام والتقدير، ويحرص على إيصال الفائدة إلى قرارة قلوب الطلاب، معنيّاً بتثبيتها؛ حتى إنه ليكاد يغني بشرحه عن المطالعة.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا همَّ بالجلوس للتَّدريس توضأ إن لم يكن على وضوء بعد صلاة، وٱستقبل القبلة إذا كانت الجلسة في المسجد، ويبدأُ شرحه بالبسملة والصلاة والسلام على رسول اللَّه وعلى آله وصحبه.

ويمكن تلخيص السِّمات الظاهرة لطريقته في التدريس في النقاط الآتية:

١ ـ يطلب من بعض الطلاب أن يبدأ بالبسملة والصلاة والسلام على رسول اللَّه والتَّرَحُّم على المؤلف، ثم يتلو حفظاً موضوع الدرس إذا كان الكتاب متناً.

ويحرص جداً على أن يحفظ جميع الطلاب المنتظمين المتون، ولا يرضى بنصف حفظ، ولا ينتقل الطالب من متن إلى متن أطول منه إلا بعد حفظ الأول وفهمه؛ ولذا كان الطالب المجدّ منهم يتخرَّج في سبع سنوات.

٢ ـ قبل أن يبدأَ بالشرح يقرأُ هو ما قرأَ الطلاب.

٣ ـ يَشرع في شرح عبارات المتن بدقَّة ووضوح.

٤ ـ يعرض بعض المسائل ويتكلم عليها.

٥ ـ إذا عرض لمسألة خلاف ذكر رأي المؤلف أولاً وأدلَّته، ثم ذكر رأي المخالفين، كُلّاً على حدة مع دليله.

وكان في ذلك كلِّه يحترم كل ذي رأي من العلماء ولا يذكره بما يسوء، وكان يُرجِّح ما يراه معتمداً في ذلك على الدليل وأقوال المحقِّقين، ولم يكن يَعرض من الخلاف إلا ما كان ذا جدوى.

وقد يُصحِّح أحد القولين بدون سرد الأدلة؛ لقصر الوقت أو نظراً لحال الطالب.

٦ ـ كان يلتزم بالموضوع، ولا يستطرد إلى مسائل خارجة عنه.

٧ ـ كان إذا فرغ من الدرس تلقَّى أسئلة الطلاب وأجاب، وقد يُثير هو بعض الإشكالات ليقدح أذهان الطلاب.

٨ ـ يختبر الطلاب فيما شرح لهم في بعض الأحيان بإلقاء الأسئلة عليهم، ويعربون متن الألفية وشواهدها.

٩ ـ فيما يتعلق بالعقائد: لم يكن يحرص على ذكر آراء أهل البدع والإشراك، فإذا وجد ضرورة لذلك، أو كان المؤلِّف ذكرها؛ فإنه يتكلم عليها بتوسُّع، ويشتدّ في الرد عليهم دون إفراط.

١٠ ـ وبالنسبة لقراءة المطولات: لم يكن يشرحها عبارة عبارة؛ وإنما كان يقف عند المهم منها، أو ما يسأل عنه أحد الحاضرين.

١١ ـ يلزم اللغة العربية في جميع مجالسه العامة.

١٢ ـ يلتزم الهدوء أثناء شرحه للمتون، أو تعليقه على المطولات؛ فلا تراه يلتفت أو يشير بيد أو يعبث بشيء.

١٣ ـ لم يكن يسمح بإثارة الأسئلة التافهة، أو الدخول في مناقشات عقيمة.

أخلاقه:

لم يصل رحمه الله إلى ما وصل إليه من مكانة في قلوب الناس بمجرد المصادفة؛ ولكن مردُّ ذلك إلى توفيق اللَّه أولاً، ثم إلى ما كان يتحلَّى به من أخلاق فذَّة ٱلتزم بها وحافظ عليها طوال أيامه، فمن ذلك:

١ ـ الحافظة النادرة التي كانت أقوى سبب في تحصيل ثروة علمية واسعة، فكان يحفظ المتن من القراءة الثالثة وربما الثانية، وكانت

المعاملة الطويلة التي تبلغ ثلاث مئة صفحة تُقرأ عليه ثم يُملي ما يرى مستحضراً كل ما مر فيها من الجزئيات، ولم يكن غريباً منه أن يدل القارئين على مواضع الأبحاث في كُتبها، ذاكراً رقم الصفحة أحياناً، ومثل ذلك لا يكون إلا لمن آتاه اللَّه ذاكرة واعية.

٢ ـ وقد رُزق من الذكاء ما مكَّنه من إدراك محفوظاته العلمية عن فهم وبصيرة، وكان يدرك حقيقة ما يُعرَض عليه من المشكلات، وكان يُدرك تقدير الوقت بالساعة لا يكاد يخطئ الحقيقة في بضع دقائق؛ مع العلم بأنه لم يستعمل الساعة في حياته.

٣ ـ وكان يُطيل التأمل والتعمق ويُبعد النظر فيما يُعرض عليه من القضايا التي تَجِدُّ تباعاً، ولم يكن يتعجل الأمر حتى يُمعن في الدرس والتأمل والنظر في عواقب الأمور؛ فكان يصل بعد ذلك إلى الاستنتاج الدقيق الذي لا يكاد يختلف ولا يخالفه فيه ذو إنصاف.

٤ ـ ومن أخلاقه البارزة: الإخلاص في العمل؛ فلم يكن يوماً طالب شهرة، ولا باحثاً عن سمعة؛ ولا يُعرف عنه أنه تحدث عن أعماله على جلالتها وكثرتها.

٥ ـ طهارة قلبه، فكان لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، ولا ينتقم من أحد ناله بأذى.

٦ ـ وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ على حظ وافر من الشجاعة وقوّة الشكيمة؛ لا يخاف في اللَّه لومة لائم.

٧ ـ ومن السمات البارزة التي كانت تميِّزه: ما آتاه اللَّه من هيبة في نفوس الناس، ومع ذلك: فقد كان أنيساً عند مخالطته، ألوفاً لمعاشريه، لا يتصف بشيء من الغلظة أو الغضاضة.

٨ ـ وكان يتنزَّه عن الغيبة والحديث في الآخرين بما يكرهون، وعُرف بذلك منذ حداثة سنه حتى فارق الدنيا، ولم يكن يسمح لأحد أن يتحدَّث في مجالسه بمثالب الآخرين أو تنقُّصِهم؛ بل كان يقف دون ذلك ويزجر من حاوله.

٩ ـ ومما لا يعرفه الكثيرون عنه: ما يتصف به رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العِفَّة والتورُّع عن أخذ ما ليس له، أو ما يرى فيه شبهة؛ فكان حريصاً على ألا يُدْخِلَ نفسه في مداخلَ مشتبهة.

١٠ ـ ومما لا ينكر من أخلاقه الظاهرة للعيان: كراهيته الشديدة للمديح والثناء عليه؛ فما كان يرضى من أحد أن يثني عليه، أو يبالغ في مدحه؛ سواء كان ذلك مشافهةً أو كتابةً.

١١ ـ وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ معروفاً بالبذل والسخاء؛ وبالأخص ما يتعلق بإكرام العلماء والقضاة وطلاب العلم وذوي رحمه.

١٢ ـ خشيته للَّه: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أكثر الناس ٱستحضاراً لعظمة اللَّه، كثيراً ما تسمعه يلهج بذكر اللَّه والاْستغفار، وتَغْرَورِق عيناه بالدموع حينما يكون في موقف مناجاة اللَّه أو إذا سمع بعض ما يحرِّك القلوب، ولقد كان ذلك يتجلَّى كثيراً فيما يحييه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره، وقد لا يعرف هذا كثير من الناس الذين لم يتصلوا به.

قال الوالد محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد صحبتُه زمناً طويلاً وهو يقوم ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل، لا يترك ذلك.

ولا غرو فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتحرى في جميع تصرفاته وأخلاقه الظاهرة

والباطنة التأسي بالنبي ﷺ، وصحابته، وسلف هذه الأمة رضوان اللَّه عليهم.

الأعمال التي قام بها:

١ ـ كان العمل الرئيس الذي شمِل أكثر أيام حياته هو التدريس.

٢ ـ صاحَبَ التدريس مهمة أخرى وهي الفتوى؛ فقد كان يُشارك فيها حتى توفي الشيخ سعد ٱبن عتيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام **١٣٤٩**هـ، ثم ٱستقلَّ بها حتى تحوّلت بآخرة إلى عملٍ منظّم في دار الإفتاء؛ حين أُنشئت عام **١٣٧٤**هـ، وظلّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقوم بالفتوى من خلال هذه الدار حتى وافته المنيَّة.

٣ ـ وإلى جانب هذين الأمرين أَمْر ثالث، وهو: القضاء، فلما حُوّل القضاء ـ نظراً لاتّساعه ـ إلى رئاسة؛ أُسندت إليه رئاسته.

٤ ـ وإلى جانب ذلك كلِّه تولَّى رئاسة المعاهد العلمية والكليات منذ إنشائها عام **١٣٧٠**هـ.

٥ ـ وَوُكل إليه الإشراف على مدارس البنات منذ ٱفتتاحها في عام **١٣٧٩**هـ.

٦ ـ وكُلّف برئاسة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام **١٣٨١**هـ.

٧ ـ وتولَّى رئاسة مجلس القضاء الذي شُكّل عام **١٣٨٨**هـ؛ وعُقد في حياته مرتين.

٨ ـ وتولَّى رئاسة رابطة العالم الإسلامي منذ إنشائها عام **١٣٧٩**هـ.

٩ ـ وتولَّى إمامة جامع حي دُخْنة، وخطابة الجامع الكبير.

١٠ ـ وشَكّل هيئةً تضم كبار العلماء.

وبعبارة عامة: فقد كان له ﷺ الإشراف التام على جميع الشؤون الإسلامية داخل المملكة، وخارجها؛ مما يتصل بالمملكة العربية السعودية وتُعنى بتوجيهه.

تلاميذه:

لا أظن أن من يعرفه ﷺ يخفى عليه أمر الذين أخذوا عنه العلم وٱستفادوا منه الفائدة الكبرى، فقد مرَّ به أفواج بعد أفواج ينهلون من علمه، ويستنيرون بثاقب نظره، وقد ٱنتشروا في أنحاء المملكة العربية السعودية بين عالم وقاض، ومدرس وواعظ، وخطيب مسجد، ومن أشهرهم:

١ ـ سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه ٱبن باز ﷺ؛ المفتي العام للمملكة العربية السعودية.

٢ ـ سماحة الشيخ عبد اللَّه بن محمد ٱبن حُميد ﷺ؛ رئيس المجلس الأعلى للقضاء.

٣ ـ الجد فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن محمد ٱبن قاسم ﷺ؛ صاحب المؤلفات المشهورة.

٤ ـ فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ ﷺ ـ شقيق سماحة الشيخ ـ؛ مدير المعاهد العلمية والكليات الشرعية.

٥ ـ فضيلة الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ ﷺ ـ شقيق سماحة الشيخ ـ؛ رئيس هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المنطقة الغربية.

٦ ـ فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ﷺ

ـ نجل سماحة الشيخ الأكبر ـ؛ الرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧ ـ فضيلة الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله ـ نجل سماحة الشيخ ـ؛ وزير العدل، وعضو هيئة كبار العلماء.

٨ ـ فضيلة الشيخ عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن جبرين رحمه الله؛ عضو لجنة الإفتاء.

٩ ـ الوالد فضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن ٱبن قاسم رحمه الله؛ وهو ألزَم طلاب سماحة الشيخ به، وساعَدَ الجد في جمع فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية.

١٠ ـ فضيلة الشيخ عبد اللَّه بن عبد الرحمن الغديان رحمه الله؛ عضو هيئة كبار العلماء، وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء.

١١ ـ فضيلة الشيخ صالح بن علي ٱبن غصون رحمه الله؛ عضو هيئة كبار العلماء، وعضو اللجنة الدائمة للقضاء.

وغيرهم كثير.

آثاره:

سَخَّر سماحة الشيخ رحمه الله عمره لنفع المسلمين؛ بالتدريس والإفتاء والرأي السديد والنصح للمسلمين، فخَلَّف كنوزاً كثيرة من العلوم والمعارف، فمن ذلك ما كتبه الوالد محمد ٱبن قاسم رحمه الله من شروح سماحته خلال ملازمته لدروسه، ومنها:

١ ـ شرح العقيدة الواسطية.

٢ ـ شرح كشف الشبهات.

٣ ـ شرح آداب المشي إلى الصلاة.

٤ ـ شرح ثلاثة الأصول.

٥ ـ شرح كتاب التوحيد ومسائله.

٦ ـ شرح الروض المربع.

٧ ـ شرح بلوغ المرام.

٨ ـ شرح الأربعين النووية.

٩ ـ فتاواه ورسائله.

وغير ذلك من الكتب النافعة المبنية على علم راسخ نابع من الكتاب والسنة.

ومن ٱطلع على شروح سماحته للمتون في درسه يعجب من علمه الغزير، وجزالة ألفاظه، وقوة معانيه، ونَقْله لنصوص العلماء.

ومع كونه كفيف البصر، ولم يحرر شروحاته بيده ويراجعها حيناً بعد حين، فقد عوضه اللَّه ﷻ عن ذلك بالوالد رحمه الله، فكان باراً به فأخرج علومه، وأصبحت شروحه وفتاواه أكثر ما خلّفه أئمة الدعوة من مؤلفات.

مرضه الأخير ووفاته:

في عام **١٣٨٩**هـ نزل به مرض، وكان طيلة مرضه يكثر من ذكر اللَّه والٱستغفار، حتى دخل في غيبوبة تامّة ٱنتهت به إلى الوفاة في ١٤/ ٩/ ١٣٨٩هـ.



ترجمة الوالد وقُرْبُه من سماحة الشيخ رحمهما الله

ٱسمه ونسبه: هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللَّه بن قاسم، من آل عاصم، من قبيلة قحطان.

بلده: «البير»، وتبعد عن الرياض ١٢٠كم شمالاً.

مولده: ولد في بلدة «البير» عام ١٣٤٥هـ.

نشأته: نشأ في بيت علم ودين؛ فوالده الشيخ العلامة عبد الرحمن ٱبن قاسم رحمه الله، وهو الذي جمع معه «فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية»، وجامع «الدرر السَّنية في الأجوبة النجدية»، وصاحب «حاشية الروض المربع»، وغير ذلك من المؤلفات النافعة.

وكان والده رحمه الله حريصاً عليه؛ فوجهه لتعلُّم القراءة والكتابة، ولما أتقنها حضر والده إليه ـ وهو في الكُتَّاب ـ وأخرجه منها، وقال له: «أريدك أن تكون عالماً وليس كاتباً فقط»؛ فعكف على حفظ القرآن العظيم، ثم حثه على الٱلتحاق بدروس سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في الرياض فٱلتحق بها.

شيوخه:

١ ـ سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، فكما ٱنتفع الجد رحمه الله بعلم سماحة الشيخ رحمه الله كذلك ٱنتفع به الوالد رحمه الله؛ حيث لازم دروسه ومجالسه مدة ٱثنين وثلاثين (٣٢) عاماً.

فقد بدأ الوالد رحمه الله بأخذ العلم عن سماحته من عام ١٣٥٧هـ وعمر الوالد حين ذاك ٱثنا عشر (١٢) عاماً، ولازم دروسه ملازمة تامة، فقرأ

عليه في العقيدة، والحديث، والفقه، والفرائض، والنحو، وغيرها من العلوم، وكان سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله يُلزم طلابه بحفظ المتون وعرضها عليه، ثم يشرحها لهم جملة جملة.

وٱستمرت المودة بينهما إلى حين وفاة سماحته رحمه الله عام **١٣٨٩**هـ.

٢ ـ فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ ـ شقيق سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمهما الله ـ، وقرأ عليه الفرائض.

٣ ـ سماحة الشيخ عبد العزيز ٱبن باز رحمه الله، وقرأ عليه في الحديث وعلومه.

٤ ـ سماحة الشيخ عبد اللَّه ٱبن حُميد رحمه الله، حينما كان قاضياً في الرياض من عام **١٣٥٧**هـ إلى عام **١٣٦٣**هـ.

٥ ـ ولمَّا ٱفتتحت المعاهد العلمية عام **١٣٧٠**هـ، وكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام **١٣٧٣**هـ، ولِمَا حصّله الوالد رحمه الله من دروس العلماء في المساجد أُلحق مباشرة بالدراسة في كلية الشريعة ولم يدرس ما قبلها، وكان هو والشيخ عبد اللَّه ٱبن جبرين يتنافسان على الترتيب الأول على الدفعة الأولى التي تخرجت من كلية الشريعة.

ومع دراسته في كلية الشريعة كُلِّف بالتدريس في معهد إمام الدعوة في المساء، والذي ٱفتتح عام **١٣٧٤**هـ.

ما ٱمتاز به الوالد في درس سماحة الشيخ رحمه الله:

ٱمتاز الوالد رحمه الله عن أقرانه في دروس سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله بأمور:

الأمر الأول: أنه هو الذي كان يقرأ على سماحة الشيخ في الدرس، وكان يجلس بجانبه ويدوِّن جميع ما يسمعه من سماحة الشيخ رحمه الله.

الأمر الثاني: أنه هو الوحيد من طلاب سماحة الشيخ رحمه الله الذي يكتب جميع شروح سماحته للمتون وغيرها، بلفظ سماحته من فيه في حينه، ولا يفوته منها كلمة، وإذا ٱمتلأ الدفتر من كتابة الدرس ولم يكن عنده أوراق يكتب على كفه وذراعه لئلا يفوته شيء، قال رحمه الله: «بعض الأحيان أكتب الفائدة أو بقيتها في ذراعي إذا نفد الورق»، وكان سماحة الشيخ رحمه الله يعلم بكتابة الوالد رحمه الله وتقييده لكل ما يقول، حتى إنه ليقول له في الدرس: «ٱنتهيت يا محمد؟»، بل إن سماحة الشيخ رحمه الله يدلُّه على مواطن ينبغي تلخيصها في الشرح.

الأمر الثالث: منحه اللَّه سرعة الكتابة بشكل عجيب، كما شهد له بذلك أقرانه، أمثال: الشيخ عبد اللَّه ٱبن جبرين والشيخ عبد اللَّه ٱبن غديان رحمهما الله، وغيرهما، ولهذا كَتب عن سماحة الشيخ أكثر من ثلاثين ألف (٣٠,٠٠٠) ورقة، في أكثر من ألف (١٠٠٠) دفتر.

الأمر الرابع: أنه أكثر الطلاب ملازمة لسماحة الشيخ وألصقهم به؛ فقد ٱمتدت مدة ملازمته له ٱثنين وثلاثين (٣٢) عاماً ـ من عام ١٣٥٧هـ إلى عام ١٣٨٩هـ ـ، ولِمَا ٱمتاز به رحمه الله من القرب من سماحة الشيخ رحمه الله، ومعرفة الجميع بذلك، فُرِّغ بأمر من الملك فيصل رحمه الله لجمع فتاوى سماحة الشيخ رحمه الله، فطبعت في ثلاثة عشر (١٣) مجلداً، ووضع لها فهرساً تفصيلياً في مجلد واحد (تحت الطبع).

الأمر الخامس: أنه هو الذي أخرج علم سماحة الشيخ ﵀، فجميع فتاوى سماحة الشيخ وشروحه لم يخرجها إلا الوالد ﵀؛ وهذا من وفاء الطالب لشيخه، ومحبته له، ونصحه للمسلمين بالٱنتفاع من علمه، وتقريب معاني الكتاب والسنة إلى الناس.

وبهذا الوفاء أصبحت كتب سماحة الشيخ ﵀ هي الأكثر في كتب أئمة الدعوة.

مواهبه:

١ ـ الذكاء الحاد في الحفظ، قال عنه الشيخ ٱبن جبرين ﵀ ـ وكان من أقرانه في طلب العلم عند سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ﵀ ـ، قال: «وكان يحفظ المتن من قراءته له مرة واحدة، وأحياناً مرتين».

٢ ـ قوة الفهم لكل ما يقرؤه ويسمعه، فكل ما كتبه عن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ﵀ كان يحيط به فهماً حين كتابته، كما ذكر ذلك عن نفسه، قال ﵀: «كل ما كتبته عن الشيخ محمد بن إبراهيم فقد فهمته»، كما أن فهرسته لـ «فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية» أكبرُ دليل على ذلك.

٣ ـ القدرة على قراءة المخطوطات المتعذر قراءتها، وقد كان يقرأ خط شيخ الإسلام ٱبن تيمية ﵀ بكل سهولة مع صعوبة خط شيخ الإسلام ﵀؛ وذلك مما ساعده على جمع «فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية» مع الجد.

٤ ـ السرعة العجيبة في الكتابة، وقد رأيتُه ﵀ عدة مرات يكتب ما يتكلم به الشخص العادي بكلام سريع، ولا يفوته منه شيء.

٥ ـ كان جَهْوَرِيَّ الصوت، فصيحاً في القراءة، مُلِمّاً بالنحو، لا يلحن في القراءة؛ لذا ٱتخذه سماحة الشيخ رحمه الله قارئاً له في الدرس.

أخلاقه:

١ ـ ٱعتناؤه بعلم العقيدة وتحقيقه في نفسه، قال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله لطلابه: «أشهد باللَّه أن الشيخ محمد ٱبن قاسم موحِّد».

٢ ـ كان كثير العبادة، يستيقظ قبل الفجر بساعتين ويصلي إلى أذان الفجر.

٣ ـ كان باراً بوالديه واصلاً لرحمه.

٤ ـ كثير النفقة ٱبتغاء وجه اللَّه تعالى.

٥ ـ كان زاهداً في الدنيا، مقبلاً على الآخرة.

٦ ـ كان محبّاً للعلم؛ طلباً، وقراءة، وتأليفاً.

٧ ـ الصبر الشديد في طلب العلم ونشره، كما يظهر ذلك في جمعه لـ «فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية» وجمعه لـ «فتاوى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ».

٨ ـ يغتنم كل أوقات حياته ـ بالقراءة والكتابة ـ، ولا يُضيِّع من وقته شيئاً.

٩ ـ كان دَمْث الأخلاق، جميل العشرة والمعاملة، متأثراً بأخلاق كبار العلماء.

١٠ ـ حسن العِشرة، لا يؤذي أحداً بقول أو فعل.

١١ ـ شديد التواضع مع الناس.

١٢ ـ كان كثير الحِلْم، لا يُعرف عنه الغضب.

١٣ ـ كان عَفَّ اللسان، لا يُعرف أنه ٱغتاب أحداً.

١٤ ـ كان كثير الصمت، لا يتكلم إلا يسيراً.

١٥ ـ كان حريصاً على الكسب الحلال.

أعماله:

١ ـ عُيِّن معلماً في معهد إمام الدعوة بالرياض التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود حين ٱفتتاحه عام **١٣٧٤**هـ، وكان من طلابه سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّه آل الشيخ.

٢ ـ ثم فُرِّغ من معهد إمام الدعوة من عام **١٣٨٦**هـ إلى عام **١٣٩٢**هـ، وكُلِّف بالسفر إلى مكة لطبع «فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية» وفهرستها الفهرس الإجمالي ثم التفصيلي في مطابع الحكومة بمكة، وأثناء ذلك دَرَّس في معهد مكة العلمي.

٣ ـ صدر أمر الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في **٠٣/ ١٠/ ١٣٩٠**هـ بأن يُفرغ الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لجمع «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ»، وقد ٱبتدأ الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذلك عام **١٣٩٢**هـ، وأتم طباعتها عام **١٤٠٥**هـ.

٤ ـ وفي عام **١٤٠٦**هـ درّس في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٥ ـ وفي عام **١٤٠٧**هـ ٱعتذر عن التدريس في الجامعة لإخراج شروحات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

٦ ـ وبعد أن ٱستقر في الرياض أقام دروساً له في المسجد المجاور لمنزله بالملز بالرياض ـ جامع أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ في العقيدة والفقه.

٧ ـ وكان يخطب الجمعة في جامع أبي الكباش القريب من مزرعة والده ـ المغيدر ـ وٱستمر على ذلك ثمانية وعشرين (٢٨) سنة، منذ وفاة والده عام **١٣٩٢**هـ إلى أن توفي هو عام **١٤٢١**هـ.

٨ ـ وأثناء جمع الوالد رحمه الله «فتاوى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ» من دار الإفتاء بالرياض كان سماحة الشيخ عبد العزيز ٱبن باز رحمه الله يُكلِّفه بالإفتاء فيها.

٩ ـ وٱعتذر عن أعمال كثيرة منها:

أ ـ أن يكون عضواً في هيئة كبار العلماء.

ب ـ أن يكون مديراً للدعوة في الخارج.

ج ـ أن يعمل في القضاء.

آثاره ومصنفاته: له عدة مصنفات، منها:

١ ـ «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية»، جمعه مع والده في خمسة وثلاثين (٣٥) مجلداً، وكانت مدة جمعها أربعين (٤٠) عاماً. قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «إن هذا المجموع المبارك «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية» لٱبن قاسم هو غرة في جبين الدهر، زينة لأهل الإسلام، لسان صدق للعلماء، عمدة للباحثين، نفع اللّٰه به أقواماً بعد آخرين، وقد ٱنتشر في العالمين ٱنتشار العافية، وكُتب له من القبول

والانتشار ما يعز نظيره في جهود المتأخرين، فالحمد للَّه رب العالمين»[١].

٢ ـ فهرس «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» في مجلدين، وهو فهرس لا نظير له في المصنفات، يوحي بقوة علم الوالد ﵀، وذكائه، وفهمه، ورسوخه في مختلف العلوم.

٣ ـ «المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» في خمسة مجلدات؛ جمع فيه جميع أقوال شيخ الإسلام ﵀ من كتب طلابه وغيرهم، كما أضاف إليه مخطوطات لشيخ الإسلام ﵀ ليست في «مجموع الفتاوى»، وقد مكث في جمعه ثلاثة عشر (١٣) عاماً.

٤ ـ «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ» جمعها في ثلاثة عشر (١٣) مجلداً.

٥ ـ فهرس تفصيلي لـ «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ» في مجلد واحد، «تحت الطبع».

٦ ـ «آل رسول اللَّه ﷺ وأولياؤه»، من «منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٧ ـ «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، تصحيح وتكميل وتعليق، وطبع في مجلدين.

٨ ـ «أبو بكر الصديق ﵁ ـ أفضل الصحابة، وأحقهم بالخلافة ـ»، من «منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) المدخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٩٣).

٩ ـ «موضوعات صالحة للخطب والمواعظ».

١٠ ـ «شرح العقيدة الواسطية» من تقريرات سماحة الشيخ محمد ٱبن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.

١١ ـ «شرح كشف الشبهات» من تقريرات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.

١٢ ـ «شرح آداب المشي إلى الصلاة» من تقريرات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.

١٣ ـ «شرح ثلاثة الأصول» من تقريرات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.

١٤ ـ «شرح كتاب التوحيد ومسائله» من تقريرات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، «تحت الطبع».

١٥ ـ «شرح الروض المربع» من تقريرات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، «تحت الطبع».

١٦ ـ «شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام» من تقريرات سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، «تحت الطبع».

١٧ ـ «شرح الأربعين النووية» من تقريرات سماحة الشيخ محمد ٱبن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، «تحت الطبع».

وغيرها.

وفاته:

بعد عمر زاخر بالعلم وخدمة المسلمين، وفي الساعة الثامنة صباحاً من يوم الاثنين ١٤٢١/٠٦/٢٧هـ كان الوالد رحمه الله يسير على

قدميه في مدينة الرياض، فصدمته سيارة مسرعة، وأصيب بإصابات بالغة في رأسه وجسده، ثم نقل إلى مستشفى الشميسي بالرياض ـ المعروف حالياً بمدينة الملك سعود الطبية ـ وتوفي فيه، وهو المستشفى نفسه الذي توفي فيه والده رحمهما الله.

ومنذ وقوع الحادث إلى أن فارق الحياة وهو يتلفظ بالشهادتين، مع أنه فاقد لوعيه.

وقد فارق الحياة عن عمر ناهز ستّاً وسبعين (٧٦) سنة، وصُلِّي عليه عصر الثلاثاء في الجامع الكبير في الرياض ٢٨/٠٦/١٤٢١هـ، وقد أمَّ المصلين سماحة مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، وحضر الصلاة عليه الأمير سلطان بن عبد العزيز رحمه الله ولي العهد، وسماحة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان رئيس مجلس القضاء الأعلى، وجمع من العلماء والأعيان، وعامة الناس، وقد عمَّ الجميع الحزن لوفاته؛ لِمَا قدَّم من خدمة عظيمة للدين.



صلة الجد عبد الرحمن بسماحة الشيخ رحمهما الله

الجد الشيخ عبد الرحمن بن محمد ٱبن قاسم رحمه الله من أخصّ أقران سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، وعمرهما متقارب؛ فسماحة الشيخ أسنُّ من الجد بسنة واحدة، وتتلمذا وطلبا العلم معاً على الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف آل الشيخ، والشيخ حمد ٱبن فارس، والشيخ سعد بن حمد ٱبن عتيق، وغيرهم رحمهم الله .

وكانت سلامة الصدر هي السمة الظاهرة على ذلك الجيل، فعمَّ نفعهم وكثر، ولهذا كان كل واحد منهما يُجِلُّ الآخر ويُعظِّمه.

فالجد رحمه الله يحضر دروس سماحة الشيخ حضور طالب العلم يبتغي الفائدة، مع كمال التوقير لسماحة الشيخ، ويدفع بأبنائه للقرب من سماحة الشيخ وملازمة دروسه.

كما أن الجد رحمه الله ٱعتنى في مؤلفاته بأقوال سماحة الشيخ محمد ٱبن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله وٱختياراته؛ ويظهر ذلك جلياً في «حاشية الروض المربع» حين يقول: «قال شيخنا»، أو «وهو ٱختيار شيخنا»، فيعني بذلك سماحة الشيخ رحمه الله.

وكان الجد رحمه الله ينقل في مؤلفاته بعض تقييدات الوالد رحمه الله من شروح سماحة الشيخ رحمه الله على المتون، كما هو صنيعه في «حاشية ثلاثة الأصول»، و«حاشية كتاب التوحيد».

وفي المقابل فإن سماحة الشيخ رحمه الله يُجِلُّ الجدَّ رحمه الله ويرجع إلى

مؤلفاته أثناء تحضيره لدروسه، كما أنه ٱحتفى كثيراً بمجاميعه، وأشار عليه بها قبل ذلك وأيده على إتمامها وإخراجها، كما هو الشأن في «الدرر السنية» و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٱبن تيمية».

وٱستمرت المودة بين سماحة الشيخ والجد والوالد رحمهم الله حتى فارقوا الحياة، وبقي الإجلال والتقدير بين الأسرتين إلى اليوم.



أهمية متن «ثلاثة الأصول»

متن «**ثلاثة الأصول**» من المتون العظيمة في العقيدة، وتظهر أهميتها في الآتي:

١ ـ أنه أولُ مؤلَّف أُفرد في موضوعه؛ قال الشيخ ٱبن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ٱعتنى علماء هذه الشريعة بهذه القواعد الأساسية، فذكروها ضمن عقائدهم مجملة ومفصلة، ولم يسبق أحد إلى الكتابة فيها على حِدَةٍ قبل الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ مجدد القرن الثاني عشر ـ»(١).

٢ ـ ٱشتمالها على أصول الٱعتقاد؛ قال سماحة الشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيها أصول العقيدة»(٢).

٣ ـ عظيم قدر موضوعها؛ قال سماحة الشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الرسالة مهمة في العقيدة»(٣).

٤ ـ أنها جامعة للدين كله؛ قال سماحة الشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه «**الأصول الثلاثة**» تجمع الدين كله، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهي التي يُسأل عنها العبد في قبره»(٤).

---

(١) مقدمة حاشية ثلاثة الأصول لٱبن قاسم (ص ٧).
(٢) مجموع فتاوى الشيخ ٱبن باز (٨/ ٧٦).
(٣) شرح ثلاثة الأصول للشيخ لٱبن باز (ص ٢١).
(٤) شرح ثلاثة الأصول للشيخ لٱبن باز (ص ٣٨).

٥ ـ تَلقِّي أهل العلم لها بالقبول؛ لكونها قاعدة في العقيدة، قال الشيخ ٱبن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكانت موضع العناية ومحل الٱهتمام، بحيث كان الموحدون يجتهدون في حفظها، ويلقِّنونها لأطفالهم وعوامهم»[(١)]، وقال الشيخ عبد الرحمن ٱبن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جَدَّ الناس في حفظها لعظم نفعها»[(٢)].

٦ ـ ٱعتناء المصنف بنشرها، قال سماحة الشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُلقِّن الطلبة والعامة هذه الأصول؛ ليدرسوها، ويحفظوها، ولتستقر في قلوبهم؛ لكونها قاعدة في العقيدة»[(٣)].

٧ ـ عظم نفعها، فهي من أنفع المتون المؤلَّفة في أصول الدين؛ قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما أَعْظَمَ نفعها على ٱختصارها لطلب الهدى»[(٤)].

٨ ـ رصانة مبانيها وقوة معانيها؛ لما وهب اللَّه مؤلفها من حسن التصنيف، ودقة الترتيب، وقوة الٱستدلال، مع جزالة اللفظ وجمال البيان.

٩ ـ لا يزال أئمة أهل العلم ينصحون بحفظها والٱعتناء بها؛ أمثال سماحة الشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)].

---

(١) مقدمة حاشية ثلاثة الأصول لٱبن قاسم (ص ٧ـ٨).
(٢) حاشية ثلاثة الأصول لٱبن قاسم (ص ١١).
(٣) شرح ثلاثة الأصول لٱبن باز (ص ٢١).
(٤) الدرر السنية (٤/ ٣٣٨).
(٥) ينظر: مجموع فتاوى الشيخ ٱبن باز (٥/ ٤٠٤)، (٨/ ٢٣٣).

١٠ ـ ٱعتناء أهل العلم بشرحها؛ فقد كانت تقرأ على سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ ويشرحها كل يوم(١).

١١ ـ أنها من أحسن كتب العقيدة(٢)، بل عدّها الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أولَ الكتب المختارة لطالب العلم في العقيدة(٣).

١٢ ـ كان ولاة الأمر يُلزِمون الناس بتعلمها، ويبعثون من يسأل الناس عنها، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهم سيرة ـ أي: ولاة الأمر ـ، أذكُرُها لك من غير مجازفة، دائماً في كل وقت يبعثون الدعاة إلى اللَّه إلى كل بلدة، يجددون لهم دينهم، ويسألونهم عن «**ثلاثة الأصول**»»(٤).

١٣ ـ أن أئمة أهل العلم يحثون ولاة الأمر على إلزام من يعلمها الناس، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيلزم الأمير أن يأمر على جميع المدرسين وأئمة المساجد بالحضور عند من يعلمهم دينهم، ويُلْزمهم القراءة فيما جمعه شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب التوحيد» من أدلة الكتاب والسنة التي فيها الفرقان بين الحق والباطل، فقد جمع على ٱختصاره خيراً كثيراً، وضمَّنه من أدلة التوحيد ما يكفي مَن وفقه اللَّه، وبيَّن فيه الأدلة في بيان الشرك الذي لا يغفره اللَّه.

ويُلْزمُهم سؤال العامة عن «**أصول الدين الثلاثة بأدلتها**» و«أربع القواعد»(٥).

---

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٢).

(٢) ينظر: فتاوى اللجنة الدائمة (٢/ ٢٥٧)، (٦/ ٢٢٤)، (١٢/ ١٢٨).

(٣) ينظر: مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ٱبن عثيمين (٢٦/ ٣٤١).

(٤) الدرر السنية (١٤/ ٨٩).

(٥) الدرر السنية (٤/ ٣٣٨)، وينظر: (٩/ ٣١٧).

١٤ ـ أن أئمة أهل العلم يحثون ولاة الأمر على إلزام أئمة المساجد في كل بلد أن يسألوا العامة عنها؛ قال سماحة الشيخ محمد ٱبن إبراهيم آل الشيخ والشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمهما الله: «فعلى إمام المسلمين ـ وفقه اللَّه ـ أن يقيم في كل بلد من يقوم بهذا الشأن، ويلزم أئمة المساجد في كل بلد أن يسألوا العامة عن «**ثلاثة الأصول**» المختصرة التي ألفها إمام هذه الدعوة ـ قدس اللَّه روحه ـ»[(١)].

١٥ ـ أن أهل العلم يحثون أئمة المساجد على تعليم الناس «**ثلاثة الأصول**» يومياً في المساجد، كتب سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله لأئمة المساجد: «وكذلك عليكم تعليم الجماعة أمر الدين وسؤالهم عنه كما في «**مختصر ثلاثة الأصول**»، فيتعيّن على كل إمام مسجد إبلاغ جماعته بذلك، ويعقد لهم مجلساً يومياً يسألهم فيه عن أمور دينهم، ويعلّمهم ما يخفى عليهم منها، ومن طلب مهلة لتذكرها وتحفظها فَيُمهل، ومن ٱمتنع من ذلك فيلزم به من قبل الإمام والمؤذن والهيئة، وإن لم يمتثل فيرفع بٱسمه إلينا، ونحن نقوم حوله بما يلزم إن شاء اللَّه»[(٢)].

وقال رحمه الله: «يتعين على إمام كل مسجد أن يقوم بعد صلاة فجر كل يوم بتعليم ثلاثة أَشخاص من جماعة مسجده ـ أو أكثر حسب الٱستطاعة ـ أصول الدين، كـ «**مختصر ثلاثة الأصول**»[(٣)].

---

(١) الدرر السنية (١٤/ ٤١٤).

(٢) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (٢/ ٢٧٧)، وينظر: الدرر السنية (١٤/ ٣٤٤).

(٣) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ٨٩)، وينظر: (١٣/ ٢٠٥).

مزايا الشرح

ٱمتاز شرح سماحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدة مزايا، منها:

١ ـ أن الشرح مستمد من كتاب اللّٰه، وسنة رسوله ﷺ، وأقوال سلف الأمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

٢ ـ أنه أول شرح مدوّن لـ «**ثلاثة الأصول**» منذ زمن المصنف الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فلا يُعرف قبله شرح مدوّن، وجميع الشروح ـ المطبوع منها والمسموع ـ تأتي بعد شرح سماحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمدة زمنية تزيد عن نصف قرن.

٣ ـ أنه لإمامٍ راسخٍ عَلَمٍ من أئمة الدعوة، وهو شيخ كِبار مشايخ عصرنا أمثال سماحة الشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤ ـ أن هذا الشرح هو النسخة الوحيدة لشرح سماحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥ ـ أنه يشرح كل جملة من جمل المتن شرحاً وافياً، يقف على كلّ لفظٍ فيه.

٦ ـ ٱعتناء الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ بألفاظ المتن ومقاصده، وعدم الٱستطراد فيما لم يذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٧ ـ التفصيل فيما يحتاج إلى تفصيل، وذكر الخلاف في المسائل المهمة إن ٱحتاج الأمر إلى ذلك.

٨ ـ جزالة ألفاظه ودقة عباراته، مع أنه تقرير لا تحرير، وفي دروس لصغار السن من طلبة العلم.

٩ ـ وضوح العبارة وسهولة فهمها.

١٠ ـ تأكيد المسائل بأساليب مختلفة؛ حتى ترسخ في ذهنِ وقلبِ المتلقي.

١١ ـ ٱعتناء الشارح رحمه الله بخلاصة الدرس وفوائده في نهاية كل درس.

١٢ ـ يبدأ الشارح الدرس بتلخيص ما قبله إن كان بينهما ٱرتباط.

١٣ ـ أن الشرح حوى نفائس علمية قد لا يجدها الطالب في غيره.

١٤ ـ أن الشرح جاء وافياً، بعيداً عن التطويل الممل وعن التقصير المخل.

١٥ ـ هذا الشرح وأمثاله من شروح سماحة الشيخ رحمه الله أخرج أئمة في العلم، أمثال سماحة الشيخ عبد العزيز ٱبن باز رحمه الله.



منهج التحقيق

سرت في تحقيق هذا الشرح وَفق المنهج الآتي:

١ ـ قراءة المخطوطات ونسخها، وقد أخذ ذلك جهداً كبيراً وزمناً طويلاً؛ لأن الوالد رحمه الله يكتب كل كلام سماحة الشيخ رحمه الله بخط سريع جدّاً، وبعض الخط مشتبك الحروف، فقراءتها عسيرة جدّاً.

٢ ـ كَمَّلْتُ النُّسَخ بعضها ببعض، من غير زيادة ولا نقصان، مع مراعاة المعاني فيها، وراجعت ذلك مرات عديدة، فخرج شرحاً وافياً كأنما حرَّره سماحة الشيخ رحمه الله بيده.

٣ ـ أثبتُّ تعليقات الوالد رحمه الله في الحاشية، وصدرتها بلفظ: «قال الوالد رحمه الله».

٤ ـ خرّجت الأحاديث بٱختصار مفيد.

٥ ـ علّقت في الحاشية ما يحتاج إلى بيان.

٦ ـ كلُّ جُملة لها معنى مستقلٌّ جعلتها مرتبطة بنسق واحد، وإذا تجدد المعنى في الشرح جعلته في فقرة جديدة.

٧ ـ وضعت نص المتن مفرداً في الأعلى، ثم جعلته مدمجاً مع الشرح وميزته بلون أحمر، وإذا تكرر في ثنايا الشرح ميزته بلون أسود غامق.

٨ ـ وضعت عناوين في جانب الشرح لجميع مسائله؛ ليسهل فهمه وضبطه.

٩ ـ ضبطت بالشكل ما يحتاج إلى ضبط.

١٠ ـ وضعت علامات الترقيم بدقة؛ ليسهل فهم الشرح.

١١ ـ وضعت فهرساً مفصلاً للشرح.



نماذج من المخطوطات

[illegible]

[illegible]

شرح
ثلاثة الأصول

مِنْ تَقْرِيرَاتِ

سَمَاحَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ آلِ الشَّيْخِ رحمه الله

(١٣١١ - ١٣٨٩هـ)

مُفْتِي الدِّيَارِ السُّعُودِيَّةِ وَرَئِيسُ القُضَاةِ والشُّؤُونِ الإِسْلَامِيَّةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱعْلَمْ ....

مشروعية الٱبتداء بالبسملة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ٱبتدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبسملة - ولا يخفى مناسبتها -.

ومعلومٌ شرعيةُ ٱبتداء الرسائل والكتب بالبسملة.

وٱقتداءً بالكتاب العزيز.

وتأسياً بالنبيِّ ﷺ في مكاتباته ومراسلاته.

وعملاً بحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ - أي: حالٍ وشأنٍ يُهتم به شرعاً - لَا يُبْدأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ؛ فَهُوَ أَقْطَعُ»، وفي رواية: «أَجْذَمُ»، وفي رواية: «أَبْتَرُ»[1]، والمعنى من جميع الروايات: ناقص البركة.

الرسالة الأولى: وجوب تعلم أربع مسائل

(ٱعْلَمْ) كلمةٌ يُؤتى بها عند ذكر الشيء الذي له أهميةٌ ويُصغى إليه؛ وما قرره هنا من أصول الدين حقيق بأن يُصغى إليه حقيقةَ الإصغاء.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم (٨٧١٢)، بلفظ: «كُلُّ كَلَامٍ، أَوْ أَمْرٍ، ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللَّهِ؛ فَهُوَ أَبْتَرُ - أَوْ قَالَ: أَقْطَعُ -»، وأخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام، رقم (٤٨٤٠)، بلفظ: «كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالحَمْدُ لِلَّهِ؛ فَهُوَ أَجْذَمُ»، وٱبن ماجه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٤)، بلفظ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالحَمْدِ؛ أَقْطَعُ» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

- رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:

(رَحِمَكَ اللَّهُ) دعاء لك بالرحمة.

طريقة المصنف في تقرير الأصول

وكثيراً ما يجمع المصنِّف للطالب عندما يُرشِد بتقرير الأصول المهمة؛ يجمع بينها وبين الدعاء للطالب، وهذا من حسن عنايته ونصحه للمسلمين.

الفرق بين الرحمة والمغفرة

والرحمة إذا فردت عن المغفرة فمعناها: غفر لك في الماضي، وعصمك في المستقبل.

- إذا فردت: مغفرة ما مضى من الذنب، والتوفيق لما يستقبل من العمر -.

هذه رحمة اللَّه العبد، ويسأل إياها - إذا فردت - ربه.

(أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا) على كل فرد مكلَّف - من ذكرٍ أو أنثى، حرٍّ أو عبد -.

تعريف الواجب

والواجب: ما لا يعذر أحد بتركه، وهو عند الأصوليين: ما يثاب فاعله، ويعاقب تاركه.

الفرق بين الواجب والفرض

وهو والفرض بمعنى واحد، وقيل: متغايران.

فمن فعله بكمال شروطه صار من أهل الثواب، ومن تركه صار من أهل العقاب.

مسائل يجب تعلمها

(تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ) كلُّ فرد من المكلفين يجب عليه العلم

الأُولَى: العِلْمُ، ....

بهذه الأربع، فهذه الأربع واجب علينا تعلُّمها؛ فإذا تعلَّمناها تفضَّل اللَّه علينا بحصول الثواب، وإذا تركنا تعلُّم هذه الأمور أثِمْنا.

أقسام العلم وأفضلها

(الأُولَى: العِلْمُ) العلم قسمان: فرض عين، وفرض كفاية.

والعلم الشرعي على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية.

وجنس فرض العين أفضلُ من فرض الكفاية، والاْشتغال به أفضل من نوافل العبادات.

وما ذكر هو فرض عين على الذكر والأنثى، والحر والعبد؛ لا يعذر أحد بالجهل به، وجاء في حديث عن أنس رضي الله عنه: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ»[1]، فإذا ثبت فهو محمول على فرض العين.

العلم الواجب

ونصَّ أحمد على أنه يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، قيل له: مثل أي شيء؟ قال: الذي لا يسعه جهله - صلاته، وصومه، ونحو ذلك -.

الفرق بين فرض العين وفرض الكفاية

فما كان واجباً على الإنسان العمل به؛ فهو واجب عليه العلم به، بخلاف فروض الكفايات - مثل: تعلم الفرائض، ونحو ذلك -؛ فإنه إذا قام به من يكفي، سقط الإثم عن الباقين.

(١) أخرجه ٱبن ماجه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٤).

وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ.

منزلة علم فرض الكفاية

ثم إنَّ طلب العلم فيما هو فرض كفاية؛ فهو أفضل من قيام الليل، وصيام النهار، والتصدق بالذهب والفضة.

وٱشتغال المكلفين به أفضل من ٱشتغالهم بجنس المندوب؛ فإن العلم به حياة الإسلام والمسلمين، والعبادات إنما هي شيء مختص بصاحبه لا يتعدَّى إلى غيره.

فضل العلم

وتعلُّم الفرض وتعليمُه أفضل من جنس المندوب.

معرفة اللّه وطريقها

(وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ) بما تعرَّف به إلينا في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ؛ من أفعاله وأسمائه وصفاته.

معرفة النبي ﷺ فرض

(وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ) بأنه الواسطة بيننا وبين اللَّه فيما يأتي به عن اللَّه.

فمعرفته ﷺ فرض على كل مكلَّف، ومعرفته أحد مهام الدين.

معرفة الإسلام بالأدلة

(وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ) أي: الذي تُعُبِّدنا به وخُلِقنا له (بِالأَدِلَّةِ) من الكتاب والسنة؛ وفيه إشارة إلى أنه لا يصلح فيه التقليد.

وبيَّن المصنف أنه لا بد من معرفته بالبراهين؛ بحيث إنه إذا لقي اللَّه فإذا هو على بصيرة من دينه.

الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

مقدار العلم الواجب تعلمه

فهذا المقدار من العلم واجب تعلُّمه، وَتَرْكُه من أكبر الإثم، وجهل الإنسان به هو أعظم الإثم، ولا يمكن ولا يُتصوَّر العمل بشيء لا يعلمه.

مقصود العلم العمل

(الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ) والعمل هو ثمرة العلم، فالعلم مقصود وهو بمنزلة الشجرة، والعمل بمنزلة الثمرة، فلا يمكن أن توجد الثمرة قبل وجود الشجرة.

فلا بد مع العلم من العمل، فالذي معه علم ولا يعمل به شرٌّ من الجاهل، وجاء في الحديث: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ»[١].

الدعوة طريقة الرسل وأتباعهم

(الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ) فإذا حصل له - بتوفيق اللَّه - العلم والعمل؛ فيدعو إليه، كما هي طريقة الرسل ومن بعدهم.

الصبر على الدعوة

(الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ) فإذا قام بالواجب، وصدَّ الناس عن شهواتهم؛ فلا بد أن يُؤذَى فيه، فعليه أن يصبر على الأذى.

فهي واجبةٌ؛ هذه الأربع.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم (١٦٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

دليل المسائل الأربع

(**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾**) أقسم تعالى بالعصر الذي هو زمن الأعمال الصالحة أو الطالحة.

(﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾) أي: إن جميع بني آدم خاسرٌ ولا بد، إلا من ٱجتمعت فيه هذه الأربع:

(﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾) هذا فيه العلم؛ فإنه لا يمكن العمل به قبل العلم.

دلالة الإيمان على العلم

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كيف دلَّ على فرضية العلم، وفي الآية ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ولم يقل: علموا؟

معنى ﴿ءَامَنُوا۟﴾ يعني: علموا بذلك الحق، ثم آمنوا به؛ فإنه ما يمكن الإيمان بالشيء إلا بعد العلم به، يعني: عرفوا الحق، ثم آمنوا به.

(﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) فيه: العمل.

(﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾) فيه: الدعوة إليه.

(﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾) فيه: الصبر على الأذى فيه.

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ».

وَقَالَ البُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ؛ ....

الدين إجمالاً

(قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ») يعني: أن هذا هو الدين - يعني: إجمالاً -؛ فإن الدين إيمان وعمل ودعوة وصبر.

منزلة سورة العصر

وكلام هذا الإمام يفيد عِظَمَ شأن هذه السورة العظيمة عند السلف والخلف، وهو كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ، حقيقةٌ بأن يقال فيها كما قال.

مرتبة العلم قبل القول والعمل

(وَقَالَ البُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ) يعني: مرتبة العلم قبل مرتبة العمل - يعني: في الوجود والأقدمية - فالعلم أهم من هذه الناحية؛ فإن العمل لا يوجد في الوجود إلا بعد حصول العلم في الوجود.

يعني: أنَّ تعلُّم العلم الواجب مقدم على القول والعمل، وذلك أن العمل لا يصح إلا إذا صدر عن علم.

وتقدَّم أنَّ العلم شجرة، والعمل ثمرة، فلا توجد الثمرة قبل الشجرة.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، فَبَدَأَ «بِالعِلْمِ» قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ.

الدليل على أن العلم قبل القول والعمل

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾) ٱستدلَّ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية الكريمة، كما ٱستدلَّ بها البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فدلَّ على صحة ما تَرجم به، وذلك أنَّ اللَّه تعالى أمر نبيَّه ﷺ بأمرين: العلم ثم العمل، والمبدوء به العلم في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

فدلَّ على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن ترجمة البخاري صحيحة ثابتة المعنى.

(فَبَدَأَ «بِالعِلْمِ» قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ) ولا يُبدأ إلا بالأهم، فالأهم.



اَعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ، والعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، . . . .

الرسالة الثانية: وجوب تعلم ثلاث مسائل، والعمل بهن

(اَعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ -: أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) مكلَّفٍ - من حُرٍّ وعبد، وذكر وأنثى -.

(تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ، وَالعَمَلُ بِهِنَّ) واجبٌ ومتعيِّنٌ علينا معرفتهن؛ فإن العمل هو ثمرة العلم، ويجب علينا في كلِّ مسألة: العلم، والعمل بها - فالواجب شيئان في كل مسألة -.

المسألة الأولى: الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته

(الأُولَى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا) من بَعْد العدم، وأوجدنا بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً.

(وَرَزَقَنَا) بالنِّعم؛ لنستعين بها على العمل بما خلقنا له.

يجب علينا معرفة أن اللَّه خلقنا من بعد العدم، وأوجدنا بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً، ورزقنا.

(وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً) مهملين شِبْهَ البهائم، بل أَمَرنا ونهانا.

(بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً) وهو محمد ﷺ؛ مبيِّناً لنا ما أُمِرْنا به، وتَرْكَ ما نُهينا عنه.

ثواب من أطاع الرسول ﷺ، وعقاب من عصاه

(فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ) فمن أطاعه فيما أَمره به دخل الجنة.

وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

(وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ) ومن عصاه وكذَّب بما جاء به دخل النَّار.

منزلة الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته

فهذا أصل عظيم، يجب علينا: معرفته، واعتقاده، والعمل بمقتضاه.

دليل رسالة نبينا محمد ﷺ لنا

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾)

معنى شهادة الرسول ﷺ على أمته

يعني: بأعمالكم، هذا معنى شهادته على أمته يوم القيامة، شاهداً علينا بأعمالنا، ومثله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ - أي: عدلاً خياراً - ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

(﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾) وهو موسى عليه السلام.

(﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾) وأبى إلا التمادي في الكفر والعناد.

أنواع العذاب على فرعون وقومه

(﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾) أي: شديداً، وذلك بإغراق اللَّه لهم في البحر حتى لم يُفلِت منهم أحداً، ثم بعد ذلك في عذاب البرزخ إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وفي الآخرة: النَّار، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَـدٌ، ....

ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فهذه عاقبة من عصى اللَّه ورسله؛ فٱحذروا أنتم - أيُّها الأمة - أن تعصوا نبيكم فيحل بكم كما حل بهم.

عاقبة من عصى اللَّه ورسله

(الثَّانِيَةُ)؛ الثانية - مما يجب على كل مكلَّف معرفته والعمل بمقتضاه -: تقدَّمت الأولى، وهذه المسألة الثانية من المسائل الثلاث التي يجب على كل مسلم - حرٍّ وعبد - أن يعلمها ويعمل بها.

المسألة الثانية: توحيد اللَّه

أن يعلم ويعتقد (أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَـدٌ)؛ لأن هـذا هـو الـكـفـر والـضـلال، وأظـلـم الـظـلـم عـلـى الإطلاق.

الشرك أظلم الظلم

يجب عليك أن تعلم أن اللَّه يسخط ذلك؛ لأنه كفر، واللَّه لا يرضى عبادة الكفر، ويرضى الإسلام، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

فيجب عليك العلم بذلك، والعمل به؛ بأن توحِّد ربك بالعبادة.

العلم بالتوحيد، والعمل به

هذا العلم بذلك، وٱعتقاده، والعمل بموجبه، ويجب عليه العمل به؛ بأن يُفرِد اللَّهَ بالعبادة.

والظلم في لغة العرب: وضع الشيء في غير موضعه، ومنه

معنى الظلم

لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ ....

سُمِّي المشركُ ظالماً؛ لأنه وَضَع العبادة في غير موضعها وَصَرَفها لغير مستحقها.

قبح الشرك

وهو أعلى مراتب الظلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك.

وهو الشرك الذي نَهى عنه، ولا يرضاه لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وإنما يرضى لهم الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّه يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثاً: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»[١].

(لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ) عند اللَّه؛ لا جبريل، ولا ميكائيل، ولا إسرافيل.

(وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ) لا النبي، ولا موسى، ولا عيسى، ولا إبراهيم، ولا نوح، ولا غيرهم أبداً.

العبادة حق اللَّه وحده

(لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ) يعني: فضلاً عن غيرهما.

فلا يرضى أن يُجعل له شريكٌ - أي: ندٌّ - في عبادته، لا

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه، رقم (١٧١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وتمامه: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثاً، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثاً، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ».

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

من الملائكة، ولا من الأنبياء، ولا مَن دونهم بطريق الأولى؛ لأن العبادة حقُّ رب العالمين، والمخلوق - وإن بلغ من المكانة والقرب من اللَّه ـ ليس له شيء من العبادة أبداً، فالعبادة حقُّ رب العالمين، الذي من أجله أرسل الرسل وأنزل الكتب.

كمال الرب، ونقص الخلق

للربِّ حقٌّ لا ينبغي لأحد من الخلق، جنسُ ما هو لربِّ العالمين ما يصلُ ذلك المخلوق وإن جُعل مع فضله أضعافُ أضعافه، كما أنه لا يصلح ولا يتأهل إلى أقلِّ كمالٍ من كمال رب العالمين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فالمخلوق مهما بلغ فلا يصل إلى بعض كمال الرب، فكذلك لا يصلح أن يُصرف له شيء من حقه - وإن دقَّ - أبداً.

دليل وجوب التوحيد

(وَالدَّلِيلُ) على ذلك: **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾)** يعني: من أدلة ذلك هذه الآية، وإلا فأدلة ذلك من الكتاب والسنة والعقل الصحيح الذي لا يماري أحد في صحته، كيف يُسوَّى المخلوقُ الناقصُ بالكامل الخالق؛ فإن المخلوق من لازمه النقص، فكيف يُسوَّى بالخالق؟! كما أنه أضل الضلال؛ فهو أمحل المحال أن يكون كاملاً.

الدليل العقلي على بطلان الشرك

النهي عن الشرك

(﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾) نهي عام دخل فيه جميع الخلق - من الملائكة، والأنبياء، وغيرهم -.

. . . .

أقسام الدعاء

الدعاء - قد عرفناه - على قسمين:

دعاء عبادة - دعاء العبادة: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، واللَّه أكبر، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه - الذي هو دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء سؤال وطلب - دعاء الطلب: ٱفعل لي كذا، ولا تفعل لي كذا -.

كلٌّ عبادة - لا دعاء ثناء، ولا دعاء سؤال وطلب - إلا أن هذه في الثاني أظهر، فالآية منعت أن يصرف لغير اللَّه هذا وهذا.

كل هذا لا يصلح إلا للَّه.

الجائز والممنوع من سؤال الخلق

ولا يدخل في هذا طلب المخلوق ما يقدر عليه، كأعطني هذا السواك، ونحو ذلك، لكن الطلب بٱعتبار السرِّ والخصوصية هذا لا يصلح إلا للَّه.

﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ يعني: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة.

(الواو) للجميع - كلِّ الخلق -.

عموم النهي عن دعاء غير اللَّه

و﴿أَحَدٗا﴾ عام فيمن يمكن أن يُدْعَى؛ فإنها تعم جميع الخلق، جميع مَن يُتَصور أنَّه يُدْعَى، فإنَّ ﴿أَحَدٗا﴾ نكرةٌ في سياق

. . . .

النهي شملت جميع مَن يُدعى من دون اللَّه - سواء كان مَلَكاً، أو نبياً، أو وليّاً، أو شجرة، أو قبراً، أو جنِّيّاً، أو غير ذلك - فإن هذا هو الشرك الذي لا يغفره اللَّه إلا بالتوبة منه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

ثلاثة عمومات في الآية

فصار في الآية ثلاثة عمومات: عموم الدعاء، وعموم المكلفين حتى الأنبياء، وعموم مَن يُدعى من دون اللَّه.

خلاصة فوائد

فعرفنا مسألتين كبيرتين:

مسألتان كبيرتان

إحداهما: أن الرب لا يرضى أن يُجعل له شريكٌ في العبادة وإن كان المخلوق ما كان.

الثانية: دليل ذلك: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾.

والدليل فيه خمسة أشياء:

المراد بالمساجد في الآية

أولاً: معرفة المساجد؛ فيها قولان:

قيل: التي يسجد بها - وهي: اليدان، والرجلان، والوجه - كيف يخلقها ويُسجد بها لغيره؟!

والقول الآخر: أنها هذه المساجد المبنيَّة، هي للَّه - يعني: بُنيت لإقامة الدين له وتوحيده - كيف يُعمل فيها الشرك؟!

. . . .

الجمع بين القولين

وفي الحقيقة: المعنى واحد؛ كلٌّ واحد خُلق ليُعبد بها أو فيها، فلا يشرك فيها غيرُه، فالمساجد بنيت ليُوحد فيها فلا يشرك فيها.

ثم - أيضاً - الدعاء: عرفنا أنه نوعان[1].

ثلاثة عمومات في الآية

والفائدة الثالثة: عرفنا ثلاثة عمومات؛ لا العبادة ولا المسألة، و(الواو) لكل الداعين؛ فلا مرخّصاً لأحد، و﴿أَحَدًا﴾ عامٌ فيمن يُمكن أن يُدعى[2].

فعرفنا: أنها مسألة في ضمنها الدليل.

وعرفنا: أن في ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ قولين، وأن الدعاء نوعان، وأن في الآية ثلاثة عمومات.

مسائل كبار

فحينئذ المسائل ٱثنتان كبار:

إحداهما: أن اللَّه لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته، هذه مسألة.

الثانية: دليل ذلك ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وفي ضمنها تفسير المساجد.

---

(١) هذه الفائدة الثانية من الآية.

(٢) وهذه الفائدة الثالثة، وفيها ثلاث فوائد، فصار مجمل ما سبق خمسة أشياء.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ، لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، ....

المسألة الثالثة: الولاء والبراء

(الثَّالِثَةُ) من المسائل الثلاث التي تقدمت - مما يجب على كل مكلَّف معرفته، وٱعتقاده، والعمل بموجبه - التي يجب على كلِّ مسلم ومسلمة أن يتعلَّمها ويعمل بها، هي هذه؛ يجب أن تعلم **(أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ)** فيما أمر به **(وَوَحَّدَ اللَّهَ)** في عبادته - المراد به المسلم -، **(لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)** حرام عليه ذلك؛ حرام عليه موالاة أعداء اللَّه، وهم الكفار.

تحريم موالاة من حاد اللَّه ورسوله ﷺ

الكفار محادون للَّه وللرسول ﷺ

الكفار يُسمَّون محادِّين للَّه ورسوله؛ من جهة أن اللَّه ورسوله في حد - الأصل في الحدِّ المعنوي، وأيضاً في الحسي - ولهذا شرعية الهجرة معروفة، فهم محادُّون للَّه ورسوله من جهة الشرع.

(أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ، لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) العلم وٱعتقاده والعمل، أيش[1] صفته؟

أن يُعادي من حادَّ اللَّه ورسوله، ولا يواليه.

ومعنى من كان في حدٍّ، واللَّه ورسوله في حدٍّ: فإنَّ الكفار في جانب وحدٍّ، والمسلمين وربَّ العالمين والرسول والدين في جانب.

(١) «أيش» كلمة عربية فصيحة، وأصلها: أيُّ شيء. يُنظر: تهذيب اللغة (١١/ ٤٧)، فقه اللغة (١/ ٢٥٠).

. . . .

فإنهم في حدٍّ - يعني: جانب - واللَّه ورسوله في حدٍّ.

معنى المحادة

والمحادَّة هي: المجانبة؛ ولها عند أهل العلم معنيان:

أحدهما: أن الكفار كانوا في حدٍّ، والمؤمنون في حدٍّ آخر، يعني: كانوا في الحدِّ الذي فيه إبليس وجنوده، وهو الكفر، والمؤمنون كانوا في حدِّ اللَّه ورسوله، وهو الإيمان.

والقول الثاني: أنهم ليس بينهم وبين المسلمين إلا الحديد، يعني: القتال بالحديد.

الفرق بين الموالاة والتولي

والتولي: هو النصرة والمعاونة، والموالاة دون ذلك.

الفرق بينها والتولي: هو النصرة وما يتبعها في شيء أغلظ - من المحبة[1]، والذبِّ عنهم، ونحو ذلك -.

فالموالاة معصية، والتولي ردة؛ لقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، فإذا عاونهم على المسلمين فهي ردة بلا شك.

تحريم مجالسة المشركين ومصاحبتهم

المقصود: أن محبتهم[2]، ومجالستهم، ومصاحبتهم - وشبه هذا - حرام.

ومما ذَكر فيه الشيخ عبد اللَّه[3] - سأله عنها ٱبن عيسى

(١) لدينهم. (٢) لأمر دنيوي.

(٣) يعني: عمه الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

صاحب المذنب في الثالث(١)، وعبد اللطيف(٢) -.

قطع الموالاة بين المسلمين والكفار

(وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ) ولو كان المحادُّ للَّه ورسوله أقرب قريب؛ فإن اللَّه قطع بين المسلمين والكفار التواصل والتوارث والتعاقل، وغير ذلك من الأحكام، وقَطَعَ العلائق وقُرْبَ الأنساب - لو أنه ابنك، أو أبوك؛ فضلاً عمن دونهما من القرابة -، فإنَّ اللَّه قطع الموالاة بيننا وبين الكفار، وقطع التوارث والتعامل.

القرب الحقيقي

فإن القُرْب إنما هو في الحقيقة قرب الدين لا قرب النسب، فالمسلم ولو كان بعيد الدار فهو أخوك في الدين، والكافر ولو كان أخاك في النسب فهو عدوك في الدين، فحرام على كلِّ مسلم ومسلمة موالاتهم؛ إنما هم أعداء وبُغَضَاء، لا أولياء وأصدقاء.

تحريم موالاة الكفار

يعني: حرام على المسلم موالاة الكفار ولو كان المحادُّ للَّه ورسوله أقرب قريب، حرام عليه موالاة أعداء اللَّه؛ بل يجب على كل مسلم مقاطعتهم ومصادمتهم وعداوتهم أشد المعاداة.

---

(١) أي: في المجلد الثالث من الدرر السنية في الأجوبة النجدية (ص ٢٠١)، الطبعة الأولى.

(٢) يعني: جده الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجوابه في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/ ١٥٩)، الطبعة الأولى.

. . . .

الواجب على المسلم مع أعداء الله

ومعنى (**مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ...**) يعني: المسلم لا يجوز له موالاة من حاد اللَّه ورسوله؛ يعني: محبة من حاد اللَّه ورسوله ومصادقته ومصاحبته؛ بل يجب عليه مقاطعته وكراهيته ولو كان المحادُّ للَّه ورسوله أقرب قريب، فالقرب في الحقيقة قُرب الدين، فالذي دينه دينك هو أخوك، ولو كان من البَرْبَر، وبلده في أي ناحية بَعُدت؛ فإن الجامع والفارق هو الدين، من ٱجتمع معك فهو أخوك، ومن كان ليس معك فيه فهو البعيد، ألا ترى أنك يرثها[١] بيت مال المسلمين، فيصير مصرفاً له، فهو للمسلمين؛ وأيضاً لهم الحق في المطالبة عنه؛ هو أخوهم.

أما المخالف للدين فلا ترثه إن مات - والعياذ باللَّه -، ونحو ذلك ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ، وإذا قتل أحداً لا تلزمك العاقلة؛ لأنه ليس منك ولا أنت منه.

والمسلم إذا قتل أحداً خطأً فهو من بيت المال إذا كان ما له قرابة؛ لأنه منهم.

خلاصة فوائد

هذه الفائدة الأولى.

والفائدة الثانية: دليل ذلك، وهي قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾.

---

(١) أي: تَرِكَتُك.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ....

فالأولى: أن اللَّه حرَّم على المسلمين موالاة الكفار كائنين من القرب ما كانوا.

الثانية: دليل ذلك.

وفي ضمن الأولى فوائدُ: معناها - عرفتَ أنه محبتهم ... إلخ -، ومعنى ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾.

والدليل يأتي ما فيه من الفوائد.

دليل الولاء والبراء

(وَالدَّلِيلُ) ودليل ذلك من الكتاب العزيز: **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾)** خطاب للنبي ﷺ.

حال المؤمنين مع الكفار

أخبر تعالى نبيه ﷺ أنه لا يجد ﴿قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الإيمان الواجب **(﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾)**؛ بل لا تجد المؤمنين إلا محادِّين لمن حادَّ اللَّه ورسوله، معادِين من عادَى اللَّه ورسوله - وهم الكافرون -؛ بل لا تجد قوماً يوادُّونهم إلا وهم غير مؤمنين باللَّه، فمودتهم تنافي الإيمان الواجب؛ فإن ما أوجب اللَّه هو مصارمتهم ومعاداتهم.

حكم موالاة الكفار

يعني: لا تجد الذين إيمانهم صحيح يوادُّون؛ بل تجد من يواليهم أناساً ليسوا من أهل كمال الإيمان الواجب.

وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

(﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾)

ولو كانوا - يعني: المحادين للَّه ورسوله - وإن كانوا أقرب قريب، هذا من تمامها.

ثواب المحققين الولاء والبراء

ثم في آخر الآية ذكر ثوابهم:

الكتابة القدرية

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾) يعني: أثبت في قلوبهم الإيمان، وهذه كتابة كونية قدرية.

(﴿وَأَيَّدَهُم﴾) وقوّاهم (﴿بِرُوحٖ مِّنْهُۖ﴾) هي على معناها؛ ظاهرٌ هذا.

(﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾).

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾) في أرضه.

(﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾) أي: هم الفائزون الناجون يوم القيامة، وجاء في الحديث: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ

. . . .

لِفَاجِرٍ، وَلَا لِفَاسِقٍ عِنْدِي يَداً، وَلَا نِعْمَةً؛ فَإِنِّي وَجَدْتُ فِيمَا أَوْحَيْتَهُ إِلَيَّ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآيَةَ»[١].

فدلت الآية على:

مقتضى الإيمان الواجب

- أن الإيمان الواجب يوجب محادَّة من حاد اللَّه ورسوله، كما أنه يستلزم محبة من يحب اللَّه ورسوله، فَمَن والى الكافرين فقد ترك واجباً من واجبات الإيمان، واستحقَّ أن يُنفى عنه الإيمان كما في النصوص، وكذا من ترك موالاة المؤمنين فقد ترك واجباً من واجبات الإيمان، واستحقَّ أن يُنفى عنه الإيمان، ولا يلزم من نفيه عنهم أن ينتفي بالكلية.

دلالة نفي الإيمان عن المرء، ومقالات الطوائف فيه

- أن اللَّه ورسوله لا ينفيان مسمًّى شرعيّاً إلا لترك بعض واجباته، فإنْ دلَّنا دليل شرعي على أن هذا النفي نفيٌ له بالكلية وحكم عليه بالكفر حكمنا به، وإلا فهو نفي لترك بعض واجباته.

وغلت الخوارج فقالوا: كل ما نُفي عنه الإيمان فهو كافر، وغَلِطوا؛ فإنه موجودٌ مَن نُفي عنه ومع ذلك يُناكَح ويُوارَث ... إلخ.

(١) قال الحافظ العراقي رحمه الله: «أخرجه ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ، وأبو موسى المديني في كتاب (تضييع العمر والأيام)؛ مرسلاً، وأسانيده كلها ضعيفة». المغني عن حمل الأسفار (ص ٦٠١).

. . . .

فغلِط في نفيه طائفتان:

فالمعتزلة والخوارج قالوا: هذا النفي يخرجه من الملَّة.

وطائفة قالت: نفي لكماله المستحب؛ وهؤلاء غَلِطوا.

فوائد الآية

فصار تحت الآية فوائد:

الأولى: نفي الإيمان عنهم نفيٌ للكمال الواجب.

والمولاة: المحبة، هذه ثانية.

وأما من حاد اللَّه ورسوله فكما عرفنا قبل.

﴿كَتَبَ﴾ أثبت في قلوبهم الإيمان.

﴿وَأَيَّدَهُم﴾ قوَّاهم، ثم أيضاً ذكر جزاءهم بأنواع، من جزائهم: دخولهم جنات، ورضوان اللَّه أكبر - كما في الآية -.

الثالثة: أنهم حزب اللَّه وحدهم لا سواهم، فما بالوا بالناس، حتى الأقارب قاطعوهم؛ قاطعوا الآباء والإخوان، فعُوِّضوا أن يكونوا في ناسٍ خيرٍ منهم، وهم حزب ربِّ العالمين، الذين هم الرسول والمؤمنون.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

مدلول نفي الإيمان

فالفوائد: - الأولى منها التي في الدليل - الأولى: نفي الإيمان عن وادِّي أعداء اللَّه ورسوله؛ هذا من أحكامهم،

. . . .

والمراد: أنه عاص، فنفي الإيمان عنهم معصية، ولا يحضرني الآن لفظُ نصٍّ أنها كبيرة، وأما هذه الآية فإنها لا تدل إلا على أصل الشيخ[1]؛ فهي كبيرة لأنه نفى الإيمان عنهم، وأشار إلى ذلك شارح التوحيد في «تيسير العزيز»، ذَكَر قال: أو نفي الإيمان عنه[2]، فعلى هذا تطلق أنه كبيرة، وحينما سُئلتُ ما حضرني إلا قول الجمهور: التوعُّد عليه.

فالأُولى: نفي الإيمان عن مُوادِّ الكفار، ونفي الإيمان هو نفي كماله الواجب.

فنعيد المسائل:

ثناء الله على المؤمنين

الأُولى: أن المؤمنين باللَّه واليوم الآخر لا يوادُّون الكفار؛ أثنى عليهم بأنواعٍ من الثناء، وذَكَر لهم أنواعاً من الثواب، أثنى عليهم بكونهم لا يوادُّون الكفار.

الثانية: أن مُوادَّهم ليس من أهل الإيمان الواجب بالمفهوم.

الثالثة: و﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ هو ثوابٌ لعدم مُوادَّتهم.

---

(١) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونصه: «نفي الإيمان والجنة أو كونه من المؤمنين لا يكون إلا عن كبيرة». مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٦٥٤).

(٢) قال في تيسير العزيز الحميد (ص ٤٠٧): «فمن لم يكن كذلك، فهو من أصحاب الكبائر، إذا لم يكن كافراً، فإنه لا يُعهد في لسان الشرع نفي اسم مسمى أمر اللَّه به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته».

. . . .

ثواب من حاد أعداء اللَّه

الرابعة: هذا الثواب لهم لأن الجزاء من جنس العمل؛ لَمَّا عملوا بمقتضى الإيمان جازاهم اللَّه من جنس العمل:

فكان راسياً في قلوبهم[١].

وأيضاً قويت شجاعتهم، بأن حاربوا أنفسهم وشهواتهم؛ أثابهم اللَّه تعالى فكان لهم التأييد[٢].

الثالث: جنات.

الرابع: رضوان اللَّه.

الخامس: التسجيل بكونهم حزبه على الإطلاق.

والسادس: التسجيل لحزبه بكونهم أهل الفلاح فقط، لا سواهم.

خلاصة فوائد

فصار فيها مسألتان كبار:

معرفة أن اللَّه حرم على المسلمين موالاة الكفار، وفي ضمن ذلك فائدة وهو: معرفة معناها؛ أنها المحبة، وما يُشْبِهُ لها، والمودة.

ومعنى المحادة: كونهم في حدٍّ، واللَّه ورسوله والمؤمنون في حدٍّ.

---

(١) وهذا الجزاء الأول.

(٢) وهذا الجزاء الثاني.

. . . .

المسألة الثانية الكبيرة: دليل ذلك، فكانت فائدة ثانية، ثم في هذه الثانية فوائد؛ منها:

الأولى: ثناء اللَّه تعالى على المؤمنين الإيمان الواجب، كونهم لا يوادون عدوَّ اللَّه، فثناؤه على الذين لا يوادون من حاد اللَّه ورسوله لكونهم مؤمنين.

الثانية: مفهوم ذلك هو: أن الموادِّين أنهم ليسوا من أهل الإيمان الواجب - الأُولى من صفات المؤمنين الذين أثنى اللَّه عليهم، فمفهوم ذلك أن الذين يقعون في هذا العمل ليسوا بمؤمنين -.

الثالثة: ذكر ثوابهم - كونه كَتَب الإيمان في قلوبهم - بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

الرابعة: كونه أيَّدهم بروح منه.

الخامسة: ويدخلهم جنات.

السادسة: رضا اللَّه عنهم.

السابعة: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾.



ٱعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ -: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ - مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ -: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، ....

الرسالة الثالثة: في عبادة اللَّه وحده، وترك عبادة ما سواه

(ٱعْلَمْ) ٱدْرِ وٱعرف أن ملة إبراهيم المسماة بالحنيفية هي: عبادة اللَّه بالإخلاص، وترك عبادة ما سواه.

(أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ) هداك، ووفقك.

(أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ - مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ -) المذكورة في الآيات كقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

معنى الحنيفية

الحنيفية ٱشتقاقها في اللغة: من الحَنَف، وهو الميل؛ فالحنيفية ملة إبراهيم ٱشتقاقها من هذا.

والحنيف: مشتق من الحَنَف.

وهي: **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ)** عبادةُ اللَّه بالإخلاص، وتَرْكُ عبادة ما سواه.

معنى الحنيف

والحنيف: المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد.

وقيل: المُقْبِل على اللَّه، المُعْرِض عن كل ما سواه.

الجمع بين التعريفين

والتعريفان حقٌّ لا منافاة؛ فالمقبل على اللَّه مائل عن الشرك، فمعناها واحد، والإنسان الحنيف هو: المقبل على اللَّه، المعرض عن كل ما سواه.

. . . .

فالحنيفية هي من هذا المعنى، فهي ملَّةُ الإقبال على اللَّه والإعراض عن كل ما سواه.

فمن المعلوم: أن عابد اللَّه وحده؛ مقبلٌ على اللَّه، منصرفٌ عن كل ما سواه.

فالحنيفية - التي عرفنا ٱشتقاقها - هي: أن تعبد اللَّه مخلصاً له الدين.

تعريف آخر للحنيفية

وللحنيفية - ملَّةُ إبراهيم - تعريف ما هو بمتناقل: أنها الحب في اللَّه، والموالاة في اللَّه، والمعاداة فيه.

والمصنف يقول هذا.

المعنى الجامع للحنيفية

فتكون الخصال المذكورة: بعضها من حقوقها، وبعضها من لوازمها، أو أنه يجمعها شيء واحد؛ هو أن تعبد اللَّه مخلصاً له الدين.

تعريف العبادة لغة

ثم العبادة نعرف تعريفها: أنها التذلل؛ يقال: طريق مُعبَّد، أي: مذلل، كما قال ٱمرؤ القيس:

تُبارِي عِتاقاً ناجياتٍ وأَتْبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَورٍ معبَّدِ[1]

يعني: مذلَّل.

---

(١) البيت لطَرَفَة بن العبد البكري في معلقته، ورقمه (١٤).

مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، . . . .

لماذا سميت عبادة؟

قال بعضهم: سميت عبادات؛ لأن المؤهلين يفعلونها خاضعين ذليلين للَّه، هذا معنى كلام القرطبي(١).

هذا حدها في اللغة: التذلل، والخضوع.

تعريف العبادة شرعاً

وأما في الشرع: فلها تعاريف عديدة، منها تعريف شيخ الإسلام المعروف: «ٱسم جامع لكلِّ ما يحبه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة».

والفقهاء يعرِّفونها: بأنها «ما أُمر به شرعاً، من غير ٱطِّرادٍ عرفيٍّ، ولا ٱقتضاءٍ عقليّ».

وٱبن القيم قال(٢):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ   مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

فتكون غاية الحب في غاية الذل؛ غاية الحب للَّه، في غاية الذل له.

معنى الإخلاص

(مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) والإخلاص: من الخلوص، وهو الصفاء والسلامة من شائبةِ غشٍّ أو خلط، يُقال: هذا شيء خالص.

---

(١) في تفسيره - الجامع لأحكام القرآن - (١/ ٢٢٥)، ونصه: «وأصل العبادة: الخضوع والتذلل، يُقال: طريق معبَّدة، إذا كانت موطوءة بالأقدام، قال طَرَفة: وظيفاً وظيفاً فوق مَورٍ معبَّدِ».

(٢) الكافية الشافية «نونية ٱبن القيم» (ص ٣٥).

. . . .

يعني: أن تعبُده سالمةً عبادتك إياه؛ سالمةً من غشٍّ ومن خلط؛ بل هي على التحقيق.

ومعنى هذا: أن تكون كلُّها لخالقك، لا تجعل منها شيئاً للخلق.

معنى الدين لغة

والدِّينُ يطلق في لغة العرب: على الحساب، ويطلق: على الجزاء.

دانه: جازاه.

دانه: حاسبه.

كما قد بُيِّن لكم على تفسير ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1].

يطلق على الجزاء؛ لقوله:

. . . . دِنَّاهم كما دانوا[2]

أما على الحساب: مِن دان نفسه، أي: حاسب نفسه.

---

(١) في شرح كتاب آداب المشي إلى الصلاة لسماحة الشيخ (ص ٣٧)، وفي شرح شروط الصلاة لسماحته أيضاً «مخطوط»، فقد كان رحمه الله يُدرِّس في الوقت الواحد أكثر من فنٍّ.

(٢) هذا البيت للفند الزماني، وتمامه:

ولم يبق سوى العدوان ... دِنَّاهم كما دانوا

الحماسة لأبي تمام (ص ٥٩).

وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، . . . .

تعريف الدين شرعاً

وفي الشرع: «هو ٱسم لما تُعُبِّد به الخلق؛ من عبادة اللَّه وحده لا شريك له، بٱمتثال أوامره، وٱجتناب زواجره».

وهذا التعريف يجمع رسالة جميع الرسل.

جميع الناس أمروا بالحنيفية وخلقوا لها

(وَبِذَلِكَ) يعني: بالحنيفية التي هي هذا الدين، التي هي ملة إبراهيم؛ وهي: عبادته بالإخلاص.

(أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ) هي التي أمر اللَّه بها جميع الناس - حُرَّهم وعبدهم، عربهم وعجمهم -.

(وَخَلَقَهُمْ لَهَا) للحنيفيَّة، وهي التي خلق اللَّه لها جميع الناس؛ بل ما خلقهم إلا لها، **(كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾)**.

فإذا عرفت أن الحنيفية ملة إبراهيم؛ فٱعرف أنها التي خُلق لها الثقلان، وأُمر بها جميعُ الناس، وخُلقوا لأجلها، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

مدلول آية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

فأفادت الآية الكريمة أن الخلق لم يُخلقوا عبثاً، ولم يتركوا سدًى، وأن اللَّه أوجدهم لحكمة، وهذه الحكمة هي: عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ فهو دليل على ما تقدم من بيان الحكمة الشرعية الدينية في خلق الثقلين، وأنها ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾؛ ليوحدون - وتقدم لكم ٱشتقاقها، وتعريفها -.

وَمَعْنَى «يَعْبُدُونِ»: يُوَحِّدُونِ.

معنى عبادة اللّه

(وَمَعْنَى «يَعْبُدُونِ»: يُوَحِّدُونِ) قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: «كُلُّ مَوْضِعٍ فِي القُرْآنِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ فَمَعْنَاهُ: وَحِّدُوا اللَّهَ»، وقال - أيضاً -: «عِبَادَةُ اللَّهِ: تَوْحِيدُ اللَّهِ».

قاعدة عظيمة في العبادة

وكل ما في القرآن ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ فهي عبادة اللَّه وحده، أما عبادة غيره فلا يطلق على من عبده وعبد معه غيره؛ بل من عبده وعبد معه غيره فإنه لا يسمى عابداً، ولهذا قال المصنف في المسائل[1]: «إِنَّ العِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ فِيهِ الخُصُومَةَ»؛ بل أن تكون العبادات الواقعةُ كلُّها للَّه، لا أن يوجد منهم عبادات للَّه، هذا لا يكفي؛ بل لا بد أن تكون العبادات كلُّها الواقعة منهم لربهم في جميع الحالات.

تعريف العبادة لغة

والعبادة في اللغة: التذلل والخضوع، من قولهم: طريق مُعبَّد، أي: مذلَّلٌ قد وطِأته الأقدام.

لماذا سميت العبادة بهذا ؟

وسُميت وظائف الشرع على المكلفين: عبادات؛ لأنهم يفعلونها للَّه خاضعين ذالِّين.

تعريف العبادة شرعاً

وفي الشرع: لها عند العلماء تعاريف؛ أحسنها وأشملها ما عرفها به شيخ الإسلام بقوله: «العبادة ٱسم جامع لكلِّ ما

(١) أي: في مسائل الباب الأول من كتاب التوحيد؛ قال: «الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه». كتاب التوحيد، ضمن «متون طالب العلم» (ص ١٧٠).

. . . .

يحبُّه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة».

خلاصة فوائد

فتحصل لنا من هذا فوائد - بعضها في نص المتن، وبعضها مما يفهم من الكلام -:

أولاً: عرفنا معنى **(أرشدك اللَّه)** - هذه دعوة دعاها المصنف -.

معنى: (أرشدك اللَّه)

فمعنى **(أرشدك)**: هداك، دعاءٌ من المصنف للطالب، يعني: هداك ووفقك لطاعته، هذا لفظها لفظ الخبر، ومعناها معنى الطلب، فتقول: يرحم اللَّه فلاناً، ومعناها: اللهم ٱرحمه؛ الحاصل: أن معناها معنى الطلب.

معنى الحنيفية وٱشتقاقها

والثانية: معنى ٱشتقاق الحنيفية، وأنها من الميل، وعرفنا: معنى الحنيف، فالحنيفية هي: الإقبال على اللَّه، والإعراض عن كل ما سواه، أو الميل عن الشرك قصداً إلى التوحيد.

سادة الحنفاء

وإبراهيم سمي حنيفاً؛ لكونه قام بجنابها أعظم مما قام به مَنْ قبله، ونبينا ﷺ أُوحي إليه أن يتبع إبراهيم، فَسَادَةُ الحنفاء: إبراهيم، ومحمد - عليهما الصَّلاة والسَّلام -.

هذه ثلاث.

ثم خَبَرُ (أنَّ) قولُه: **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ)**.

. . . .

معنى: (أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد اللَّه)

تعرف أن الحنيفية: هي عبادة اللَّه بالإخلاص، ما هي بأن الحنيفية ملة إبراهيم؛ بل إن الحنيفية - المعروف بأنها ملة إبراهيم -: أن تعبد اللَّه وحده مخلصاً له الدين.

هذا معنى الجملة بالتمام.

فنعرف: أن الحنيفية ملة إبراهيم هي: عبادة اللَّه بالإخلاص.

وعرفنا: ٱشتقاق الحنيف والحنيفية، وأن الحنف: هو الميل، ومعنى الحنيف، وإبراهيم هو الحنيف، والحنيفية: مِلَّتُه.

الحنيف على الحقيقة

فالحنيف حقيقة: هو المقبل على اللَّه، المنصرف عن كل ما سواه.

سبب نسبة الحنفية لإبراهيم عليه السلام

وعرفنا: أنها لقبٌ لملة إبراهيم، فهي تنسب إليه لكونه هو الكبير الأكبر فيها؛ فإنه كان له فيها ما لم يكن لسواه، كان له من كمال الإخلاص والٱنقطاع عن كل ما سواه الكمال.

وبذلك أمر اللَّه نبيَّنا محمَّداً ﷺ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

هذه أربع.

ثم عرفنا - أيضاً - في ضمنها - زيادة -: ٱشتقاق العبادة؛ هذه خامسة.

. . . .

وعرفنا سادسة وهي: تعريف العبادة عند أهل الشرع، ولها تعاريف عديدة، منها: تعريف الشيخ: «ٱسم جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة».

الإخلاص هو التوحيد

وعرفنا سابعة: أن الإخلاص أنه من الصفاء وعدم الكَدَر، وقد يُعبَّر عن الإخلاص بالتوحيد، سُمِّي التوحيد إخلاصاً؛ كون معناه تمحيصاً له، ومنه سورة الإخلاص، ومخلصين.

تعريف الدين لغة وشرعاً

وعرفنا الدين في اللغة: أنه يطلق على الجزاء، ويطلق على الحساب[1].

وفي الشرع: «ٱسم لما تُعبِّد به الخلق؛ من عبادة اللَّه وحده لا شريك له، بٱمتثال أوامره، وٱجتناب زواجره».

فالدين شرعاً: «ما أرسل به الرسل، بفعل ما أَمر به، وترك ما نهى اللَّه عنه»[2].

الفائدة الكبرى العاشرة: أن الحنيفية - المعروف أنها ملة إبراهيم - أنها: عبادة اللَّه بالإخلاص.

أما العشر التي في ضمن ذلك[3]:

---

(١) وهذه الفائدة الثامنة.

(٢) وهذه الفائدة التاسعة.

(٣) أي: على سبيل الإجمال.

. . . .

معنى: (أرشدك).

وٱشتقاق الحنيف: أنه من الحنف، وهو الميل.

معنى الحنيف

ومعنى الحنيف: هو المقبل على اللَّه، المُنْصرف عن كل ما سواه، والحنيفية: لقبٌ لملة إبراهيم؛ لأجل أنه الحنيف تماماً.

معنى الملة

والملة هي: الطريقة، والدين، أو شِبْهُ هذا.

وٱشتقاق العبادة: أنها التذلل والخضوع.

تعريف العبادة شرعاً

والسادسة: تعريف العبادة شرعاً: أنها «ٱسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة».

تعريف الدين لغة وشرعاً

والسابعة: الإخلاص أنه من الخلوص.

والدين ٱشتقاقه في اللغة: من الجزاء، والحساب[١].

وأما في الشرع فهو: «ما أُرسلت به الرسل من عند اللَّه؛ من عبادته وحده لا شريك له؛ ٱمتثالاً للأوامر، وٱجتناباً للزواجر»[٢].

ثم الدليل، وهذه كبرى[٣].

---

(١) وهذه الثامنة.

(٢) وهذه التاسعة.

(٣) وهي العاشرة.

. . . .

وقول المصنف: (**وَبِذَلِكَ**)[١]، (**أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ**) هذه فائدة[٢]، (**وَخَلَقَهُمْ لَهَا**) هذه فائدة كبيرة[٣].

والفائدة الرابعة: دليل هذه الثلاث الكبار، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وفي ضمنها فوائد:

خَلْقُ الثقلين لحكمة شرعية دينية

إحداها: كون الرب تعالى يخلق الجن والإنس.

الثانية: أنه لحكمة شرعية دينية.

حكمة الخلق

الثالثة: بيان نفس تلك الحكمة بقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، والمراد: ليوحدون.

فائدة في لام ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾

واللام هنا هي لام التعليل، وبعضهم يقول: لام كي، هذه فائدةٌ في اللام.

المراد بالعبادة في الآية

ونعرف تفسير العبادة هنا: أنها يوحدون، فهذا تفسير خاص، وإلا فتفسيرها كما تقدم - لغة، وشرعاً -.

الرابعة: دليل المسائل الكبار: الآية، وفي أثنائها فوائد:

---

(١) أي: بملة إبراهيم عليه السلام، وهي عبادة اللَّه وحده، وهذه هي الفائدة الأولى.

(٢) وهذه هي الفائدة الثانية، وهي أمر اللَّه جميعَ الناسِ بها.

(٣) وهذه هي الفائدة الثالثة.

. . . .

توحيد الربوبية

منها: معرفة أن اللَّه هو خالق الخلق، وهذا فيه توحيد الربوبية.

الثانية: أنه خلقهم لحكمة.

الثالثة: أنها هي العبادة.

أقوال الطوائف في لام ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾

الرابعة: معرفة اللام، وأنها ليست لام العاقبة، وهذه بدعة وضلال، وهذا قول الجبرية؛ بل هي عند العلماء والسلف والأئمة لام التعليل.

العبادة هي التوحيد

خامساً: تفسير العبادة هنا بأنها هي التوحيد، ودليله تفسير ٱبن عباس رضي الله عنهما: «كُلُّ مَوْضِعٍ فِي القُرْآنِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ فَمَعْنَاهُ: وَحِّدُوا اللَّهَ».

فوائد كبار

هذه الكبار:

الأولى: أن ملة إبراهيم هي أن تعبد اللَّه وحده.

الثانية: أنها التي أمر اللَّه بها جميع الناس.

الثالثة: أنها التي خلق اللَّه لها جميع الناس.

الرابعة: دليل ذلك.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالعِبَادَةِ.

أعظم الفروض علماً وعملاً

(وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ) أعظم الفروض: هو التوحيد.

يريد المصنف أن أعظم فريضة فرضها اللَّه على العباد هو التوحيد؛ لا فريضةَ أعظمُ وأكبرُ وأهمُّ من هذه الفريضة.

توحيد اللَّه توحيد نسبة وٱعتقاد وعمل لا جعل

والتوحيد هنا توحيد النسبة لا توحيد الجَعْل؛ فإن التوحيد منه في كلام العرب قسم ما هو توحيد جَعْلٍ.

فتوحيد الجَعْل هو: الذي مشتت فجمعته.

والتوحيد الشرعي ما هو بتصرف وتغيير؛ بل توحيد نسبة، فتنسبه إلى الوحدانية - بل نسبة قولية، وٱعتقادية - وعمل على ٱعتقاد أنه المعبود وحده.

هذا هو أعظم فريضة فرضها اللَّه على العباد؛ علماً، وعملاً.

معنى التوحيد

ثم ذكر المصنف تفسيرها فقال: (وَ) التوحيد حقيقته (هُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالعِبَادَةِ).

ثمَّ تفسير هذا التوحيد (**هو إفراد اللَّه بالعبادة**)؛ يعني: كونك لا تعبد إلا هو وحده، هذا هو توحيد الألوهية.

أقسام التوحيد

فإن التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

. . . .

تقسيم آخر للتوحيد

ويقال - أيضاً -: إن التوحيد قسمان:

توحيد في المعرفة والإثبات، ويقال له: التوحيد العلمي الخبري، ويقال: التوحيد العلمي الخبري الٱعتقادي الثبوتي.

وتوحيد في الطلب والقصد، وتقول: التوحيد الطلبي العملي الإرادي.

لا منافاة بين التقسيمين

وتقسيمه إلى قسمين أو ثلاثة ٱصطلاح؛ كلٌّ مشهور - إن قُسِّم إلى ٱثنين، أو ثلاثة -.

فإن قسَّمته إلى قسمين؛ ٱحتجت إلى تقسيم الأول إلى قسمين: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

مراد المصنف بالتوحيد

والمراد هنا: هو الثاني من القسمين، أو الثالث من تقسيمهن إلى ثلاثة، فالمراد هنا: توحيد الألوهية الذي هو إفراد اللَّه بجميع أفراد العبادة.

منزلة توحيد الربوبية، والعلاقة بين أقسام التوحيد

ثم كون هذه أعظم الفروض تعرف أن توحيد الربوبية ما هو بخارج عنه؛ لا يكون أحد موحِّداً اللَّه بالثالث وليس معه من الربوبية شيء، وكذلك الأسماء والصفات، إلا أن هذه الأسماء والأوصاف تَغْلُب من جانب وناحية؛ فالربوبية هو أعظمهن وأهمهن مجرداً، وإلا فهو لا يتجرَّد؛ فإنه لا يمكن واحد مقر بالألوهية إلا وهو مقر بالآخر.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ.

أعظم المحرمات وقبائحه

(وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّرْكُ) الذي هو ضد التوحيد، هو أعظم المحرمات، وهو أعظم ذنب عُصي اللَّه به، وهضْمٌ للربوبية، وتنقُّصٌ للألوهية، وسوءُ ظنٍّ برب العالمين.

وهو أقبح المعاصي؛ وذلك لأنه تسوية المخلوق العاجز الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه.

أنواع الشرك

فإن الشرك أنواع:

شركٌ في الربوبية، وإثباتُ متصرِّفٍ مع اللَّه في الكون.

وشركٌ في الأسماء والصفات: بأن يجعل لمخلوق ما هو لرب العالمين من صفات الكمال، أو ينفي عن اللَّه ما يستحقه من صفات الكمال؛ هذا شرك.

وشركٌ في العبادة: وهو ٱتخاذ ند مع اللَّه، مثل: أن ترجوهم، أو تخافهم، أو تذبح لهم، أو ... إلخ.

معنى الشرك

ثم فسَّره فقال: (وَهُوَ) يعني: الشرك في العبادة (دَعْوَةُ غَيْرِهِ) من نبي، أو مَلَك، أو صالح، أو غيرهم (مَعَهُ)، هذا تفسير الشرك.

ثم ذَكَر الدليل على أن أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد،

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

وأعظم ما نهى عنه الشرك، فقال: (والدَّلِيلُ) الدليل على مجموعهما - الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك - (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾) أمرٌ بالتوحيد (﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾) نهيٌ عن الشرك.

آية الحقوق العشرة

هذه الآية تُسمَّى (آية الحقوق العشرة)؛ وذلك لأنها ٱشتملت على حقوقٍ عشرة:

أحدها: الأمر بالتوحيد، ثم النهي عن الشرك.

ثم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

ثم عطف عليه القربى.

إلى آخر ما ذكر في الآية.

أوجب الواجبات، وأعظم المحرمات

وٱبتداءُ اللَّه فيها بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك - فدلَّ على الٱبتداء بهذا الأمر قبل التسعة الباقية - دليلٌ هو أهمها؛ فإنه لا يَبدأ إلا بالأهم فالأهم، فدلَّ على أن التوحيد أوجب الواجبات، وأن ضدَّه الشرك أعظم المحرمات.

خلاصة فوائد

فعرفنا من هذا فوائد عديدة:

إحداها: عرفنا عن توحيد الألوهية أنه أعظم ما أمر اللَّه به.

الثانية: عرفنا تفسيره؛ أنه إفراد اللَّه بالعبادة.

الثالثة: أعظم المحرمات: الشرك باللَّه في العبادة.

. . . .

الرابعة: تفسير ذلك الشرك؛ وهو دعوة غير اللَّه مع اللَّه.

الخامسة: دليل الجميع، وهو: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، فهذه دلت على أنَّ التوحيد هو أعظم الواجبات، وعلى أن أعظم المحرمات هو الشرك، ودلَّت على أن الشرك هو دعوة غيره معه.

الحكمة من الابتداء بالتوحيد

أما كونه أوجب؛ فإنه ٱبتدأتها بعشرة حقوق، بدأها اللَّه بها، وهو لا يَبدأ إلا بالأهم فالأهم.

معنى التوحيد، ومعنى الشرك

وأما كونه هو إفراد اللَّه بالعبادة؛ فهو أمر به بصيغة: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فدلَّ على أن هذا التوحيد هو إفراد اللَّه بالعبادة، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾؛ ذِكْرُه مع هذا وبعده يفيد بأنه أعظم المحرمات، ويفيد أن ضد التوحيد هو دعوة غير اللَّه مع اللَّه.

مدلول كلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في الآية

وقوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ تعم، أي: لا نبيّاً، ولا مَلَكاً، ولا غيره.

فهذه من أشمل الكلمات ينطق بها العرب، ولا سيما في سياق نفي أو نهي أو شرط؛ فإنها تزيد الكلمة عموماً وشمولاً.

خلاصة فوائد

فٱستفدنا من قراءتنا هذه خمس فوائد:

إحداها: كون توحيد الألوهية أعظم المأمورات.

. . . .

الثانية: تفسيره؛ وهو: إفراد اللَّه بالعبادة.

الثالثة: كون ضده الشرك، وأنه أعظم المحرمات.

الرابعة: تفسيره؛ بأنه: دعوة غيره معه.

الخامسة: دليل ذلك.

وكونه أوجب؛ كونها ٱبتُديَت بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك؛ فدلَّ على أن التوحيد أوجب الواجبات، وأن ضده - وهو الشرك - أعظم المحرمات.



. . . .

تضمين «ثلاثة الأصول» ثلاث رسائل للمصنف جمعها بعض تلاميذه

تقدم لكم أنه في ضمن «ثلاثة الأصول» ثلاث رسائل[1]، ولذلك قيل في كل منها «ٱعلم» «ٱعلم»:

أحدها: (**ٱعلم - رحمك اللَّه -**) إلى قوله: (**فبدأ بالعلم قبل القول والعمل**).

ورسالة أخرى: (**ٱعلم - رحمك اللَّه - أنه يجب على كل مسلم ومسلمة** ...) رسالة أخرى.

ورسالة ثالثة: (**ٱعلم - أرشدك اللَّه -** ...) رسالة أخرى.

جمعها بعض تلاميذه جميعاً[2].

ٱرتباط الرسالة الأولى بثلاثة الأصول

بل الأُولى (**تعلُّم أربع مسائل**) ٱرتباطها مع «ثلاثة الأصول» بيِّن، وذلك أن معرفة اللَّه ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بيِّنٌ مع الأصول الثلاثة.

---

(١) للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٢) ووضعها قبل ثلاثة الأصول تمهيداً لها.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ.

الأصول الثلاثة الواجب معرفتها والعمل بها

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟) يعني: لو سألك سائل فقال: ما هي الأصول الثلاثة التي يجب على كل فردٍ مكلَّفٍ معرفتها والعمل بمقتضاها؟

أهمية معرفة اللّه تعالى

(فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ) هذا الأصل الأول، يعني: ما تعرَّف به إلينا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؛ من وحدانيته، وأسمائه وصفاته، فهذا أصل الأصول.

أهمية معرفة الدين

(وَدِينَهُ) هذا الثاني، أي: الذي تعبدنا به؛ واجب علينا أن نفعله، وترك ما أوجب علينا أن نتركه، هذا - أيضاً - أصل عظيم.

أهمية معرفة النبي ﷺ

(وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ) فإنه الواسطة بيننا وبين اللّه؛ فإنه لا علم لنا ولا موصل إلينا إلى ما تعبدنا به إلا من طريقه ﷺ، وهو - وإن كان بشراً - فأهمية معرفته من أهمية مرسِلِه.

فائدة إجمال الأصول الثلاثة

ذَكَرها هنا مجملة، ثم ذَكَرها بَعْدُ مفصلة أصلاً أصلاً؛ صنع ذلك تتميماً للفائدة، فإذا عَرَفها مجملة، وعرف ألفاظها، وضبَطها؛ بقي متشوِّقاً إلى معرفة معانيها.

[الأَصْلُ الأَوَّلُ]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ . . . .

الأصل الأول: معرفة الرب

هذا شروع في الأصول الثلاثة التي تقدمت مجملة، ذَكَرها هنا مفصلة، فكأنه قال: الأصل الأول: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟) لو سألك سائل فقال: من ربك؟ ومن خالقك؟ ومن معبودك؟

معنى الرب

(فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي) هو وحده ربي وخالقي ومعبودي، الذي أوجدني مِن بعد العدم، ورباني بالنعم.

(وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ) وهم الخلق، أوجدهم من بعد العدم؛ فإن ٱبن آدم ليس له قدرةٌ على شيء، كما قال تعالى: ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد ﴿أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

(بِنِعْمَتِهِ) وغذَّى جميع العالمين بنعمته، والمراد بالنعمة هنا: النعم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فله نعمة الإيجاد، ونعمة التغذية.

اللَّه هو المستحق للعبادة وحده

(وَهُوَ: مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ) وهو وحده معبودي ليس لي معبود سواه، وهو مدلول كلمة الإخلاص «لا إله إلا اللَّه».

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ.

دليل الأصل الأول

(وَالدَّلِيلُ) ودليل ذلك (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) ﴿رَبِّ﴾ مضاف إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والمراد بالعالمين: جميع المخلوقات - غير اللَّه تعالى - وكل من سوى اللَّه دخلوا في كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهذه الآية هي أول آية في كتاب اللَّه بعد البسملة.

تفرد اللَّه تعالى بالربوبية

ففي هذا تفرده بربوبية الخلق ومُلكِهم، وهو - أيضاً - معبودهم؛ فإن الرب إذا أُفرد دخل فيه المعبود، يعني: خالقهم ومربِّيهم ومعبودهم وحده دون كل من سواه.

معنى الرب إذا أفرد

أقسام من في الوجود

(وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ) فالوجود ينقسم إلى قسمين: ربٍّ، ومربوب.

(وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ) وأنا - أيُّها الإنسان - من جملة تلك المخلوقات المربوبة المتعبَّدَة بأن يكون معبودها هو اللَّه وحده.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

دلائل معرفة الله: الآيات، والمخلوقات

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ) فإن قال لك قائل: **(بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟)** لو سألك سائل: بم ٱستدليت به على معرفة ربك؟

معنى الآية

(فَقُلْ: بِآيَاتِهِ) الآيات: جمع آية، والآية: العلامة والدلالة، وهي الحجة والبرهان.

دلالة الآيات والمخلوقات جملةً وأفراداً على وحدانيته تعالى

(وَمَخْلُوقَاتِهِ) كلٌّ من آياته ومخلوقاته دالٌّ على وحدانيته وتفرُّده بالربوبية؛ بل جميعها وكلُّ فردٍ فردٍ منها - وإنْ دقَّ - دالٌّ على وحدانيته تعالى، كما قال الشاعر[1]:

فَوَا عَجباً كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدُ

وقال آخر[2]:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَٱنْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ

عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَبْصَارٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ

عَلَى قَصَبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

---

(١) هو أبو العتاهية. يُنظر: ديوان أبي العتاهية (ص ١٢٢).

(٢) هو أبو نواس. يُنظر: تاريخ مدينة دمشق (١٣/ ٤٦٥).

وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالقَمَرُ.

وقال ثالث[١]:

تَأَمَّلْ سُطُورَ الكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا ... مِنَ المَلِكِ الأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ

وَقَدْ خَطَّ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا ... أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ

من أعظم آيات اللّه تعالى الكونية المشاهدة بالأبصار

(وَمِنْ آيَاتِهِ) المشاهَدة الدالة على ذلك - أي: ومن آياته الكونية المشاهدة بالأبصار الدالة على وحدانية موجدها - هذا (اللَّيْلُ) الآتي بظلامه من كل الآفاق، (وَالنَّهَارُ) ثم يَعْقبه النهار حتى كأن الليل ما طرق في العالم، ثم يعقبه الليل بظلامه حتى كأن النهار لم يكن.

من أعظم آياته المشاهدة بالأبصار: الليل والنهار، كون الليل يأتي فيغطِّي النهار حتى كأن النهار لم يكن، ثم يأتي النهار فيذهب بظلمة الليل حتى كأن الليل لم يكن؛ فمجيء هذا، وذهاب هذا، بهذه الصفة والصورة، دالٌّ أعظم دلالة على وحدانية خالقه وموجده.

(وَالشَّمْسُ، وَالقَمَرُ) وكذلك من أعظم آياته: الشمس والقمر، الجاريان بجريانٍ خاصٍّ متقن مضبوط، الشمس فما دون، كلٌّ واحد له سير دال على أن له موجِداً، إلى أن يزول هذا العالَم؛ كونهما يجريان هذا الجريان المتقن المضبوط من أدلة وحدانية موجِدها، ومن أعظم آياته.

(١) يُنظر: مدارج السالكين (٣/ ٢٥٦).

وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

من أعظم مخلوقات اللَّه تعالى

(وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا) أي: ومن أعظم مخلوقاته: السموات السبع، والأرضون السبع، وأخبار ما في الأرض من المخلوقات والحيوانات والنباتات، وأنواع ما فيها من الموجَدات، والسموات ومن فيهن وما خلق فيهن من الكواكب الزاهرة والآيات الباهرة، كلُّ فردٍ فردٍ دالٌّ على وحدانية الباري جلَّ جلاله وتفرُّدِه بالخلق؛ بل كل شيء يشهد أنه واحد، لكن من أعظم ما نشاهده خَلْقُ السموات، وخَلْقُ الأرض.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

دليل الآيات

(وَالدَّلِيلُ) أن من جملة المعرِّفات باللَّه سبحانه إلى عباده: ما نراه من آياته ومخلوقاته الدالة على وحدانيته وأدلة فردانيته.

ثم من الأدلة على أنَّ من المعرِّفات بوحدانيته وفردانيَّته: الآيات المشاهدة بالأبصار: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾) ومن حجج وحدانيته وبراهين فردانيته ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ فدلَّت الآية الكريمة على أن أعظم آياته: الليل والنهار والشمس والقمر، وهو وجه ٱستدلال المصنف بها هنا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

دليل المخلوقات

(وَ) الدليل على أن من أدلة وحدانيته هذه المخلوقات: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾)، تعرَّف إلينا بكونه خلق السموات والأرض؛ فإنه لا يجعل لنا دليلاً إلا ما هو البيِّن الكبير.

(﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾) سريعاً.

(﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾)، مذلَّلات (﴿بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾).

تفرد اللّه تعالى بالخلق والأمر

(﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) فهو المتفرِّد بالخلق، كما أنه متفرِّد بالأمر؛ فلا شريك له في الخلق، كما لا شريك له في الأمر، فهو المتوحِّد في الخلق والأمر، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

خلاصة فوائد

فعرفنا فوائد:

أحدها: جواب السائل؛ إذا سألك سائل: بم عرفت ربك؟

الثانية: الآيات والدلالات والبراهين على وحدانيته.

. . . .

الثالثة: التنصيص على شيء مما هو أعظمها، والتنصيص على البقاء والدوام المرتَّب، ولذلك ٱستفدنا على أن من آياته الشمس والقمر.

الرابعة: أن من أعظم المخلوقات الدالة على وحدانية اللَّه: السموات والأرض.

الخامسة: دليل الآيات.

السادسة: دليل المخلوقات.

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ؛ ....

معاني الرب

(وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ) يعني: هو من معانيه ومما يطلق عليه: المعبود، كما أنه يطلق على: الخالق، والرازق، والمالك، والمتصرِّف، ومربِّي جميع الخلق بالنعم، وإذا قُرن بالمعبود شمل معاني عديدة.

معنى المعبود

ومعنى (المعبود): المستحق أن يُعبد وحده دون كل من سواه.

براهين وحدانية اللَّه في الألوهية

والرب جلَّ جلاله هو المستحق أن يُعبد؛ لكونه خلق وأوجد، فهو وحده المستحق أن يُعبد.

وأيضاً: كونه المعبود هو من مدلول ٱسمه (الرَّب)؛ فإن الرب يطلق على المعبود والسيد والخالق، فتعيَّن أن يفرد بالعبادة.

ومن براهين ذلك: أنه هو الموجِد وحده، ولا شاركه في إيجادك أحد، فتعيَّن ألا يشاركه في عبادتك أحد.

وكونه هو الرب يتعيَّن أنه هو المعبود، والرب من تفسيره المعبود؛ فإذا عبد معه غيره جعل المعبود الآخر ربّاً، وهذا يرجع إلى حقيقة (لا إله إلا اللَّه)؛ لا معبود حق إلا اللَّه.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ . . . .

دليل أن الرب هو المعبود

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾) خطابٌ لجميع الخلق (﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾) هذا أول أمرٍ يمر بك في المصحف الكريم؛

أول أمر في القرآن

هذا أول أمرٍ في المصحف الكريم؛ من أوَّل القرآن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى هذه الآية ما قَبلَه أمر.

أول فعل في القرآن

كما أنَّ أوَّلَ فعلٍ يَمُرُّ بك: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وتَقدُّم المعمول هنا: يفيد الحصر، أي: لا نعبد سواك.

أول شيء دعت إليه الرسل

وكما أنَّ أوَّلَ شيءٍ دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

التوحيد أهم شيء وأوجبه

ومعنى ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يعني: وحِّدُوا ربَّكم، يعني: وحدوه بالعبادة، وهذا - واللَّهُ أعلم - من أجل أن التوحيد هو الذي من أجله أنزل القرآن وتُليت السنَّة النبويَّة - كما تقدم لكم جنس دليله - ما في القرآن قبل هذا الأمر شيء، وإن كان فيه فعل أمر في العربية لكن ليس من أوامر التعبُّدات - لكن ليس من جهة أوامر اللَّه لعباده - بل أوامر تسمعه من قاري أو لقراء، فدلَّ على أنه أهمُّ شيءٍ وأوجبه.

كما أنَّ أول أمر بصيغة الفعل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

أول جملة في القرآن في التوحيد

وكما أن أول جملة تمر بك في القرآن هي للتوحيد، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، هذا أول دعاء ثناءٍ على اللَّه؛

. . . .

لاَستحقاقه الحمد وحده، فيفيد أنه يستحق العبادة وحده، فإذا كان هو وحده الذي يستحق الحمد دون أحد من الخلق؛ فهو تعالى المستحق أن يُعبد وحده.

البسملة في التوحيد

فعرفت البداية في التوحيد؛ بل حتى البسملة - أيُّ أمرٍ وُجد قبل (بسم اللَّه)؟! - فهي كلمة ٱستعانة باللَّه وطلب البركة منه.

كل القرآن في التوحيد، وما عدا ذلك فهو مما يتعلق بالتوحيد وجزائه.

معنى ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾

ومعنى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، ومعنى قول الرُّسل: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، ومعنى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هو ما فسره ٱبن عباس رضي الله عنهما بقوله: «كُلُّ مَوْضِعٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ فَمَعْنَاهُ: وَحِّدُوا اللَّهَ»، وقال: «عِبَادَةُ اللَّهِ: تَوْحِيدُ اللَّهِ»، بمعنى: ٱعْبدُوه وَحْدَه دونَ كلِّ من سواه.

منزلة التوحيد

ويُفيدك عِظَم شأن التوحيد، وأنه أوجب الواجبات، وأنه أول فرض على المكلف علماً وعملاً، وهو مدلول شهادة (ألَّا إله إلا اللَّه)، التي هي أول واجب على المكلف أن يتعلم معناها، وأن يعمل بما دلت عليه من التوحيد؛ الذي هو إفراد اللَّه بالعبادة.

العبادة من غير توحيد لا تسمى عبادة

وقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يعني: وَحِّدُوه بالعبادة؛ لأن صدور العبادة من غير توحيد لا تُسمَّى عبادة، وليست بعبادة، وإذا

. . . .

صدرت ممن أشرك فيها مع اللَّه غيره فهي بمنزلة الجسد أو الخشبة التي لا روح فيها.

من عبد مع اللَّه غيره فليس بعابد للَّه

والمقصود: أن العبادة بغير توحيد ليست عبادة؛ كما أنه إذا عبد اللَّه تارة وأشرك معه تارة فليس بعابد للَّه على الحقيقة، كما سمَّى اللَّه المشركين مشركين وهم يعبدون اللَّه تعالى ويخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار وتلاطم الأمواج يهربون ويفزعون ويلجؤون إلى التوحيد، ويعرفون أن تلك الآلهة ما هي بشيء في الحقيقة وأنها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كلِّه سمَّاهم مشركين؛ بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية، كما قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

قاعدة عظيمة

وبه تعرف صحة قول ٱبن عباس رضي الله عنهما: «أن معنى ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: وَحِّدُوا اللَّهَ»، ولم يرد في العبادة إلا إفراده تعالى بجميع أنواعها، فإن أطاعوه فيما أمرهم به فقد وحدوه وإلا فلا.

مقتضى الربوبية

وَكونُه تعالى ربّنا يقتضي ويفيد أن نعبده وحده، وألا نجعل له شريكاً؛ لا في ربوبيته، ولا في عبادته وألوهيته.

المعنى: أنه ربكم فلا تعبدوا سواه.

الدليل قسمان:

أولاً: كونه ربنا.

ثانياً: كونه خلقَنا، وخلق جميع الخلق.

ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً . . . .

معنى الخلق

(﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾) أوجدكم من العدم، فلا يجعل المخلوق شريكاً للخالق.

التوحيد يقي العبد غضب اللّه وعقابه

(﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾) لكي تتقوا غضبه وعقابه؛ فإنه لا يقي غضبه وعقابه إلا أن يُعبد وحده، والـمُخِلُّون بذلك هم أهل عقابه وغضبه.

من أفعال الرب تعالى

(﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾) تتمكنون من جميع ما تفعلون، تسيرون فيها وتسعون؛ شيءٌ مبسوطٌ مسطوحٌ يتمكن العباد من عمل جميع المصالح عليها.

تتمكنون من المسير فيها والمكث، وتنتفعون منها بأنواع المنافع.

(﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾) سقفاً لذلك البناء، فهي كقبة كبيرة.

(﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾) ونزَّل ماء المطر الذي هو مادة الحياة، فإن هذا ما فعله إلا ربُّ العالمين؛ فهو ربنا، وهو الذي خلقنا، وخلق مَن قبلنا مِنْ جميع الخلق، وهو الذي جعل الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وحده ما شاركه في الجميع أحد.

فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

(﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾) لمَّا أنزلها جعلها نافعة وقارَّة في الأرض ومنتجة للبركات؛ فإن مادة الحياة الطعام والشراب، وكلُّها بأمره سبحانه ثم بإنزاله المطر.

دلائل ألوهية اللَّه وحده

هذا تدليلٌ على أنه هو المستحق أن يُعبد؛ كونه الرب الذي خلق هو المستحق أن يُعبد وحده، وكذلك جَعْلُه لنا الأرض فراشاً، والسماء بناء، وإنزاله المطر من السماء فأخرج به الثمرات؛ كل هذه الأمور، كل واحد منها دليل على أنه هو المستحق أن يُعبد وحده.

معنى الند

(﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾) الأنداد: جمع ند، والند: المِثْل والشبيه، يُقال: فلانٌ ندُّ فلانٍ ونديده، أي: مثله وشبهه.

يعني: لا تجعلوا له نظراء في العبادة، شركاء وأمثالاً ونظراء.

علم جميع الخلق بربوبية اللَّه تعالى

(﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾) تفرُّده بالخلق، وتفرُّده بجعل الأرض فراشاً، وتفرُّده بجعل السماء بناء، وتفرُّده بإنزال المطر، وأنتم تعلمون أنه لا فاعل لهذا المعدودات إلا هو.

كل صفة من هذه الصفات مفيدة ومقتضية إفرادَ ربِّ العالمين بالعبادة؛ تفرده بإنزال المطر، وإيجاد المخلوقات، وجَعْل الأرض فراشاً، والسماء بناءً، إلى غير ذلك.

. . . .

تقرير الألوهية بالربوبية، والاحتجاج بما أقروا على ما أنكروا

يعني: لِمَ تجعلون معه أنداداً في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟، وهذا احتجاج منه عليهم أنه هو المستحق؛ احتج عليهم بما أقروا به وهم يعلمون من توحيد الربوبية على ما جحدوه وأنكروه من توحيد الألوهية؛ فهذا احتجاج منه بما يعلمون من خلق الخلق على أنه المستحق أن يُعبد وحده.

قرَّر ألوهيته بربوبيته، واحتج عليهم بإقرارهم بذلك على توحيد الألوهية، ولهذا يحتج الرب بالإقرار بهذا على ذلك، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، وجنس ذلك في القرآن كثير؛ يقرر تعالى ألوهيته بربوبيته؛ بما يعرفون ويقرون به، فإنه تعالى كثيراً ما يقرر في كتابه توحيد ألوهيته بتوحيد ربوبيته؛ فإن توحيد الربوبية هو الدليل على توحيد الإلهية؛ كونه هو المتفرد بالخلق دالٌّ على أنه لا يستحق أحدٌ العبادة سواه، لا نبي، ولا مَلَك، ولا غيرهم.

التفريق بين حق الخالق وحق المخلوق

ومن جعل فيه فضيلة لا يصلح ولا يَقْرب ولا يدنو؛ بل حق ربِّ العالمين لا يصلح إلا له، فلا يُصرف لغيره وإن بلغت رتبته

. . . .

ما بلغت؛ جنس حق الرب شيء، وجنس حق المخلوقين شيء آخر، حقوق العباد جنس، وهذا جنس.

خلاصة فوائد

فعرفنا فوائد:

أحدها: الإقرار أن المستحق أن يُعبد هو اللَّه وحده لا سواه.

الثاني: دليل ذلك.

دلائل على ٱستحقاق اللّه للعبادة وحده

وٱستفدنا أن في الآية حجةً على ذلك من وجوه عديدة:

الأول: كونه ربّنا.

والثاني: كون الرب مَنْ خلقنا، وخلَقَ جميع الخلق.

والثالث: كونه جعل الأرض فراشاً، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به الرزق.

كلٌّ منها - مع أن نظائرها كثيرة، ٱنفراده في كل واحد من هذه السبعة(١) - دليل على أنه المستحق أن يُعبد، لا سيما وهم يعلمون ذلك ويقرون به؛ فإنهم لا ينكرون الربوبية ولا ينازعونها، ولهذا في الآيات: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ أخبر أنهم لا يجيبون بغير الإقرار بذلك.

---

(١) المذكورة في الآيتين تفصيلاً، وفي الوجوه الثلاثة إجمالاً.

قَالَ ٱبْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ، هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

مدلول تفرُّد اللَّه بالخلق

(قَالَ ٱبْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ، هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ») كونه المتفرد بهذه الأشياء دليل واضح على أنه المستحق للعبادة.

يعني: أن الآية أفادت ودلَّت على أن الذي خلق هذه الأشياء هو المستحق للعبادة دون من لم يكن له شركة فيها ولا في غيرها وإن قَلَّ؛ فيكون في ذلك أوضح البرهان أنه المستحق أن يُعبد وحده دون كل من سواه.

والظاهر أنها في تأريخه[1]، وليست في تفسيره.

---

(١) قال ٱبن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البداية والنهاية (١/ ٣٣٤): «وإنما إلهكم اللَّه الذي لا إله إلا هو، ربكم ورب كل شيء، فاطر السموات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له».

وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا: - مِثْلُ: الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ؛ وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا - ....

من أنواع العبادة التي أمر اللّٰه بها إجمالاً

(وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا: مِثْلُ: الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ) ذكرها إجمالاً، ويأتي مفصلاً كل نوع بدليله.

ثم قوله: (وَمِنْهُ) من أنواع العبادة هذا: (الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، والِاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ) ذكر المصنف من أنواع العبادة جملة، وأنواعها كثيرة جدّاً؛ ولهذا قال لَمَّا بعُد تعداد هذه الأنواع: (وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ) يعني: أنها ليست مخصوصة ولا محصورة في هذه الأنواع؛ بل هي أنواع كثيرة جدّاً، والذي يَحُدُّ لك الجميع: كلُّ ما يحبُّه اللّٰه، من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة.

المعنى الجامع للعبادة

تعريف آخر للعبادة

(الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا) إشارة إلى بعض حدودها عند العلماء: «أنها ما أُمر به شرعاً، من غير اقتضاءٍ عقلي، ولا اطِّرادٍ عرفي».

كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ . .

أجمع تعريف للعبادة

وأحسن وأجمع ما عُرِّفت به؛ ما عرَّفها شيخ الإسلام بقوله: «ٱسم جامعٌ لكلٍّ - يعني: لجميع - ما يحبُّه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة».

وكل فرد من أفراد العبادة داخل تحت هذه العبارة؛ فيدخل فيها ما ذُكر، ويدخل فيها كلُّ ما شمله الحد.

العبادة حق اللَّه وحده

(كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى) ما من نوع من هذه إلا وهو للَّه وحده؛ جميع أنواع العبادة للَّه لا لغيره.

كما أن (لا إله إلا اللَّه) نفت جميع الآلهة المعبودة من دون اللَّه، (والإله) مشتق من أله يأله إِلَهة، عبد يعبد عبادة، ومعنى ذلك: لا أحد يستحق العبادة إلا اللَّه وحده، وأما من سواه فعبادته أبطل الباطل، فأثبتت الألوهية للَّه وحده ونفتها عن ما سواه، فالعبادة كلها للَّه وحده، ولا يصلح منها شيء لسواه؛ بل أظلم الظلم أن يُجعل لمخلوق شيء منها.

الدليل على ٱختصاص الرب بالعبادة

(وَالدَّلِيلُ) على ٱختصاص الرب بها دون أحد سواه: **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾)**.

معنى المساجد في الآية

المساجد لها تفسيران عند أهل العلم:

أحدهما: أنها المواضع التي بنيت لعبادة اللَّه فيها؛ فالمعنى: أنها ما بُنيت إلا للَّه وحده، فلا تعبدوا فيها غير من

فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾.

كانت له؛ ما بُنيت إلا للتوحيد فلا تُستعمل في غير التوحيد.

والقول الثاني: أنها الأعضاء التي يسجد عليها - من الوجه، والأنف، واليدين، والركبتين، والقدمين - التي خلقها ليسجد له بها، فلا يسجد بها لغيره.

بطلان عبادة كل من سوى الله

(﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾) كلمة شاملة عامة، نكرة في سياق النهي؛ شملت الأنبياء والأولياء والصالحين والملائكة، وشملت جميع الخلق.

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئاً لِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛

حكم صرف أي عبادة لغير اللَّه

(فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئاً لِغَيْرِ اللَّهِ) إذا صرف منها شيئاً لغير اللَّه - نبيٍّ، أو مَلَك، أو وليٍّ وصالح -؛ (فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ)، يعني: بأن دعا غير اللَّه، أو سأل غير اللَّه، مثل: دعاء الأموات، أو الغائبين، وسؤالهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات؛ فإن هذا الشيء لا يُقْدر عليه، فالذي لا يَقْدِر عليه إلا اللَّه سؤاله من غيره شرك.

فمن دعا غير اللَّه، أو رجا في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا اللَّه، أو خاف من غير اللَّه خوف السِّر، أو نذر أو ذبح لغير اللَّه؛ فهو مشرك كافر.

ثم كل ما ذكره المصنف من أنواع العبادة - وهي مشاهيرها، وغيرُها عباداتٌ ما ذكر - كلُّ من صَرف منها شيئاً لغير اللَّه فهو مشرك كافر، لو سأل من الميت شيئاً، أو غائبٍ، أو حجرٍ، أو صنمٍ شيئاً - رزقاً، أو عافيةً -؛ فهو مشرك الشرك الأكبر.

شرك المشركين الأوَّلين

والنَّبيُّ، أو وليّ، أو صالح؛ ميّت، ولو ما قصد القاصد إلا شفاعته عند اللَّه؛ فهذا مشرك الشرك الأكبر، هذا هو شرك قريش وأضرابهم، يدعونهم ويُقرِّبون لهم؛ ليشفعوا لهم عند اللَّه، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

الدليل على كفر من صرف شيئاً من العبادات لغير اللَّه

(وَالدَّلِيلُ) على ذلك (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾)؛ فسمَّاه كافراً، كفَّرهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فدلَّ على أنَّ دَاعيَ غير اللَّه أنه كافر - وكذلك النذر لغير اللَّه والرجاء - فسمَّاهم كافرين؛ لدعائهم مع اللَّه غيره، فدلَّ على كفر من دعا مع اللَّه غيره، فمن كان يدعو الأموات والغائبين؛ بأن ذبح لغير اللَّه، أو ٱستغاث بغير اللَّه؛ كل ذلك من الشرك الأكبر، والذنب الذي لا يُغفر.

خلاصة فوائد

فعرفنا: أن جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير اللَّه.

والمصنف عدَّد منها أنواعاً، ولَمَّا لم يستوعبها قال: (**وَغَيْرُ ذَلِكَ**).

فعرفنا: أن لها حداً - كما تقدم - من أنها: «ٱسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة».

ومن الأدلة على ٱختصاص الرب بها: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

. . . .

فمن صرف من المذكورة أو غيرها - ما دخل في حدها -؛ فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً من الملة، والدليل عليه: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ؛ فهذا تكفير لمن دعا مع اللَّه غيره، فمن دعا مع اللَّه إلهاً غيره فهو كافر؛ لقول اللَّه فيهم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فٱستفدنا: أن العبادات أنواع عديدة، منها: ما سيأتيكم واحداً واحداً، وأن فيها أنواعاً غير ما ذكر.

وفي حدها: أنها «ٱسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة».

وٱستفدنا: أن جميع أنواع العبادة المذكورة - الداخلة في الحد - أنها لا تصلح للخلق، وأنها حقُّ الرب.

والدليل على ذلك: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

وعرفنا: حكم من صرف منها شيئاً لغير اللَّه، ما يكون؟ أنه يكون مشركاً كافراً.

وعرفنا: دليل ذلك.

وعرفنا: وجه الدلالة، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ فسمَّاهم كفَّاراً.

. . . .

طريقة المتقدمين فيما فيه أعداد: الإجمال، ثم التفصيل، وفائدة ذلك

ونعرف أن ما ذَكَر المصنِّف هنا على وجه الإجمال مجرداً عن الدليل، والمصنِّف سيذكرها واحدة واحدة، وسيذكر لها دليلاً على التفصيل؛ وهذه طريقة المتقدمين: أن الذي فيه أعداد يذكرونها عدداً ثم يرجعون إليها ويُفَصِّلونها، والمصنِّف سلك هذا المسلك؛ لأن فيه زيادة فائدة، وإن كان فيه طُول، وإذا عَرَف ذلك بقي متشوِّفاً إلى التفصيل، فيأتي التفصيل وهو محتاج إليه حاجة العطشان إلى الماء، فإذا كان منتظراً له صار لمجيئه محلٌّ أهمّ مما لو جاءه فيما قبل، فيكون أتم للفائدة.

فصارت الفوائد ثمان:

الأولى: عرفنا أن أنواع العبادة هي هذه المذكورات.

وعرفنا: أن هذه ذُكرت على وجه الإجمال، ثم بَعْدُ تفصيلاً.

وعرفنا: أنَّ ما ذكر ليس هو أنواعها بل أكثر؛ فهي كل طاعة، ثم قال: أنواعها، منها: قال: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر.

ثم عرفنا: أنها للَّه، لا يصلح منها شيء للخلق.

وعرفنا: دليل ذلك، وهو: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

. . . .

وعرفنا: حكم من صرف منها شيئاً لغير اللَّه.

وعرفنا: الدليل.

وعرفنا: وجه الدلالة - وهو الثامن - فكفَّرهم.

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»، . . . .

الشروع في تفصيل العبادات المتقدمة مع أدلتها

ثم شرع في بيان أنواع العبادة التي عدَّد، لما ذكر أنواع العبادة وأن صرفها لغير اللَّه شرك؛ شرع في ذكر أدلة الدعاء والخوف وما عطف عليهما؛ فقال: (وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»).

هذا شروع من المصنف - رحمة اللَّه عليه - في ذكر أنواع العبادة المتقدمة إجمالاً؛ أن يذكرها تفصيلاً، ويذكرها بأدلتها، هذا أوان ذكرها مفصلة بالأدلة، فهذا ذِكْرُها تفصيلاً وبالأدلة.

عبادة الدعاء

أحدها: الدُّعَاءُ، الدعاء والنداء واحد؛ فإنه يجيء نداء هو الدعاء، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾، فدعاء المسألة هو سؤال اللَّه تعالى.

لماذا بدأ بالدعاء؟

بدأ بالدعاء؛ لأنه الذي بدأ به قبل الخوف وما بعده - وأما الإسلام والإيمان والإحسان فسيأتي مفصلاً -، فإنه بدأ به في الإجمال، فبدأ به في التفصيل، وبدأ به لمزيد أهميته؛ فإن جميع أنواع العبادة راجعة إلى الدعاء.

الدليل على أن الدعاء عبادة

معنى المخ

والدليل على أن الدعاء عبادة: هذا الدليل؛ «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[١]، يعني: خالص العبادة؛ مخ الشيء: خالصه، وإنما

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الدعوات، رقم (٣٣٧١)، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ٱبن لهيعة».

. . . .

كان مخاً؛ لأنه ما من عبادة إلا فيها الدعاء - إما لفظاً، وإما مستلزِماً له ـ.

مدلول الحديث

فدلَّ على أنه عبادة؛ بل دلَّ على أنه مخ العبادة، أي: خالصها، وتقدم تعريف العبادة أنها: «ٱسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة».

دليل آخر من السنة

وفي الآخر: «هُوَ العِبَادَةُ»[1]، وهذا الحديث جاء عن النبي ﷺ مقروناً بالآية: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ، قال اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»، فدلَّ على أنه عبادة.

أقسام الدعاء

والدعاء قسمان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

فالقائل: رب ٱغفر لي؛ هذا دعاء مسألة.

دعاء المسألة في النصوص أكثر وأظهر

وٱستعمال الدعاء في دعاء المسألة في النصوص أكثر.

والأول: كقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾؛ فسمَّى ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ دعاءً.

أما الثاني: فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فإنها وإن فُسِّرت بدعاء العبادة؛ فإنها في دعاء المسألة أظهر.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم (١٨٣٥٢)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي في السنن، أبواب تفسير القرآن، رقم (٢٩٦٩)، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيح»، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

العبادة تحقيق الإلهية للّه

المقصود: أن دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ كلٌّ عبادةٌ، فمن صرف منها شيئاً فقد أشرك، فمن دعا غير اللَّه في تفريج الكربات وقضاء الحاجات فقد أشرك؛ فإنه ليس العبادة هي ملكية الربوبية؛ بل العبادة تحقيق الإلهيَّة للّه والعبودية.

ضابط دعاء العبادة ودعاء المسألة

وتقدم لنا أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

فدعاء العبادة هو: الثناء الذي ما هو بصيغة طلب.

ودعاء المسألة هذا الذي صيغته صيغة طلب، مثل: ٱغفر لي، وٱرحمني.

دليل من القرآن على أن الدعاء عبادة

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾)، وكذلك الآية دليل على أنه عبادة.

الدعاء يحبه اللّه تعالى

قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ دليل على أن الدعاء مما يحبه اللَّه، ودليل على أنه يحب من عباده أن يدعوه، وفي الحديث: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[1]؛ فدل على أن الدعاء عبادة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم (٩٧٠١)، والبخاري في الأدب المفرد، باب من لم يسأل اللَّه يغضب عليه، رقم (٦٥٨)، والترمذي في السنن، أبواب الدعوات، رقم (٣٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الدعاء عبادة

﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ سمَّاه عبادة، وجاء في القرآن في غير موضع أنه عبادة؛ فصرفه لغير اللَّه شرك أكبر.

دلالة الآية على أن الدعاء عبادة من وجهين

ففي هذه الآية الدلالة على العبادة من وجهين:

فإن أحدهما: الأمر بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾.

الثاني: تسميته عبادة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

جزاء من ٱستكبر عن عبادة اللَّه تعالى

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ يعني: صاغرين ذليلين حقيرين؛ عقوبة لهم على ٱستكبارهم عن عبادة اللَّه، وذلك لأنهم تركوا عبادة اللَّه، ولا منعهم من عبادة اللَّه إلا الاستكبار؛ عوملوا بنقيض قصدهم؛ فَجُوزوا بهذا الجزاء - وهو دخولهم جهنم داخرين -، فإنهم يُحشرون ويُدخلون جهنَّم أحقر شيء وأصغره.

فالآية دلت على أنه عبادة من ناحيتين:

إحداها: أَمْره عباده بدعائه؛ فهذا أَمْرٌ؛ فدلَّ على أنه عبادة.

الثانية: قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾؛ فسماه عبادة.

خلاصة فوائد

فٱستفدنا من هذه القراءة فوائد:

إحداها: أن هذا تفصيل لأنواع العبادة - بعد إجمالها - بذكر الأدلة.

. . . .

الثانية: ذَكَر الدعاء؛ لكونه المبدوء به في الإجمال، ولكونه أهمَّها، وكلُّ أنواعها راجعة إليه.

أنواع الدعاء، وضابطها

الثالثة: أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

فدعاء العبادة: ما ليست صيغته بطلب، وأيضاً أفعال الجوارح داخلة في هذا الدعاء - من الذبح والصدقة - كلها دعاءٌ، صاحِبُها سائلٌ في المعنى؛ فإنه ما فَعَل ذلك إلا طلبَ من الرب محبوباً له من رضوان الرب.

والثاني: دعاء المسألة: ٱغفر لي، ٱرحمني ... إلخ.

الرابعة: دليل الدعاء أنه عبادة من السنة: هو هذا الحديث «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

الخامسة: معرفة معنى «مُخُّ العِبَادَةِ»: أنه خالصها؛ فإنَّ مخَّ كلِّ شيء خالصُه.

السادسة: دليله من القرآن.

السابعة: توجيه دلالتها من وجهين:

أحدها: أَمْرُه تعالى عباده، فهو دليل على أنه عبادة؛ فإن من تعاريف العبادة: «ما أُمر به شرعاً»، وتعريف: «ما يحبه اللَّه ويرضاه»، فإنَّه شيء يحبه اللَّهُ ويرضاه، فتوجيه الدلالة: أمره.

. . . .

الثانية: قوله: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾.

الثامنة: تفسير ﴿دَاخِرِينَ﴾ أنه: صاغرين ذليلين.

فالأولى: تتعلق بناحيةِ ذِكْرِهِ؛ أنه قَبْلُ ذَكرها إجمالاً وهنا ذكرها تفصيلاً، وبالاستدلال.

الثانية: أنه بدأ به في الإجمال؛ فرتَّب التفصيل على الإجمال.

الثالثة: أنَّ الدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة.

الرابعة: دليل الدعاء من السنة، وهو الحديث.

الخامسة: معنى المخ، مُخّ الشَّيء هو: خالصه.

السادسة: الاستدلال على أن الدعاء عبادة من القرآن الكريم.

السابعة: وجه الدلالة؛ أنه من وجهين:

أحدها: أَمْرُه تعالى بالدعاء.

الثاني: قوله: ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ يعني: عما أمرتهم به في هذه الآية بقولي: ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾؛ فسمَّى الدعاء عبادة.

الثامنة: تفسير ﴿دَاخِرِينَ﴾.

وَدَلِيلُ الخَوْفِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ

دليل أن الخوف عبادة

(وَدَلِيلُ الخَوْفِ) أنه عبادة من العبادات القلبية؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾).

الدليل على أنه عبادة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾؛ أَمْرُه تعالى عباده أن يخافوه دليلٌ على أنه عبادة؛ أحد تعاريف العبادة: «ما أُمر به شرعاً»، وهنا أَمْر منه أن نخافه، وكذا في التعريف الآخر أنها: «ٱسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة».

المقصود: أنها دلت على أنه عبادة.

أقسام الخوف

ونعرف: أن الخوف على ثلاثة أقسام:

الخوف الذي هو شرك أكبر

أحدها: خوف غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، مثلُ: خوف آلهة المشركين أن يفعلوا به شيئاً، فإذا خاف أن يفعل به شيئاً بخصوصيته - بسرِّه -، مثل: ما عند القبوريين؛ يقولون: فلان يتسوَّر بك - يعني: يرمي به - أو يحرق، أو نحو هذا، إذا تكلم فيه بشيء أو آذاه بشيء، وهذا يقوله بعض القبوريين لأهل التوحيد.

ومن خوف السّر: أن يَخْطَف عقلك أحد أو سمعك أو بصرك بدون سبب - أما أنك تخاف أن يَسْمُرَ عينك بمسمار ونحو ذلك؛ فهذا من الطبيعي إذا كان أهلاً لذلك -.

فإذا خاف هذا فهو شرك.

. . . .

الخوف الذي هو شرك أصغر

والثاني: يحمل الخائف على ترك طاعة أو فعل معصية، وهذا نوع شرك أصغر، وهذا هو الذي نزلت فيه الآية؛ قال قتادة: «يعظِّمهم في صدوركم»، وهذا من أعظم كيد عدو اللَّه أن يخاف الخلق بفعل محرم؛ فيفعل محرماً أو يترك واجباً، وهو الذي عنى بالآية، وهو نوع شرك أصغر.

الخوف الطبيعي

والخوف الثالث: الخوف الطبيعي؛ خوف أسباب المهالك الطبيعية - كخوف الحيَّة -، وهذا لا يضر؛ فإنه طبيعي، هو خوف المؤذيات والضارات، ما يضر ويؤذي هذا بالطبع تنفر منه؛ تخاف من الحية لدغات، أو مثل: أنك تخاف - طبعاً أنك ستخاف - السبع كذلك، وخوفك من ظالم غشوم يتناولك بظلمه وغَشْمِه؛ كونه في الحضرة أو سمعت عنه شيئاً.

حكم الخوف الطبيعي

فهذا لا يندفع عنه هذا الخوف ولو جاءه نهي شرعي، مع أنه ما جاء نهي شرعي، فهو أمر جائز، وهو ليس من العبادة في شيء، ولا نُهي عنه، وقد ذَكَره اللَّه تعالى عن موسى عليه السلام لا على جهة الذم، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، ولا سيما وقد جرى لموسى من قتله القبطي، ولو وجده فرعون لفعل ما فعل.

ما يصطحبه المرء في الخوف الطبيعي

فالخوف الطبيعي ما هو بمحرم، فهو يوجد فيه طبعاً، لكن يستشعر أنه لا يضره هذا إلا بقضاء اللَّه وقدره؛ لأن الخلق كلَّهم في قبضة رب العالمين - الخائف، والمخوف - فلا يهمل هذا؛ فإنه لا قدرة لأحد على مراده إلا بتمكين من ربّ العالمين.

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

حكم خوف غير اللَّه خوف السر

والأول هو الشرك الأكبر والذنب الذي لا يُغفر، فكما أنه إذا دعا غير اللَّه أو سأل غير اللَّه فهو مشرك الشرك الأكبر؛ فكذلك إذا خاف غير اللَّه خوف السر، مثل: أن يخاف أن يفعل به شيئاً بِسرِّه؛ فإن الخوف أنواع منها هذا، فإن خاف من غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه فهو مشرك كافر.

الفرق بين الإكراه والخوف

نعم؛ مسألة الإكراه بحالها، لكنَّ الخوف شيء، والإكراه شيء؛ فالخوف القوي غيره[1]، أسباب الخوف القوي: إن لم يفعل قُتل، أو فُعل به كذا وإلا كذا، فهذا هو الإكراه.

إفراد اللَّه بالخوف فرض لا يتم الإيمان إلا به

(﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾) ثم أتى بـ (إِنْ) الشرطية الدالة على أن إفراد اللَّه في المخافة فرض وواجب، ولا يتم الإيمان إلا به.

وجه الدلالة بقوله: ﴿وَخَافُونِ﴾، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فخوف اللَّه شرط في صحة الإيمان ينتفي عند ٱنتفائه.

والآية دليل على أن الخوف عبادة، فالأصل في صرف العبادة أنه شرك، وخوف السِّر معلوم أنه خاف من أعظم أنواع الخوف.

خلاصة فوائد

فعرفنا: أن الآية فيها الدليل على أن الخوف عبادة، وأن الخوف ثلاثة أقسام.

وعرفنا: أدلة الخوف الطبيعي، وأن الخلق لا يضرون أبداً، ٱستَشْعِر هذا بقلبك؛ ولو خوفك الطبيعي.

---

(١) أي: غير خوف السِّر.

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

دليل الرجاء

(وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ) أنه عبادة قلبية؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾).

أقسام الرجاء

هذه دليلٌ على أن الرجاء عبادة، ثم الرجاء معلوم أنه ضد الخوف، والرجاء فيه أقسام - أيضاً -:

الرجاء الذي هو شرك أكبر

رجاء المخلوقين فيما لا يقدرون عليه؛ بل لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فهذا شرك أكبر، مثل: رجاء مخلوق في هداية قلبه، أو يرد عليه بصره من دون سبب دواءٍ ولا غيره؛ بل بِسِرِّه.

فإذا رجا إنسان أحداً هذا الرجاء؛ فقد أشرك شركاً أكبر.

تعلُّق النفوس على من بأيديهم شيء لا بأس به

أما تعلق النفوس على من بأيديهم شيء؛ فهذا من طبع النفس؛ تعلُّقها على أسباب النفع، وليس بشرك، ولكن ينبغي أن يكون الرجاء الحقيقي القائم بالقلب هو: أن اللَّه إن سبَّب لك ذلك - إن أراد حصول ذلك لك - حصل، وإلا لم يحصل، فهذا المقدار لا تنفك منه النفوس، فليس بملوم.

الفرق بين الرجاء والخوف

ومسألة الرجاء وإن كان منها فالخوف أمكنُ من الرجاء، ومعالجة الرجاء أسهل؛ بأن تصرفه إلى جهة أخرى، أما الخوف فلا، كأن يقصدك ظالم بسيفه، وقد يضعف بقوة توحيده.

نعم؛ الرجاء هنا مثل الخوف الذي على العبد.

. . . .

فالحاصل من الرجاء:

الطبيعي فيه لا يضر.

الرجاء الذي هو شرك أصغر

وإذا رجا المخلوقين فيما يقدرون عليه وحَمَله على ترك واجب أو فعل محرم؛ فإنه متصوَّر وشرك أصغر، لكن وقوعه أقل، ولهذا نجدهم يعاملون الناس من أجل الخوف؛ يعملون أعمالاً ... إلخ، ثم قد يخل بواجب لأجل معروف بعض الناس، أو يقول كلمة محرمة لأجل الرجاء.

ولا أعرف التقسيم للرجاء إلى ثلاثة، لكن دليله ومعناه صحيح.

خلاصة فوائد

فعرفنا الرجاء، وعرفنا دليله، وعرفنا أقسامه، وهي:

- رجاء غير اللَّه الذي يوصل إلى الشرك الأكبر، هو: إذا رجا المخلوقين فيما لا يقدر على حصوله إلا رب العالمين، فإذا رجا غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فهو مشرك الشرك الأكبر.

- رجاء الناس فيما في أيديهم؛ فهذا ينقص التوحيد.

- رجاء أن يصل إليك شيء على أيديهم ويصير عنده شيء من الانتظار له؛ فلا بأس، لكن ينبغي أن يستشعر أن اللَّه هو الذي سبَّبه، وأن اللَّه كتب ذلك.

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ؛ ....

(وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ) يعني: الدليل على أنه عبادة.

معنى التوكل

ومعناه: التفويض والٱعتماد.

التوكل: التفويض عليه في الأمور؛ بأن يعتمد عليه، ويفوض إليه بكمال الصدق.

فهو عبادة، ودليله الآية؛ فلا يعتمد إلا عليه تعالى، فهو القادر على كل شيء.

التوكل عبادة قلبية

والمخلوق وإن كان له نوع قدرة فلا يُعتَمد عليه فيما أقدره اللَّه عليه، بل يعتمد على اللَّه، فهو عبادة قلبية.

لا يجوز صرف التوكل لغير اللَّه حتى في اللفظ

فإن ٱعتمد على غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فإن ذلك هو الشرك الأكبر.

وقول بعض العامة: توكلت عليك يا فلان في كذا؛ هذا شرك.

الفرق بين التوكل والتوكيل

أما التوكيل فيجوز، فهو ٱستنابة، وإلا فتوكلك فيه على اللَّه، كما أنك تباشر الأسباب بنفسك ولا ينافي التوكل، فكذلك ٱستنابة فلان.

حكم قول: مُتوكِّل على اللَّه ثم عليك

ومتوكِّل على اللَّه ثمَّ عليك؛ شرك - وكذلك الحَسْب - ويقول: موكِّلك.

قول: مُوكِّل اللَّه ثم مُوكِّلك

ولا يقول: موكِّل اللَّه ثم موكِّلك عليه؛ هذه عامية، وما هي في محلها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، . . . . .

دليل التوكل

والدليل على أنه عبادة: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾) فوِّضوا أموركم، وفوِّضوا إليه في أموركم.

تقديم المعمول على العامل يفيد الحصر

تقديم المعمول - وهو لفظ الجلالة - على العامل - وهو كلمة (**توكلوا**) - يفيد الحصر، وهذه قاعدة العربية، فتقديم المعمول: يفيد الحصر، أي: عليه وحده فتوكلوا.

التوكل شرط في صحة الإيمان ينتفي عند ٱنتفائه

(﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾) أتى بـ (**إنْ**) الشرطية الدالة على أن إفراد اللَّه في التوكل فرض وواجب، ولا يتم الإيمان إلا به.

فدلَّ على أن إخلاص التوكل على اللَّه شرطٌ في صحة الإيمان، ينتفي عند ٱنتفائه.

فدلَّت على أنه عبادة.

ثلاثة أوجه للدلالة على أن التوكل عبادة

ووجه الدلالة: أنه أَمْرٌ؛ ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

ثم نستفيد فائدة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، دلت على أنه شرط في الإيمان؛ ينتفي الإيمان عند ٱنتفائه.

وأخرى وهي قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، فإنه يفيد الحصر، أي: عليه لا على غيره.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

دليل ثانٍ على التوكل

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾)، وهو دليل ثانٍ من أدلة التوكل، فمعناها: ومن يتوكل على اللَّه فهو كافيه.

فدلَّت الآية أنه عبادة.

معنى الحسب

﴿حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه، الحَسْب معناه: الكافي، أي: هو كافيه، وكونه هو كافيه يدل على أنه لا يجوز التوكل إلا على من بيده الكفاية وحده؛ فإنه ذَكَر (مَنْ) الشرطية، وذَكَر فِعْل الشرط، وذَكَر الثواب.

وجه الدلالة

أتى بالشرط ثم جعل له جزاءً؛ فقال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ فدلَّ على أنه عبادة يقع الجزاء من اللَّه عليها.

جزاء نفيس لم يأت في شيء من العبادات إلا في التوكل

فَذَكر التوكل، ولم يذكر له جزاءً غير تولي كفاية العبد، فقال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يجئ هذا في غيره من العبادات، فدلَّ على عظم شأنه، وفضيلته.

فصار عملاً من الأعمال، وأنه يقع الجزاء عليه، ويدلُّ على أنه أفضل العبادات؛ لكونه هو الذي سيتولى كفاية العبد، وهذا جزاءٌ نفيسٌ فاضل.

خلاصة فوائد

عرفنا بهاتين الآيتين: أن التوكل عبادة، وذلك من أمر اللَّه تعالى بها، فلما أمر اللَّه بها دلَّ على أنها عبادة.

. . . .

فإذاً عرفنا: أنه عبادة.

وعرفنا: دليله، ووجه دليله، وأن التوكل شرطٌ في الإيمان - شرطٌ في الإيمان يُنفى عند ٱنتفائه -.

ومعناه: التفويض إلى اللَّه في جميع المهمات، كونك تفوِّض جميع أمورك على ربك.

فعل الأسباب

الأسباب تفعلها لأمرين: لكونه مأموراً بها، ولأنها مربوطة بأسبابها، لكنَّ الٱعتماد على اللَّه؛ لأن اللَّه إن شاء نفع بها، وإن شاء سلبها المنفعة.

عرفنا: أنه عبادة.

الثانية: الدليل؛ وهو: الآيتان.

الثالثة: وجه دلالة الأولى: وذلك من جهة أمر اللَّه بذلك؛ فإن أحد تعاريف العبادة: «كلُّ ما أُمر به»، وفي الآية: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، وكون اللَّه يحبه ويرضاه؛ لكونه أَمَر به، ومن تعريف العبادة: «ما يحبه اللَّه ويرضاه».

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

التوكل على اللَّه: تفويض الأمور إليه.

الحسب: الكافي.

. . . .

التوكل: عبادة.

دلالة الآيتين.

الأولى: وذلك أنه من جهة أمْر اللَّه تعالى بذلك.

السادسة: عرفنا وجهَ دلالةِ الأخيرة: مِن جهة أنه جيء بـ (مَن) الشرط والفعل، وذَكَر على ذلك جواباً وجزاءً، ثم أتى بجواب ذلك وجزائه، وأنه يقع الجزاء من اللَّه عليه، فدل على أنه عبادة، وهو أن الإتيان بـ (مَن) دالٌّ على أن إخلاص التوكل شرطٌ في الإيمان.

ودليل التوكل هذا فيه فوائد:

إحداها: عرفنا أن هذا دليل التوكل، المصنف ذكر على ذلك دليلين؛ أحدها: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، والثاني: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾.

الثانية: وجه الدلالة من الأولى: أنه قال: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ فهذا أمر، والأمر يفيد أنه عبادة.

الثالثة: تقديم المعمول يفيد الحصر.

الرابعة: التوكل: التفويض والاعتماد.

الخامسة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ دليل على أنَّ التوكل على اللَّه شرطٌ في حصول الإيمان.

. . . .

فعرفنا: دليل التوكل أنه عبادة، ووجه الدلالة: أنه أمْرُ عبادةٍ.

وعرفنا: وجه تقديم المعمول أنه يفيد الحصر، مثل: تقديم معمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على عامل ﴿نَسْتَعِينُ﴾.

وعرفنا: أن هذه الآية أنها دليل على التوكل.

وعرفنا: وجه الدلالة؛ أنه أمْرٌ.

وعرفنا: أن التوكل على اللَّه هو الٱلتجاء والتفويض إليه، يعني: أن فيها دليلاً على أن إخلاص التوكل للَّه شرطٌ في حصول الإيمان.

أما الدليل الثاني فعرفنا: أنها دليل على التوكل[1].

ووجه الدلالة: أنه أتى بـ (مَنْ) الشرطية، وفعل الشرط، وذكر الثواب ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2].

معنى الحسب

الثالث من فوائدها: معنى الحَسْب: أنه الكافي؛ فهو حسبه، أي: كافيه، كما في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك.

---

(١) وهي الفائدة الأولى.

(٢) وهي الفائدة الثانية.

. . . .

وهذا فيه[١]:

دليل أن التوكل عبادة، المعنى: لا تتوكلوا إلا على من بيده الكفاية - وهو اللَّه -.

الإتيان بفعل الشرط، وذِكْر جزاء من اللَّه.

الثالثة: معرفة الحَسْب، هو: الكافي.

فضل عبادة التوكل

الرابعة: أنها كما دلَّت على أنه عبادة؛ فدلَّت على أنه من أفضل العبادات؛ لكونه تعالى ما رضي جزاءً إلا هذا الجزاء النفيس، وهو: أنه يتولى تعالى كفاية المتوكِّل عليه، وشخص جاء فيه أن اللَّه كافيه؛ يفيد مزيد فضل ومزية؛ لهذه الآية - فلو أنه ما هو بعبادة لما أثاب عليه؛ فهو لا يثيب إلا على عبادة - فلم يقل: الجنة، بل جعل جزاءه: تولي كفايته جميع الأمور، فمن كان حسبه رب العالمين؛ فإنه في جميع أمره كلّه خيرٌ، وسلامة من كل ضير.

(١) هنا يعيد سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الفوائد الثلاث المتقدِّمة من الآية الثانية، ويزيد عليها رابعة.

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ؛ . . . .

عبادات قلبية

(وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ) هذه الثلاث عبادات؛ والدليل على أن الكل عبادة - أنهن عبادات قلبية -.

معنى الرغبة

(الرَّغْبَة) معناها: الطلب؛ يرغب في هذا: يطلبه طلباً بالغاً، فهي: طلب الشيء بمبالغة، وفيها قُرْبٌ من الرجاء.

الرغبة كون الإنسان في ٱعتقاده وأمله حصول المطلوب من اللَّه؛ فلا يؤمل حصول المطلوب إلا من اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، أما إذا كان على يده شيء فجائز، لكن لا بد أن يجعل كمال رغبته إلى اللَّه.

فالرغبة تَعلُّق النفس على الشيء في الحصول، فعلٌ يطلبه لا يتعلق فيه إلا على اللَّه، ولا يرغب إلا في جناب اللَّه، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

وفيها من معنى القصد إليه في حصول المطلوب قريب من هذا المعنى - ولكن لا بد من تلخيصٍ للكتابة[1] - وكذلك الرجاء، بخلاف الخوف والتوكل؛ فإنه ظاهر يُفسَّر.

معنى الرهبة

(وَالرَّهْبَة) الرهبة في معناها من الخوف - معناها قريب من معنى الخوف -.

(١) هذا يدلُّ على أن سماحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على علمٍ بكتابة الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لدروسه، إذ لم يكن أحد من طلاب سماحة الشيخ يكتب جميع شروحاته بحروفها سوى الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

. . . .

الرهبة من اللَّه، لا يرهب الخلق، يجعل رهبته من اللَّه؛ فلا يرهب إلا من رب العالمين، المخلوق منه رهبة طبيعية، لكن ٱجعل رهبتك من اللَّه أن يُسلِّطهم عليك.

معنى الخشوع

(وَالخُشُوع) عبادة، ومعناه: الذُّل والسكون، كونك ساكناً تاركاً الٱضطرابَ ومسنداً أمرك إلى ربك، ولا ينافي ذلك فعل الأسباب.

وأصل الخشوع: الذل والسكون، دليل ذلك قوله: ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ - شَـرِبـت - ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فالٱهتزاز: الحركة، والربو: الٱرتفاع، فدل على أنها ساكنة قبل، فدل على أنها قبل المطر فيها ٱنخفاض وليس فيها حركة بل سكون، فدل على أنه التذلل.

وهو يفيد التواضع والسكون، فلا يتواضع إلا للَّه، ولا يسكن إلا إليه؛ التواضع بترك الترفع والحركة؛ ترك ذلك للَّه ولأمر اللَّه، فإنه تمام الٱمتثال له، يسكن إلى المأمور - لا يكون عنده حركة، ولا ٱضطراب ـ.

فالخشوع يدخل فيه التذلل والخضوع، فمن لازمه التذلل والخضوع؛ هذه معانٍ بعضها قريب من بعض، لكن إذا تأملت الآية زال عنها الخشوع بٱثنين؛ بـ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ قال معنى هذا

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

ابن القيم إلا أن هذه ليست حروفه(١).

دليل الرغبة والرهبة والخشوع

والأدلة على ذلك: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾)، فأثنى على هؤلاء المذكورين في هذه الآية أنهم متصفون بهذه الصفات الثلاث - والثلاث عبادات -.

في حال دعائهم للّه: يدعونه رغباً ورهباً وكانوا له خاشعين، والخشوع مشترك بين القلب والجوارح.

يعني: ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾ متصفين بالرغبة والرهبة، وكونهم له خاشعين.

في الآية دليل المذكورات؛ ﴿رَغَبًا﴾ هذا دليل الرغبة، ﴿وَرَهَبًا﴾ هذا دليل الرهبة، و﴿خَاشِعِينَ﴾ هذا دليل الخشوع.

فدلَّ على أنهن عبادات، فمن صرف منهن شيئاً لغير اللّه؛ فهو مشرك كافر.

خلاصة فوائد

فعرفنا: أنهن عبادات.

وعرفنا: معنى ذلك، والدليل.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٦).

. . . .

وجه الدلالة

ووجه الدلالة: أنه أثنى على هؤلاء بكونهم متصفين بهذه الصفات، وهو تعالى لا يُثني إلا على من ٱتصف بالصفات التي يحبها.

خلاصة فوائد من الآية

ثم هذه الآية ٱستفدنا منها: دليلاً على أن هؤلاء عبادات، وٱستفدنا أنهن عبادات من جهة ثناء اللَّه تعالى على هؤلاء؛ بكونهم يدعون رب العالمين بهذه الحالات: بحالة الرغب، والرهب، وكونهم له خاشعين؛ فدل على أنهن عبادات؛ فإن أحد تعاريف العبادة أنها: «ٱسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه اللَّه ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة».

فهذه دلت على أنها عبادة؛ فإنه لا يثني إلا على شيء يحبه.

كتب فيها مزيد بيان

ثم فائدةٌ هنا: إذا أراد شرح ذلك: (**مدراج السالكين شرح منازل السائرين**)، و(**طريق الهجرتين**).

طريق معرفة العبادات القلبية

والخوف بالوجدان، وكل هذه المذكورات تعرف بالوجدان - إذا وُجدت منه -.

فالحد المذكور يُطلب من محله أحسن، فهي شيء مستقل.

وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

معنى الخشية

(وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ) الخشية: بمعنى الخوف، لكنها أخص منه؛ خافوا خوفاً حملهم على اللجأ إلى اللَّه، فهي بمعنى الخوف إلا أنها أخص؛ فإن الخشية خَوفُ مَنْ حَمَلَهُ خَوفُه على الاَستقامة، فإنه خوف حَمَل صاحبه إلى أن يلجأ إلى المخوف، ٱستفاد من خوفه ٱستقامتَه مع اللَّه؛ بأن ٱمتثل أوامره وٱجتنب زواجره، خاف فرجع إلى اللَّه بفعل المأمورات وترك المنهيات.

دليل الخشية

(وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ) والدليل على أنها عبادة: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾) فأمر بخشيته، ونهى عن خشية ما سواه؛ فدلَّ على أنها عبادة.

وجه الدلالة

أمر بخشيته وحده، ونهى عن خشية غيره، كما في الآية الثانية: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، وغير ذلك.

فدلَّ على أنها عبادة؛ فصرفُها لغير اللَّه شرك.

خلاصة فوائد

ٱستفدنا من هذا: دليل الخشية أنها عبادة، ثم وجه الدلالة: أَمْره تعالى بخشيته، ونهيه عن خشية ما سواه - نظير ما تقدم لكم -؛ من جهة أَمْره تعالى عباده بخشيته، ونهيه عن خشية ما سواه.

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾.

معنى الإنابة

(**وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ**) الإنابة بمعنى التوبة إلا أنها أخص، وهي أعلى مقام التوبة.

معنى التوبة

فإن التوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم على أن لا يعود إليه.

الفرق بين التوبة والإنابة

والإنابة: تدل على ذلك، وتدل على الإقبال على اللَّه بالعبادات.

وهي مع التوبة كالخشية مع الخوف، ولها معنى زائد على التوبة، يعني: فٱقتضت معناها، وزادت: حقيقة الإقبال، والٱزدياد من الطاعة - وأقبل على اللَّه: رجع عمَّا لا ينبغي بالكلية، وقصد إلى ما ينبغي من رضاه -.

دليل الإنابة

ودليل الإنابة أنها عبادة: (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾**) دلَّ ذلك على أن الإنابة عبادة.

وجه الدلالة

ووجه الدلالة: من حيث أَمْرُ اللَّه عبادَه بذلك ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾، وأَمْرُه تعالى عباده بالإنابة إليه دليل على أنه يحبها شرعاً وديناً، فأَمْره عبادَهُ بشيء يدل على أنه عبادة، كما أن كل ما يحبه عبادة، فدل على أنها عبادة؛ فصرفها لغير اللَّه شرك أكبر.

. . . .

ثم نعرف فائدة ثانية، وهي: معنى الإنابة، ومعناها: معنى التوبة إلا أنها أخص؛ أنه رجع عن الذنب، ومع ذلك أقبل على اللَّه بفعل الطاعات.

خلاصة فوائد

فعرفنا: دليل الإنابة.

ووجه دلالتها على ذلك: من جهة الأمر بذلك.

والثالثة: أنها بمعنى التوبة؛ إلا أنها أخص من التوبة.

فعرفنا: أنها عبادة، ودلالة الآية ووجهها، ومعناها.

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ....

معنى الاستعانة

(وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ) أنها عبادة - الاستعانة: هي طلب الإعانة من اللَّه ـ الدليل على أنها عبادة: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾) يعني: نعبدك وحدك لا غيرك، (﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾) تقديم المعمول على العامِل يفيد الحصر؛ أي: نستعين بك وحدك دون كل من سواك.

دليل الاستعانة

وجه الدلالة

الاستعانة الجائزة

أما الإنسان في الأمور العاديات - بعضهم مع بعض فيما يقدرون عليه - فجائز.

الاستعانة الشركية

أما أن يستعين بالآلهة؛ يعينه بالإعانة السرية، يمدُّه إمداداً سِرِّياً يقوى به على هذا الشيء؛ فإن هذا لا يعينه إلا اللَّه على هذا الشيء، ومن استعان بغير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فهو مشرك الشرك الأكبر.

خلاصة فوائد

وعرفنا من هذا: دليل الاستعانة.

وعرفنا معناها: أنها طلب الإعانة.

وعرفنا: الدليل على أنها عبادة، وهي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والآية دلتنا على أن الاستعانة عبادة، فإذا عرفنا أنها عبادة فصرفها لغير اللَّه شرك.

. . . .

وجه آخر في الدلالة

ووجه الدلالة من ذلك: أن اللَّه تعالى تعبَّدنا بأن نقول ذلك، فدل على أن ٱستعانتنا بربنا عبادة؛ فإنا مأمورون بكل حال أن نقول ذلك في صلاتنا، فدلنا على أن الٱستعانة عبادة، فنعرف أن اللَّه يرضى منّا ذلك، وتعبَّدنا أن نقول ذلك في الصلاة.

أقسام الٱستعانة بالمخلوقين

لكن نعرف أن الٱستعانة بالمخلوق منها ما هو شرك أكبر، وهو: فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه جلَّ جلاله.

والٱستعانة بالمخلوقين فيما يقدرون عليه هذا من ضروريات الٱجتماع والحياة؛ ليعيش الناس بعضهم مع بعض، وفي الحديث: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[1]، فينبغي أن يكون في عون أخيه، فٱستعانتك بإنسان يعينك على حمل خشبةٍ، أو رأيٍ، أو النظرِ في شيء؛ هذا من الأمور الحسية العادية - لا من الٱستعانة بالأسرار والخصوصيات - كالسيف على السباع، والطعام على الصحة.

فالٱستعانة التي هي عبادة هي الٱستعانة بالسِّر؛ كالميت، أو حيٍّ لكن لا بٱنفعاله التي هي بحواسه - بيديه، ونحو ذلك -.

أمَّا الٱستعانة بالمحسوس القوي في القوة والرأي؛ فليس من العبادة في شيء.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والٱستغفار، باب فضل الٱجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا ٱسْتَعَنْتَ فَٱسْتَعِنْ بِاللَّهِ».

دليل آخر على الٱستعانة ووجه الدلالة

(وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا ٱسْتَعَنْتَ فَٱسْتَعِنْ بِاللَّهِ»[1]) وكذلك هذا الحديث فيه حصر الٱستعانة باللَّه وحده، وهذا طرف من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما؛ معناه: ألَّا يسأل في قضاء الحاجات إلا اللَّه.

خلاصة فوائد

فعرفت دليلاً من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ؛ فدلَّ على أنها عبادة.

فعرفنا: أن الٱستعانة عبادة.

وعرفنا: أنها طلب الإعانة.

فإذا عرفت من هذين الدليلين أنها عبادة؛ فإذا ٱستعان أحد بغير اللَّه؛ فهو مشرك الشرك الأكبر، كما أنه إذا توكل على غير اللَّه، أو رغب إلى غير اللَّه؛ فهو مشرك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم (٢٦٦٩)، والترمذي في السنن، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول اللَّه ﷺ، رقم (٢٥١٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَاذَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ....

(وَدَلِيلُ الِاسْتِعَاذَةِ) أنها عبادة من أفضل العبادات.

معنى الاستعاذة

الاستعاذة هي: الاستجارة والالتجاء والاعتصام، والتحرُّز، وطلب الإعاذة.

والإعاذة هي: المنع والإجارة؛ مَنْعك من السوء، ومن مُريد السوء بك، أو منعك الشخص وإجارته مما يكره، وجَعْله في حرز مما يكره، فهي الامتناع والتحرُّز والإجارة.

الفرق بين العياذ واللياذ

والعياذ واللياذ كلٌّ عبادة، إلا أن العياذ لدفع الشر، وأما اللياذ فطلب الخير، فلا يُلاذ إلا إلى رب العالمين، ولا يُلاذ: في حصول المحبوب[1].

الاستعاذة عبادة

فالاستعاذة بالله هي: الطلب من الله ذلك؛ أن يحرزك من المكروه، وأن يجيرك من ذلك، وحقيقة ذلك: الاستجارة، فهذه عبادة، فلا يُستجار في رفع المخاوف إلا بالله، ولا يُعاذ إلا به.

ومثلها: اللياذ؛ عبادة، إلا أنه في طلب المحبوب.

دليل الاستعاذة

والدليل على أنها عبادة: **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾)**، فدلَّ على أنها عبادة.

---

(١) يعني: أن اللياذ يكون في حصول المحبوب.

وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وجه الدلالة

ووجه الدلالة: أن اللَّه أمر نبيَّه أن يستعيذ برب الفلق، والعبادة هي ما أمر به، واللَّه أمر به نبيه ﷺ أن يستعيذ به تعالى، فدل على أنها عبادة من أفضل العبادات، فإذا صرفه لغير اللَّه؛ فهو مشرك كافر.

أدلة أخرى على الاستعاذة

(وَ) كذلك (﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وغير ذلك من الكتاب.

ومن السنة: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»[(١)]، وأشباه ذلك من الأدلة الدالة على أن الاستعاذة عبادة.

أنواع الاستعاذة، وحكم كل نوع

فمن استعاذ بغير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فإن ذلك عابد لغير اللَّه، وذلك شرك أكبر.

أما إن تعوذ بسلطانٍ ونحوه في أن يدفع ظلم ظالم عنك

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨)، من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

. . . .

فجائز، أما ما لا يقدر عليه إلا رب العالمين؛ فإن ذلك عبادة لا يجوز.

صيغة الٱستعاذة الجائزة

ثم المخلوق فيما يقدر عليه؛ لا يقول: أعوذ باللَّه وبك، صار شركاً؛ بل يقول: باللَّه ثم بك؛ فإن الواو تقتضي التشريك، وأن ما بعدها نظير ما قبلها في ذلك الشيء.

ولا يُقال: وبك؛ صار شركاً أصغر.

فإذا ٱستعاذ بغير رب العالمين فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ فهو مشرك كافر.

خلاصة فوائد

فعرفنا: الٱستعاذة؛ فلا تستجر بأحد من الخلق فيما لا يقدر على الإجارة منه إلا رب العالمين.

أما الٱستجارة بشخص يملك أو قادر على ردِّه عنك فجائز، ولا يقول: أعوذ بك؛ لأنها مكروهة.

فالأمور التي لا بالحس، أو شيء لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ شرك.

أما الشيء الذي يقدر عليه المخلوق؛ فجائز.

ولو قلت: أستعيذ باللَّه وبك؛ فشرك.

ولو قلت: ثم بك، إذا كان شيء فيما يقدر عليه، فيجوز.

أما ما لا يقدر عليه أصلاً فلا يجوز؛ فلا يُستعَاذُ إلا باللَّه.

. . . .

فصارت الٱستعاذة هي: الٱلتجاء والٱعتصام والتحرُّز من شر هذا - منه -.

فإذا قلت: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»:

صار مستعيذاً، وهو: أنت.

ومستعاذاً به، وهو: اللَّه تعالى.

ومستعاذاً منه، وهو: الشيطان الرجيم.

الفرق بين العياذ واللياذ

فهو ٱستعاذة، ومحلها في الخوف، كما أن اللياذ لطلب المحبوب، ومحله في الرجاء؛ فالعياذ لدفع المكروه، واللياذ لطلب المحبوب، كما في قول الشاعر[١]:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ فِيمَا أُحَاذِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْماً أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْماً أَنْتَ جَابِرُهُ

قول القائل: (يَا مَنْ . . . إلخ) هذا يدل على الفرق عندما يقترنان، أما إذا أُفرد أحدهما فقد يدخل فيه الآخر، ويصير القصد الأول: هو دفع المكروه، ويدخل فيه بالضمن: طلب حصول المحبوب، وكذلك العكس.

ويأتي كلام المصنف؛ معنى أعوذ: ألوذ[٢]، فهو يدل على

(١) هو أبو الطيِّب المتنبِّي. يُنظر: ديوان المتنبِّي (ص ٤٣).

(٢) في شرح شروط الصلاة لسماحة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ «مخطوط».

. . . .

أنه يدخل، ولعله بالعكس أيضاً؛ وذلك أن اللائذ طالب حصول شيء وسلامة من شيء؛ فإنه بالنسبة إلى ما أراد من دفع عايذٌ[1]، وذلك عائذ.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ معنى ﴿أَعُوذُ﴾: أعتصم وألتجئ وأتحرز.

ما تضمنته سورة الفلق

وتضمَّنت هذه الكلمة: مستعاذاً به، ومستعاذاً منه، ومستعيذاً.

فأما المستعاذ به؛ فهو: اللَّه وحده ربُّ الفلق، الذي لا يُستعاذ إلا به.

والفلق: هو بياض الصبح إذا ٱنفلق من الليل، وهو من أعظم آيات اللَّه الدالة على وحدانيته.

وأما المستعيذ؛ فهو: رسول اللَّه ﷺ، وكل مَن ٱتبعه إلى يوم القيامة.

وأما المستعاذ منه؛ فهو أربعة أنواع:

الأول: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وهذا يعم شرور الأولى والآخرة، وشرور الدين والدنيا.

والثاني: قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ والغاسق:

---

(١) أي: مستعيذ.

. . . .

الليل، أي: أظلم ودخل في كل شيء، وهو محل تسلُّط الأرواح الخبيثة.

الثالث: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ وهذا من شر السحر، فإن النفاثات السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر، والنفاثات مؤنث، أي: الأرواح والأنفس؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة.

الرابع: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وهذا يعم إبليس وذريته - لأنهم أعظم الحسَّاد لبني آدم - أيضاً، وقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الحاسد إذا أخفى الحسد، ولم يعامل أخاه إلا بما يحبه اللَّه؛ لم يضره.

ما تضمنته سورة الناس

و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ قد تضمَّنت - أيضاً - ذكر ثلاثة:

الأول: الاستعاذة - وقد تقدَّمت -.

الثاني: المستعاذ به.

الثالث: المستعاذ منه.

فأما المستعاذ به؛ فهو: اللَّه وحده لا شريك له، ربُّ الناس الذي خلقهم، ورزقهم ودبرهم، وأوصل إليهم مصالحهم، ومنع عنهم مضارهم.

. . . .

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، المدبر لهم كما يشاء، الذي له القدرة والسلطان عليهم - فليس لهم مَلِكٌ يهربون إليه إذا دهمهم أمر - يخفض ويرفع، ويصل ويقطع، ويعطي ويمنع.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: معبودهم الذي لا معبود لهم غيره، فلا يُدعى ولا يُرجى ولا يَخلق إلا هو، فخَلَقهم وصوَّرهم، وأنعم عليهم، وحماهم ممَّا يضرهم بربوبيته، وقَهَرهم، وأَمرهم ونهاهم، وصرَّفهم كما يشاء بملكه، وٱستعبدهم بالهيبة الجامعة لصفات الكمال كلها.

وأما المستعاذ منه؛ فهو: الوسواس، وهو الخفيُّ الإلقاءِ في النفس، إمَّا بصوت خفي لا يسمعه إلا من أُلقي إليه، وإمَّا بلا صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

وأما الخناس؛ فهو: الذي يخنس، ويتأخر، ويختفي.

وأصل الخنوس: الرجوع إلى وراء.

وهذان وصفان لموصوف محذوف، وهو الشيطان، وذلك: أن العبد إذا غفل جثم على قلبه، وبذل فيه الوساوس التي هي أصل الشر، فإذا ذكر العبدُ ربَّه وٱستعاذ به خنس.

قال قتادة: «الخنَّاس: له خرطومٌ كخرطوم الكلب، فإذا ذكر العبدُ ربَّه خَنَس».

. . . .

ويقال: رأسه كرأس الحية، يضعه على ثمرة القلب، يُمنِّيه ويُحدِّثه، فإذا ذكر اللَّه خنس.

وجاء بناؤه على (الفَعَّال)، الذي يتكرر منه، فإنه كلما ذكر اللَّه ٱنخنس، وإذا غفل عاد.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ يعني: أن الوسواس نوعان: إنس، وجن.

فإن الوسوسة: الإلقاء الخفي، لكن إلقاء الإنس بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إليه.

ونظير ٱشتراكهما في الوسوسة: ٱشتراكهما في الوحي الشيطاني، في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾[(١)].

---

(١) قال الوالد رحمه الله: «الشرح الوارد على المعوذتين من قوله: «معنى ﴿أَعُوذُ﴾: أعتصم وألتجىء وأتحرز» إلى نهاية الكلام على المعوذتين، قُرئ في الدرس على سماحة الشيخ رحمه الله، وهو للمصنف في الٱستنباط. الدرر السنيَّة (١٣/ ٤٥٢ - ٤٥٥).

وكلُّ آية ذُكرت في ثلاثة الأصول ينبغي مراجعتها من كلامه في الٱستنباط، وكذلك الأربع القواعد، وشروط الصلاة يؤخذ لها من آداب المشي له، ومخاصمة الشيخ مع الوثنيين في تاريخ ٱبن غنام رسالةً رسالةً، من ذلك (ص ٢٠٩)».

وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

(وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ) أنها عبادة من أفضل أنواع العبادات.

معنى الاستغاثة

والاستغاثة: هي طلب الإغاثة، وهو الإنقاذ من الغيظ[1] والشدة، وهي أخص أنواع الدعاء.

فالاستغاثة هي: دعاء المكروب خاصة؛ وهي طلب الإنقاذ من الهول والشدة، فلا يطلب الإنقاذ والإغاثة إلا من رب العالمين، فلا يطلب من الأموات ونحوهم لا طلب إنقاذ[2]، فإذا صرفها لغير اللَّه - كالاستغاثة بالأصنام، أو الأموات، أو الغائبين، أو نحوهم -؛ فهو مشرك كافر، كما أنه إذا استعاذ بغير اللَّه فهو مشرك كافر.

دليل الاستغاثة

والدليل: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾)؛ فهذه الآية دلت على أن الاستغاثة عبادة؛ لقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

وجه الدلالة

خلاصة فوائد

فعرفنا: أن الاستغاثة عبادة، ومعناها، ودليل ذلك.

الثانية: عرفنا أن الاستغاثة نوع خاص من أنواع الدعاء؛ فإنها دعاء الكرب خاصة.

---

(١) الغين والياء والظاء أُصَيْلٌ فيه كلمة واحدة، يدل على كرب يلحق الإنسان من غيره. مقاييس اللغة (٤/ ٤٠٥).

(٢) ولا غيره من باب أولى.

. . . .

الثالثة: نعرف وجه دلالة الآية على أن الٱستغاثة عبادة، لمَّا قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ فرتَّب على الٱستغاثة الٱستجابة كما رتَّبها على الدعاء؛ فهي دليل على أنها عبادة.

ونعرف أنَّ الٱستغاثة نوع خاص من أنواع الدعاء، فهي دعاء المكروب، وأدلتها: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾؛ فدلَّ على أنها عبادة.

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ....

دليل الذبح

(وَدَلِيلُ الذَّبْحِ) أنه عبادة مالية؛ فإنها من أفضل القربات للَّه تعالى، ومما يدل على أفضليتها: قرنها بآية الصلاة، والدليل: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾) أي: ذبحي، أو ذبيحتي.

جمع تعالى بين هاتين العبادتين اللتين هما أفضل العبادات، كما جمع بينهما في الآية الثانية: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

أفضل العبادات

فالصلاة: أفضل العبادات البدنية.

منزلة عبادة الذبح

والذبح: أفضل العبادات المالية، وإنما كان الذبح أفضلها؛ لأنه يجتمع فيه أمران:

الأول: أنه طاعة للَّه.

الثاني: أنه بَذَل ماله، وطابت به نفسه، والبذل مشترك في جنس المال، لكن زاد على غيره من حيث إن الحيوانات محبوبة لأربابها؛ يجد لها ألماً في النفوس من شدة محبتها، فإذا بذله للَّه وسمحت نفسه بإيذاق الحيوان الموت؛ صار أفضل من مطلق العبادات المالية الأُخر، كالتقرب إلى اللَّه بالقربان من الضحايا، والهدايا، ونحو ذلك.

(﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾) ما أحيا عليه من العمل الصالح، وما أموت عليه.

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ».

(﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾) فدلَّ على ٱنفراد رب العالمين بذلك، ولذلك قال: (﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾) يعني: في ذلك ولا في غيره، ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾.

وجه الدلالة

ووجه الدلالة في قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾ يعني: ذبحي أو ذبيحتي للَّه رب العالمين؛ فدلَّ على أنه عبادة، فإن اللام دال على أنه مختص باللَّه - فالذين يذبحون لغير اللَّه؛ كالأموات، أو طلعة بعض المعظَّمين؛ فإن ذلك شرك أكبر - فإنَّ ذبْحَك حيوانَك كلُّه تريد به القربة عند ربك، فإذا صُرف لغير اللَّه صار شركاً أكبر.

دليل آخر على الذبح

(وَ) الدليل الآخر (مِنَ السُّنَّةِ) أي: الدليل من السُّنة أنه عبادة: وهو قوله ﷺ في حديث علي رضي الله عنه: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ[1])؛ فدلَّ على أنه عبادة.

وجه الدلالة

هذا يدلُّ على أنه مما لا يجوز للخلق؛ بل مختص باللَّه، وهذا شأن العبادة؛ حقُّها تصرف للَّه وحده لا شريك له؛ وذلك لأن اللَّه لعن من صرفه لغيره؛ فإن العبادة كلها مختصة للَّه سبحانه وتعالى، فإذا صرفها لغير اللَّه؛ بأن ذبح للأصنام، أو للقبور المعبودة من دون اللَّه؛ ٱلتماساً لشفاعة أربابها، أو للزِّيران، أو للزهرة، أو لقدوم السلطان، أو نحو ذلك؛ فهو مشرك كافر.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير اللَّه تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨).

وَدَلِيلُ النَّذْرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

دليل النذر، ووجه الدلالة

(وَدَلِيلُ النَّذْرِ) أنه عبادة يجب إخلاصها للَّه تعالى: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾) فأثنى اللَّه تعالى عليهم بالإيفاء بالنذر؛ وهو تعالى لا يثني إلا على فاعل عبادة؛ فدلَّ على أن النذر عبادة.

وكذلك الآية الثانية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ يعني: وسيجازيكم عليه.

وفي الحديث: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ؛ فَلْيُطِعْهُ»[1] الحديث.

معنى النذر لغة

والنذر أصله في كلام العرب: «الإيجاب»؛ ومنه قولهم: «نذرت دم فلان: إذا أوجبته».

معنى النذر شرعاً

وحقيقته في الشرع: «إيجاب المكلَّف على نفسه ما ليس واجباً عليه شرعاً؛ تعظيماً للمنذور له».

دليل آخر على النذر، ووجه الدلالة

فعرفت: أنه عبادة، وعرفت دليله، وكذلك: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فإنه يجازيكم عليه، فدلَّ على أنه عبادة؛ لأنه يعلمه، دليل على أنه يجازي عليه، كما يجازي على النفقة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

. . . .

فعرفنا: أنه عبادة، ومعناه، ودليله.

خلاصة فوائد

فصار فيه فوائد:

إحداها: عرفنا أن النذر عبادة.

الثانية: وجه الدلالة: ثناؤه تعالى على فاعله، وهو لا يثني إلا على فاعل عبادة.

الثالثة: عرفنا النذر لغة وشرعاً، مثلاً قول القائل: للَّه عليَّ كذا؛ إنما قاله تعظيماً للَّه تعالى، فصار عبادة.

أقسام النذر

والنذر تارةً ماليٌّ، وتارةً غير - كالصيام -.

والنذر إنما يكون بالقول، لا يكون نفسه مالاً، لكن تسميته على حسب المنذور:

تارة مالي، وتارة بدني، وتارة مركب منهما - فإنه مركب من عمل ومن نفقة - وهو الحج.

حكم النذر

وجنس النذر ما هو بفضيلة؛ ما أَمَرنا اللَّه أن ننذر؛ بل في الحديث: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ»[1]، لكن إذا وقع متعيَّن الوفاء به.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً، رقم (١٦٣٩)، من حديث ٱبن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

فعرفنا: أن كلّاً من الاستعانة، والاستغاثة، والنذر، وكذلك الذبح؛ عبادة.

فإذا نذر لغير اللّه - كأن ينذر للقبور -؛ فهو شرك أكبر.

الأَصْلُ الثَّانِي

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ، ....

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة

(الأَصْلُ الثَّانِي) تقدم الأصل الأول وهو معرفة الربِّ، وهذا الثاني.

(مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ) فرع الأصل الأول وشرحه وبسطه، ثم ذكر الأصل الثاني من أصول الدين التي ينبني عليها.

لا يسوغ التقليد في الدين

(بِالأَدِلَّةِ) يعني: من الكتاب والسنة؛ تنبيهاً على أنه لا يسوغ التقليد في ذلك فيكون إمَّعة؛ بل لا بد أن يكون معه أدلة على ما خُلق له من الكتاب والسنة، حتى يكون على بصيرة ونور وبرهان من دينه.

عاقبة التقليد

يعني: أنه لا يكتفى في ذلك بالتقليد؛ بل لا بد من معرفة الإنسان الإسلام بالأدلة؛ حتى يكون على برهان، فيكون إذا سُئل في القبر لا يقول: هاه هاه، فإن من لم يكن على حقيقة من دينه؛ فإنه يخشى عليه في حياته، وبعد مماته من سؤال الملكين إذا سألاه في القبر، أن يحصل له الشك فيجيب بالجواب السيء؛ فيقول: هاه هاه، لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته، يصنعون شيئاً فصنعته! فهو إما دينه دين الوطنيَّة أو المدنيَّة، بخلاف من يعرف أدلة دينه من الكتاب والسنة، وكان على القول الثابت في الحياة الدنيا؛ فإنه حري بأن يقول:

وَهُوَ: الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

ربي اللَّهُ، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيّي.

العلم من أسباب الثبات

فإن من أسباب الثبات عند السؤال: معرفة الدين بالحجج من الكتاب والسنة؛ بل ويجب على الإنسان أن يعرف ما أوجب اللَّه عليه من دين الإسلام بدليله من الكتاب والسنة؛ فالذي لا يعرف الحق بدليله يكون كالأعمى يُقاد.

ثم بيَّنه المصنف بأدلته - بين وفسَّر دين الإسلام -، فقال:

(**وَهُوَ: الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**).

الإسلام ثلاثة أمور

دين الإسلام ثلاثة أمور:

(**وَهُوَ: الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ**) يعني: الذل والخضوع للَّه، بإفراده بالربوبية والخلق والتدبير، وإفراده بجميع أنواع العبادة، وإلا فأركانه خمسة تأتي في قوله: «الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ ...»[(١)] إلخ، وكذلك حديث: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»[(٢)]، «بُنِيَ» عرفنا أنها أركان.

---

(١) يعني: حديث جبريل الطويل، أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

(**وَالِٱنْقِيَادُ لَهُ**) فعلاً للأوامر، وتركاً للنَّواهي؛ (**بِالطَّاعَةِ**) أي: بفعل المأمورات من الطاعات وفعل الخيرات، وترك المنهيات والمنكرات؛ طاعة للَّه سبحانه وتعالى.

(**وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**) البراء من الشرك وأهل الشرك، فلا بد أن يتبرأ من الشرك ومن أهل الشرك، في الٱعتقاد والعمل والمسكن، بريئاً من كل خصلة من خصالهم، ومن كل نسبة من النِّسب، معادياً لهم أشد المعاداة.

مراتب الإسلام إجمالاً

(**وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ**) يعني: الدِّين الذي ٱفترض علينا وخلقنا لندين به؛ مكوَّن من مراتب:

(**الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ**) الإسلام مرتبة، والإيمان مرتبة، والإحسان مرتبة.

هذه مراتب الدين التي بُعث بها النبي ﷺ، والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرهن هنا مجملة، ثم فصلهن وبيَّن أدلتهن.

(**وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ**).

فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ: . . . .

المرتبة الأولى وأركانها

(فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ) فكأن المصنف قال: المرتبة الأولى: مرتبة الإسلام، وأركانه خمسة؛ التي ينبني منها ويتحصل منها، كما جاء في الحديث: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ»، هذه مباني الإسلام التي ٱبتنى وٱجتمع وتركب منها؛ فهذه هي أركانه.

فكلُّ خصلة من الخصال الدينية داخلة فيه.

وكلُّ خصلة من خصال الإيمان داخلة تحت الإسلام.

الفرق بين الإسلام والإيمان

فما كان من الأعمال الباطنة؛ فَوَصْفُ الإيمان عليه أغلب من وصف الإسلام.

وما كان من الأعمال الدينية الظاهرة - كالشهادتين، والصلاة، وأنواع العبادات التي تظهر ويطَّلع عليها الناس -؛ فَوَصْفُ الإسلام أغلب عليها من وصف الإيمان.

فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان.

والدليل أن دائرة الإسلام أوسع: كونه يُنفى عن شخصٍ ٱسم الإيمان ولا يُنفى عنه ٱسم الإسلام، ألا ترى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ

. . . .

ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[(١)]، «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[(٢)]؛ ولم يُنف فيها الإسلام؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب النهبى بغير إذن صاحبه، رقم (٢٤٧٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، رقم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوايقه، رقم (٦٠١٦)، من حديث أبي شريح رضي الله عنه، ولفظه: «واللَّه لا يؤمن، واللَّه لا يؤمن، واللَّه لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول اللَّه؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوايقه».

شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ.

أعظم أركان الإسلام

(شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ) هذا هو أعظم الأركان الخمسة، وهو يشتمل على شيئين: على شهادة ألا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، وهذان الشيئان أحدهما أعظم من الآخر؛ فإن شهادة ألا إله إلا اللَّه هو الذي يكون عليه الركنُ الآخَرُ، وهو: شهادة أن محمداً رسول اللَّه.

ركنا الركن الأول وأعظمهما

والثاني: **(وَإِقَامُ الصَّلَاةِ)**.

(وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ) هذه المذكورات تأتي أدلتها؛ منها ما هو تفصيل، ومنها ما هو أدلة مجملة.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ....

ذكر المصنف الأصل الثاني، وهو: معرفة دين الإسلام بأدلته، وتبيَّن لكم أنه الٱستسلام؛ هذا حده، وتبيَّن لكم أنه ثلاث مراتب، وتبيَّن أن كل مرتبة لها أركان، وتبيَّن لكم تعدادها واحداً واحداً.

ثم شرع المصنف في أدلة الخمسة الأركان للإسلام.

فقوله هنا: (فَدَلِيلُ) هذا شروع من المصنف رحمه الله في بيان أدلة أركان الإسلام الخمسة؛ شروعٌ في بيان أدلة كل واحد.

وأولها: شهادة ألا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه؛ فبيَّن دليلها ومعناها، ودليلها، وبيَّن معنى ذلك، وذكر دليل الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.

دليل شهادة ألّا إله إلا اللَّه

(فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ) يعني: دليل شهادة ألا إله إلا اللَّه؛ فبدأ بدليل الشهادة؛ لأنها أول الأركان، فدليلها: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾) هذه الشهادة هي أعظم شهادة في الوجود؛ فإنها من أعظم شاهد وهو اللَّه سبحانه وتعالى، هذه شهادة رب العالمين، على أعظم مشهود به في الوجود، وهو وحدانية الرب جلَّ جلاله؛ فإنه لا شهادة أعظم من شهادته تعالى بالألوهية، وشهادة رب العالمين لا ينقضها شيء.

أعظم شهادة في الوجود

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ....

بطلان إلهية غير اللَّه تعالى

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده هو الإله، وأنَّ مَن ٱدُّعيت فيه الألوهية؛ فهو أبطل الباطل، وأضل الضلال، فهو الإله وحده دون كل من سواه.

شهادة الملائكة

(﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) أيضاً يشهدون بكل ما شهد به اللَّه لنفسه؛ يعني: شهدوا كما شهد اللَّه بأنه لا إله إلا هو.

شهادة أولي العلم

(﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾) وكذلك أولوا العلم شهدوا بذلك أيضاً؛ شهدوا أنه لا إله إلا هو، يعني: يشهدون ألا إله إلا هو.

فضل العلم وأهله

وهذا فيه تعديل وتزكية لأهل العلم؛ إذ ٱرتفعوا إلى هذا المقام الذي ٱستشهدهم تعالى على وحدانيته تعالى، ولينتفي جحد الجاحدين وٱنتحال المبطلين.

وهذا فيه أعظم شيء حاثٍّ لك على طلب العلم؛ فإن اللَّه ٱستشهد الملائكة وٱستشهد أهل العلم، ففي هذا رفعة أهل العلم على ما شهد به رب العالمين؛ فدلَّ ذلك على فضل العلم، وجاء في الحديث: «يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ»[(١)]، وهذا أعظم مرغِّبٍ في العلم وإن زهد فيه الأكثرون.

(١) أخرجه البزار في مسنده، رقم (٩٤٢٣)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

العلم الممدوح في النصوص

والمقصود بالعلم: العلم الشرعي، الذي هو نور القلوب وحياتها، والذي غيره علمٌ نِسْبيٌّ إضافي؛ إما أمور دنيوية، أو علومٌ حسابيةٌ وصناعية، وأهله ليسوا من أهل العلم الذين ٱستشهد اللَّه، فلا يُطلق هذا العلم إلا على العلم الشرعي الديني.

عدالة أهل العلم

وٱستشهاده ملائكته وأولي العلم من عباده دليلٌ على فضلهم وعلى عدالتهم؛ فإن اللَّه لا يستشهد إلا من هو غاية في العدالة، ولهذا جاء في الحديث: «يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ»، فإن ملائكة رب العالمين يشهدون بذلك، وهم على أتم شهادة وأكمل دليل، وكذلك أهل العلم هم يشهدون أتم شهادة؛ لِما عَرفوا من كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين.

(﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾) بالعدل؛ أي: بالعدل في خلقه وتدبيره، فلا يظلم أحداً شيئاً.

عظم شأن التوحيد

(﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾) إعادتها ثانياً؛ تأكيداً لـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كما يقوله في الكلام: قم، قم، وإعادتها لعظيم شأن التوحيد.

وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ.

معنى كلمة التوحيد

ثم شرع في معناها فقال: **(وَمَعْنَاهَا)** يعني: ومعنى هذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا اللَّه): **(لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ)** وحده.

معنى قول القائل: أشهد ألا إله إلا اللَّه: أشهد ألا معبود بحق إلا اللَّه.

فبيَّن دليلها، وبيَّن معنى ذلك.

أركان كلمة التوحيد

وهذه الكلمة العظيمة - التي من أَجْلِها أُسِّست القبلة وأُوجدت الجنة والنار - ٱشتملت على أمرين؛ هما ركناها: النفي، والإثبات؛ فهذان ركناها.

ما تنفيه كلمة التوحيد

ومعناها: (لَا مَعْبُودَ) يعني نافياً أن يكون بحق، وإلا ما نفت أن تكون موجودة؛ فهي كثيرة ملء الأرض؛ بل المعنى: (حَقّ)، هذا خبرها (حَقّ)، وهو وصف لٱسم (لَا) وخبرٌ له أيضاً؛ فإن الألوهية التي بحَقٍّ هي للَّه، والتي بغير حق كثير، وليس نافياً جميع ما يُعبد من دون اللَّه؛ بل نافٍ أن تكون بحق، أما الوجود فموجودة.

معنى كلمة التوحيد مطابقة

ففيها: نفي الألوهية عن غير اللَّه، وإثباتُها للَّه وحده، وسيقت لتوحيد الألوهية مطابقة، لا كما يقوله بعض الجهلة إن

دلالة كلمة التوحيد على الربوبية بالتضمن

معناها: لا يخلق ولا يرزق إلا اللَّه، ولا يدبِّر الأمر إلا اللَّه؛ فإنها وإن دلَّت عليه بطريق التضمن؛ فهي موضوعة لتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد اللَّه بجميع أنواع العبادة.

. . . .

إقرار المشركين بتوحيد الربوبية

وتوحيد الربوبية أقر به المشركون - كأبي جهلٍ، وأضرابه -، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ الذي يفعل ذلك؛ ما نازعوا فيه ولا ٱمتنعوا ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشركَ به في عبادته.

معرفة المشركين لمعنى كلمة التوحيد

فإنهم يعرفون معناها، وأنها دلَّت على معنىً غير ذلك، ولهذا أنكروا أن يكون اللَّه هو المعبود وحده، وقالوا: شتم آلهتنا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾؛ بل يريدون أن يجعلوا بينهم وبين اللَّه وسائط وشركاء في العبادة؛ فإن نفوسهم وإحساسهم ٱمتزجت بالشرك ونشأت عليه وأَلِفَتْه، فصاروا كالمريض الذي فسد مزاجه، فإذا أُتي بالطعام الحلو قال: هذا مرٌّ، وليس بمرٍّ، ولكن الآفة من مزاجه الفاسد، بالنسبة إلى عقولهم الفاسدة، فكذلك الحق والنور المبين الذي جاء عن النبي ﷺ بالنسبة إلى مزاجاتهم.

والمقصود: أنهم عرفوا أن مدلولها أن يكون المعبود هو اللَّه وحده.

وبهذا تعرف: أن مدلول (لا إله إلا اللَّه) مطابقة؛ هو: إفراد اللَّه بالعبادة.

«لَا إِلَهَ» نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

ركنا كلمة التوحيد

وهي ٱشتملت على أمرين هما ركناها: النفي، والإثبات؛ فإن النفي المحض ليس بتوحيد، والإثبات المحض ليس بتوحيد، بل التوحيد مجموعهما؛ نفي الألوهية عمَّا سوى اللَّه، وإثبات العبادة للَّه وحده.

معنى كلمة التوحيد هو ركناها

فحينئذ معناها ما ذكره المصنف: **(لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ)**، وهي أركانها: النفي، والإثبات؛ فالأول النفي، والثاني الإثبات، الأول: نافياً جميع ما يُعبد من دون اللَّه، **(إِلَّا اللَّهُ)** مثبتاً العبادة للَّه وحده، لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه.

الركن الأول: نفي جميع ما يعبد من دون اللَّه

(لَا إِلَهَ) الإله: فِعَال، بمعنى مفعول، ككتاب بمعنى: مكتوب، وبساط بمعنى: مبسوط، مشتق من أله يأله إلَهة، عبد يعبد عبادة؛ لفظاً ومعنى.

(نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) يعني: لا مألوه بحق إلا اللَّه، يعني: وإلَهة غير اللَّه إنما هي بالباطل، وإلا فهي كثيرة طبق الأرض، ولكن بالباطل والضلال، وإنما المستحق للعبادة هو اللَّه وحده.

عبادة المشركين لآلهتهم مجرد ظن وٱتباع هوى

وآلهة المشركين التي يعبدونها من دون اللَّه إنما هي مجرد ظنٍّ منهم، وٱتباعٌ لهواهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ

«إِلَّا اللَّهُ» مُثْبِتاً العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَٱلْعُزَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

فـ (لا إله إلا اللَّه) ٱشتملت على أمرين؛ هما ركناها: النفي، والإثبات.

فـ (**لَا إِلَهَ**) نافياً وجودَ معبودٍ بحقٍّ سواه.

الركن الثاني: إثبات العبادة للَّه

(**«إِلَّا اللَّهُ» مُثْبِتاً العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ**).

وبهذا يُعرف: أن النفي وحده ليس توحيداً، وكذلك الإثبات بدون النفي؛ بل التوحيد مجموعهما.

الٱحتجاج بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية

(**لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ**) يعني: فكما أنه المتفرِّد في ملكه، فهو يدل على أن يُفرد بالعبادة؛ فإن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكاً في الملك شريكاً للَّه - تعالى اللَّه وتقدَّس -.

يعني: كما أنه تعالى المتفرِّد بالخلق والتصريف؛ فتعيَّن أن يكون هو المعبود وحده دون كل ما سواه.

. . . .

ولهذا يحتج تعالى على من أنكر ألوهيته بما أقر به من ربوبيته؛ فإن توحيد الربوبية هو الدليل على توحيد الألوهية، ولهذا قال: (**كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ**)، يعني: كما أنه تعالى هو المتفرِّد بالخلق، فكذلك يجب أن يكون هو المعبود، ولهذا كثيراً ما يحتج بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، وهذا الجنس في القرآن كثير؛ يحتج تعالى بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الألوهية.

خلاصة فوائد

عرفنا: الأصل الثاني من أصول الدين الثلاثة؛ (**مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ**).

الثانية: (**بِالأَدِلَّةِ**)؛ لينبِّه أنه لا بد من معرفة ذلك بدليل من الكتاب والسنة.

الثالثة: عرفناه مجملاً؛ بقول المصنف: (**هُوَ: الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**).

. . . .

الرابعة: معنى الٱستسلام: الخضوع والٱنقياد له بطاعته وحده لا شريك له.

الخامسة: عرفنا أن هذا الدين الذي فُرض علينا أن ندين للَّه به وخُلقنا من أجله؛ هو ثلاث مراتب، والمراتب معناها معنى الدرجات.

هو ثلاث درجات، وكل واحدة منها أخص من الأخرى؛ الإسلام، والإيمان، والإحسان.

أخصها: الإحسان، ثم بعدها: الإيمان، والإسلام هو أوسع المراتب.

التمثيل لمراتب الدين بثلاث دوائر

ويُمثَّل لذلك بثلاث دوائر؛ دائرة خاصة صغيرة، الداخلية للدوائر هذه مرتبة الإحسان، ثم التي تليها مرتبة الإيمان، ثم الثالثة هي الإسلام، فمن كان في مرتبة الإحسان فهو في الإيمان والإسلام، ومن خرج من الصغرى صار في مرتبة الإيمان.

ومن أخلَّ ببعض واجبات إيمانه فإنه في دائرة الإسلام، ولا بد معه إيمان يُصحِّح إسلامه، وإلا كان كافراً أو منافقاً.

وهذا معنى قول بعض العلماء: كل محسنٍ مؤمنٌ مسلمٌ، ولا ينعكس؛ لأنَّ أُناساً نفى اللَّه عنهم الإيمان لمَّا أخلوا بواجبات إيمانهم.

. . . .

وكذلك من قَصُر عن الإحسان فإنه لا يكون محسناً.

السادسة: عرفنا أن بعضها أخصُّ من بعض.

ومما عرفنا: التمثيل لذلك بالدوائر - كما مثَّل لذلك بعض أهل العلم -؛ وهو معنى: كلُّ محسنٍ مؤمنٌ مسلمٌ، وليس كل مسلمٍ محسناً مؤمناً[1].

وعرفنا: أن مرتبة الإسلام لها أركان، وركن الشيء: جانبه الأقوى[2].

فعرفنا: الركن الأول والثاني والثالث والرابع والخامس[3].

كل واحد منها عليه دليل، وبعضها أدلة كثيرة جدّاً، وبعضها له أدلة كثيرة ولو لم يكن جدّاً، والمصنف ٱقتصر على دليلين بتدليله[4].

الحادية عشرة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ عرفنا معنى هذه الكلمة، ولها ركنان: النفي والإثبات، فالنفي المحض ليس بتوحيد، لو قال إنسان: (لا إله) ليس بشيء، لو

---

(١) وهذه السابعة.

(٢) وهذه الثامنة.

(٣) وهذه التاسعة.

(٤) وهذه العاشرة.

. . . .

يقول: (إلا اللَّه) فليس بموحد؛ بل التوحيد في مجموع الأمرين: نفي الإلهيَّة عمَّا سوى اللَّه، وإثباتها للَّه وحده، هذا هو التوحيد.

(لَا إِلَهَ) هذا نفي، (إِلَّا اللَّهُ) هذا الإثبات.

وَتفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۞﴾ . . . .

دليل تفسير كلمة التوحيد

(وَتَفْسِيرُهَا) يعني: الكلمتين **(الَّذِي يُوَضِّحُهَا)** يعني: الدليل على تفسيرها من القرآن وما يوضح ذلك **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾)**، يعني: هذه الكلمة، ولذا قال: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ ومن المعلوم عند العلماء جميعاً: أنها (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فكان معبَّراً عنها بـ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فإنه لا يعبَّر عن الشيء إلا بالمراد منه؛ فيتعيَّن أن يكون اللَّه هو المستحق للعبادة وحده، فإن هذه الكلمة هي براء وولاء، فالبراء التجريد في (لَا إِلَهَ)، والولاء والتفريد في (إِلَّا اللَّه)؛ فهي تفريد وتجريد، ونفي وإثبات، وولاء وبراء.

كلمة التوحيد براء وولاء

(﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾) هذا فيه معنى (لَا إِلَه).

«لا» عند النحاة: هي لام التبرئة؛ فمعنى (لَا إِلَه) التبري من كلِّ ما يُعبد سوى اللَّه تعالى.

(﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) فيه معنى (إِلَّا اللَّهُ)، **(﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾)**.

جملة ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: هو معنى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) سواء بسواء؛ فإنها كما سبق لك أن لها ركنين، فمعناهما واحد، وهو: البراءة من عبادة غير اللَّه، ولهذا

معنى كلمة التوحيد

وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، . . . .

(لَا) النافية للجنس يقال لها عند النحاة: لام التبرئة؛ فَتَبَرَّأ من آلهتهم سوى اللَّه، ولم يَتَبَرَّأ من عبادة اللَّه؛ بل ٱستثنى من المعبودِين ربَّه، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يعني: ٱبتدَأَ خَلْقي، عائد على ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وتُقيِّدها.

(﴿وَ﴾) أنه (﴿جَعَلَهَا﴾) أي: تركها إبراهيم (﴿كَلِمَةً﴾) يعني كلمة ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

لا يزال في ذرية إبراهيم من يدين بالتوحيد

(﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾) تقدير الكلام: جعل إبراهيم كلمة (لا إله إلا اللَّه) باقية في عقبه، يدين بها من لا يشرك باللَّه شيئاً.

المعنى: أنه لا يزال في ذريته من يدين بها.

الكلمة التي تركها إبراهيم في عقبه هي التوحيد بٱتفاق المفسرين

ومن المعلوم عند جميع المفسرين: أن الكلمة هي (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ إذ لا يعبر عن الشيء إلا بمعناه، فدلَّ ذلك أنه هو معناها، وإلا يكون تفسيرها خطأ.

فبهذا عرفت (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وأن معناها: النفي والإثبات، والولاء والبراء، وإن شئت قلت: التجريد والتفريد.

معنى كلمة التوحيد

وكل هذه التفاسير ترجع إلى معنى واحد؛ وهو: تجريد غير اللَّه عن الألوهية، وتجريدها للَّه وحده دون كلّ من سواه، والبراء من تألُّهِ غيرِ اللَّه بالكليَّة.

فدلَّ على أن هذا تفسيرها بلا ريب، وكذلك الآية الأخرى.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ ....

دليل آخر على تفسير كلمة التوحيد

(وَ) دليل تفسيرها الثاني: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾) أمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: (﴿تَعَالَوْاْ﴾) يعني: هلمُّوا وأقبلوا (﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾) يعني: إلى كلمة واحدة لا أكثر؛ وهي لا إله إلا اللَّه، واحدة لا غيرها.

(﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾) سواء في فرضيتها ووجوبها علينا وعليكم، يعني: نحن وأنتم سواءٌ في وجوبها وتحتمها على الجميع؛ فإنه لا كلمة واجبة تفرض على الجميع إلا (لا إله إلا اللَّه).

الكلمة التي يُدعى إليها جميع الخلق

ومن المعلوم أنها الكلمة التي يُدعى إليها جميع الناس؛ فلا فيه سوى هذه الكلمة عند الاستقراء والتتبع؛ لا إله إلا اللَّه.

ومن المعلوم أنَّه لا كلمة يدعو إليها النبي ﷺ إلا هذه الكلمة؛ لا إله إلا اللَّه، فلما قال لقريش: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ تُفْلِحُوا»[1]، وقال لهم: «أَقُولُ لَكُمْ كَلِمَةً تَمْلِكُونَ بِهَا العَجَمَ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا العَرَبُ، فَقَالَ عَمُّهُ: مَا هِيَ؟ وَأَبِيكَ لَنُعْطِيَنَّهَا وَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، قَالَ: تَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم (١٦٠٢٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٢٣)، وبنحوه أخرجه أحمد في المسند، رقم (٣٤١٩)، والترمذي في السنن، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿صٓ﴾، رقم (٣٢٣٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ . . . .

وهذه الكلمة التي يُدعى إليها جميع الخلق.

فإذاً تقرر: أنه ليس هنا كلمة غيرها.

تفسير كلمة التوحيد

ثم فسَّر تلك الكلمة بقوله: (﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾) هذا فيه معنى: (لا إله)، (﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾)؛ هذا هو الركن الثاني.

فدل على أن معناها: لا معبود بحق إلا اللَّه؛ فهي نفيٌ للألوهية التي بحق عن غير اللَّه، ليس نفياً للوجود؛ بل أكثر الموجود في عبادة غير اللَّه، ومنهم من لا يألَه اللَّه أصلاً، ومنهم من يألَه اللَّه ومعه غيره.

المعنى: أن الذين يُعبدون في الوجود ليس حقّاً، لهذا فهو أحقُّ شيء بوجوده، هو وحده خالقهم ورازقهم وموجدهم، وهذا هو معنى هذه الكلمة العظيمة، ولهذا تفسيرها في هذه الآية: (﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾).

ماذا يفعل من دعا إلى التوحيد إذا ٱمتنع المدعوون عن ذلك؟

(﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾) أي: أدبروا عما تدعوهم إليه من التوحيد، وٱمتنعوا وأعرضوا عن ذلك، ولم يجيبوك إلى هذه الكلمة.

(﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟﴾) يعني: صرِّحوا لهم ذلك بالمشافهة، وهذا دالٌّ على أن الكفار لا بد أن يُبيَّن لهم ويعلموا ويتحققوا

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أنهم ليسوا على دين، وأن دينك خلاف دينهم الذي هم عليه، وأن دينهم خلاف دينك.

(﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾) يعني: وأنتم كفار، ونحن براء منكم وأنتم بُرآء منا؛ يعني: فاصِلُوهم بذلك.

خلاصة فوائد

فعرفنا: معنى (لا إله إلا اللَّه) وشهادة ألا إله إلا اللَّه؛ وأنها عبادة اللَّه وحده، والبراءة مما سواه.

وهذا معنى ممَّا قدمه لك المصنف: أن معنى (لا إله إلا اللَّه): لا معبود حقٌّ إلا اللَّه، وأنها نفي وإثبات، (لا إله): نافياً جميع ما يُعبد من دون اللَّه، (إلا اللَّه): مثبتاً العبادة للَّه وحده.

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ . . . .

دليل شهادة أن محمداً رسول الله

(وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾)، وهذا ذكره اللَّه على سبيل الأمتنان على المؤمنين بهذه الصفات الأربع - أو الخصال -؛ كما في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية.

أربع خصال في النبي ﷺ أمتن الله بها علينا

وكونه من أنفُسِها، كونه معروف الأمانة والمدخل والمخرج والصدق؛ فإنه كان يُدعى قبل البعثة بالأمين، كونه بشراً ليس بملَك نِعْمَة؛ الملَك لا يتمكَّن الناس من سؤالهم إياه في مهمَّات دينهم، وكونه معروف النسب والأمانة والصدق والمدخل والمخرج؛ نعمة عظيمة.

قراءتان في ﴿أَنفُسِكُمْ﴾

وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فيها قراءتان:

أحدها: الضم[1]؛ فعلى قراءة الضم: أنه ليس بملَك لا نتمكَّن أن نسأله؛ بل بشر نتمكَّن أن نسأله عما نشاء من أمور ديننا ودنيانا.

والقراءة الثانية: بالفتح؛ يعني: أنه من أنفَسِنا وأكرمنا وأشرفنا، وأيضاً: كونه معروف النسب والمدخل والمخرج، أميناً صدوقاً؛ حتى إنه يُسمَّى قبل مبعثه الأمين، فمن كان كذلك؛ فإن

(١) أي: ضم الفاء.

﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

النعمة به على العباد تكون أكبر وأعظم من نعمة من لم يكن كذلك.

(﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾) نعمة أخرى؛ شاق عليه ما أعنت أمَّته، يعني: شديد عليه الأمر الذي يُعْنِت أمته، ويدخلها في الآصار والأغلال من الأعمال.

معنى ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾

(﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾) هذه نعمة أخرى، ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ يعني: على هدايتكم وإنقاذكم من النار، حتى قال ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَه عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»[(١)]، وقال: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ»[(٢)]، وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «مَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَطَائِرٌ يُحَرِّكُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْماً»[(٣)].

(﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾) وأمتِه، (﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) ورحمته مختصة بالمؤمنين؛ واختصاصها بالمؤمنين نعمة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء؛ الأول فالأول، رقم (١٨٤٤) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما، ولفظه: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ ...».

(٢) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب اتباع سنة رسول اللَّه ﷺ، رقم (٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، رقم (٢١٣٦١)، ولفظه: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْماً».

. . . .

يعني: رأفته ورحمته مختصة بأهل الإيمان، كما أن غلظته وشدته على الكافرين؛ غلظته وشدته مختصة بأهل الكفر.

فيها: أنه بهذه الصفة نعمة.

المقصود: أنَّها تُحقِّق دليلاً على ذلك - وإلا فأدلته كثير - من أَبْينها وأشهرها وأتمِّها معنىً على ذلك؛ لٱشتمالها على شيء من صفات الرسول وعظيم بعثته.

نِعَمٌ في الرسول ﷺ

فمن شأن الرسول:

أولاً: مجرد بعثته هذه نعمةٌ كبرى، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ فمجرد بعثتهم نعمة كبيرة.

وكونه من أنفسنا، وكونه بشراً ليس بمَلَك.

وكونه معروف النسب؛ فإنه أوسط وأعدل قريش نسباً، فهو ﷺ خيار من خيار من خيار.

وكونه معروف الأمانة.

وكان معروفاً بالصدق، ولهذا في قصة هرقل لما سأل أبا سفيان - وكان أبو سفيان عدوَّ محمد ﷺ - قال: «فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، حديث رقم (٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣)، من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما.

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وٱجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ،

معروف المدخل والمخرج.

وكونه شاقاً عليه الذي يُدخل أمَّتَه في الحرج، ولهذا تردُّدُه بين موسى عليه السلام ورب العزة؛ ليكون التخفيف من الصلوات - يعني: من عدد المفروضات -.

معنى شهادة أن محمداً رسول الله

(وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ) ثم تفسير هذه الكلمة بمضامينَ وأركانٍ تأتي بعد ذلك، ليس نطقاً باللسان فقط؛ بل الكلام عربي صرف، لكن معناها: **(طَاعَتُهُ)** طاعة الرسول **(فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَٱجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ)**؛ يعني: فكما أنه لا بد أن ينطق بها، فلا بد أن يعمل بما دلَّت عليه،

النطق بالشهادتين وحده لا يكفي

فقولها باللسان دون العمل بما دلَّت عليه؛ لا يصير من أهل شهادة أن محمداً رسول اللَّه، كما أنه إذا قال: (لا إله إلا اللَّه) ولم يعمل بما دلَّت عليه؛ لم يكن من أهل شهادة ألا إله إلا اللَّه على الحقيقة، ليس هي نُطْقٌ باللسان فقط؛ بل لا بد مع النطق بها من معرفة مدلولها وٱعتقادها بالجنان والعمل بالأركان، فكذلك معرفة أن محمداً رسول اللَّه لا بد من معرفة ذلك وٱعتقاده، والعمل بذلك بٱقتفاء ما جاء به الرسول؛ فعلاً للمأمورات، وتركاً للمحذورات، ولهذا قال المصنف: **(طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَٱجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ)**.

وأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

الاتّباع للرسول ﷺ

(وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ) بما شرعه الرسول ﷺ أن نعبده به؛ لا يُعبد اللَّه بالبدع، فلا يُعبد اللَّه إلا بمقتضى ما بيَّن لنا الرسول أن نعبد اللَّه به يقيناً وتبعيَّة وبهذه الصفة من جميع النواحي؛ من لم يطعه فيما أَمر فإنه ما شهد، ومن لم يجتنب ما نهى عنه فإنه لم يشهد، ومن عبده بما تشتهيه نفسه فإنه لا يكون شاهداً؛ لا بدَّ أن يأتمر بالأوامر، وينزجر عن الزواجر، وطاعة اللَّه على مقتضى ما جاء به الرسول ﷺ.

(بِمَا شَرَعَ) فقط، لا يُعبد بالأهواء والبدع.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد

(**وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ**) تقدم لنا دليل الشهادتين، ومعنى كلٍّ منها، وذكر المصنف في هذه الأسطر أدلة بقية أركان الإسلام.

أما الصلاة والزكاة ودليلهما، ودليل شيء آخر وهو تفسير التوحيد؛ فـ (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾**) ما أُمروا إلا بذلك، والأمر للوجوب؛ بل في الآية حصر أنهم ما أُمروا إلا بذلك.

(﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) هذا هو تفسير التوحيد؛ عبادة اللَّه بالإخلاص.

(﴿حُنَفَآءَ﴾) الحنيفية - ملة إبراهيم -، وهي: عبادة اللَّه بالإخلاص.

والحنيف: المُقْبِل على اللَّه، المُعْرِض عن كلِّ ما سواه.

وقيل في معنى الحنيف: إنه المائل عن الشرك قصداً.

(﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾) هذا هو دليل الصلاة.

(﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾) هذا دليل الزكاة.

(﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾) يعني: الملة القيمة؛ يعني: المستقيمة، فجعل ما ذكر هنا هو الملة القيمة.

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

دليل الصيام

(وَدَلِيلُ الصِّيَامِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾) الكتابة هنا: كتابة شرعية دينية؛ فإن الكتابة تُطلق ويُراد بها: الشرعية الدينية كما في هذه، وتُطلق ويُراد بها: الكونية، كما في آية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾.

أنواع الكتابة

﴿كُتِبَ﴾ هذه كتابة شرعية دينية فرضية، يعني: فُرض (﴿عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾) صيام شهر رمضان، بدليل آيات غير ذلك، فلا يجب وجوباً عمومياً من جهة الشرع إلا صوم رمضان، أو قضاؤه، أو ما يوجبه الإنسان عليه بالنذر.

الصوم الواجب

(﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾) هذا بيان شيء من منفعته؛ الأول: أنه تقوى، وأيضاً: هو سبب لتوقِّي فتن غيره، ولهذا في الحديث: «فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[1]، وفي الحديث: «وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ»[2]، فإنه وقاية من الآثام في الدنيا، وهو وقاية من النار في الآخرة.

من منافع الصوم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب: الصوم لمن خاف على نفسه العزبة، رقم (١٩٠٥)، ومسلم، كتاب النكاح، باب ٱستحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، وٱشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم (١٤٠٠)، من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: «مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول اللَّه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن =

وَدَلِيلُ الحَجِّ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

دليل الحج

(وَدَلِيلُ الحَجِّ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾) يعني: واجبٌ وفرضٌ للَّه على الناس (﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾) على المستطيع من الناس أن يحج البيت، والوجوب في العمر مرة، ولهذا لما قيل له: «أَكُلَّ عَامٍ؟ قَالَ: الحَجُّ مَرَّةً، فَمَا زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»، أو كما في الحديث[1].

الاستطاعة في الحج

أما الذي لا يستطيع لأجل بدنه أو ماله: فالذي لا يستطيع ببدنه، يجب في ماله ويُحج عنه، أما الذي لم يستطع للمال ولا مرَّ عليه غنى يؤهِّله للحج؛ فهذا لا يجب عليه أبداً.

حكم تارك الصوم والحج

(﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) سمَّى تعالى تارك الحج كافراً؛ فدلَّ على كفره.

الذي ما يصوم ما هو بكافر إذا أقر بالوجوب، وكذلك الحج إذا لم يجحد، وإن جحد - ولو فعل -؛ فهو كفر.

= ﴿يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، رقم (٧٤٩٢)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) ما ذكره سماحة الشيخ هو نص الحديث عند الدارمي، رقم (١٨٢٩)، وأخرجه أحمد في المسند بنحوه، رقم (٢٣٠٤)، من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما.

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ؛ ....

المرتبة الثانية من مراتب الدين: الإيمان

(المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ) وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب الدِّين؛ **(الإِيمَانُ)** تقدم لنا الأصل الثاني من أصول الدِّين الثلاثة، وهو: معرفة دين الإسلام بأدلته وحقيقته، وعرفنا - فيما سبق - أنه ثلاث مراتب، وأن كل واحدة لها أركان.

فالأُولى: مرتبة الإسلام - تقدمت المرتبة الأُولى وهي الإسلام -؛ فإنه تقدم لنا مرتبة الإسلام، عرفنا أنها أوسع المراتب - الكُرَات[1] -، وعرفنا أن أركانه خمسة، ودليل كلٍّ منها.

منزلة المرتبة الثانية من الأولى

والمصنف ذكر الثانية؛ وهي مرتبة الإيمان، وهي أخص من التي قبلها؛ فهي أخص، وأهلها هم من خواص أهل الإسلام وأفاضلهم.

وكلٌّ من أسماء الدين؛ الإسلام والإيمان، وكلٌّ مرتبةٌ من مراتبه.

فالإيمان هو المرتبة الثانية من مراتب الدين.

معنى الإيمان، والفرق بينه وبين الإسلام

والإيمان إذا عُدِّي باللام فهو التصديق فقط، وإذا عُدِّي بالباء فهو مضموم إليه شيء آخر والتصديق موجود فيه، والإيمان

---

(١) أي: الدوائر.

. . . .

ٱشتقاقه من الأمن والٱئتمان؛ فهذه في الإيمان أتم إطلاقاً على عمل الباطن - أعمال القلب -، والإسلام أتم إطلاقاً على الأعمال الظاهرة؛ فإن الإسلام هو الٱستسلام للَّه بالتوحيد، والٱنقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، والإيمان هو: أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

الإسلام والإيمان وصفان للدين

والكل ٱسم للدِّين، فهو له وصفان: الإسلام، والإيمان؛ فبٱعتبار الدين كونُ له أشياء في الظاهر، والٱنقيادُ هو فيه باطن.

المقصود: أنه من أَجْل الثاني - من أجل أنه لا بد فيه من هذا الثاني، وهو الٱنقياد في الباطن - سُمِّي إيماناً، وأصله في القلب، وعمل الجوارح تصديق لما في القلب.

فأَفْرُعُ الأعمال الشرعية من الإسلام والإيمان، لكن إطلاق الإسلام على ما يظهر أَظْهَر، وإطلاق الإيمان على ما يخفى أَظْهَر.

ولذا أركان الإسلام من الظاهر - الشهادتان، الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج - وإن كان يُفعل خُفْية، لكن الغالب أنه يُعْرف.

. . . .

أما الإيمان فأركانه ستة - والأصل فيها الخفاء -: أن تؤمن باللَّه - أن تؤمن بخلقه، وأسمائه، وصفاته، وتؤمن أيضاً بألوهيته - وتؤمن بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

أيهما أعم الإسلام أم الإيمان؟

وهذه المرتبة أعم من مرتبة الإسلام من جهة نفسها، وأخص من جهة أصحابها، وأهله هم خواص أهل الإسلام، وأهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان؛ بخلاف العكس، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، فإن من حَكَمت له النصوص أنه مؤمن؛ فإنه مسلم على كل حال.

الفرق بين الإيمان والإسلام من جهة اللفظ

فإن الإيمان وصفٌ أعلى من وصف الإسلام؛ لأنه مشتق من الأمن والأئتمان، من الأمور الباطنة الذي يؤتمن عليه ويكون خُفية.

والإسلام من الأمور المدركَة المحسوسة في الظاهر، وهو مشتق من: التسليم للمَنيَّة، وٱستسلم فلان للقتل: أسلم نفسه، وٱنقاد، وذلَّ، وخضع، وٱستسلم للَّه بالتوحيد: ٱنقاد وذلَّ وخضع للَّه بجميع المأمورات، وترك جميع المناهي، ولم ينازع في ذلك.

أو من المُسَالمة، وهي: ترك المنازعة.

. . . .

كل مؤمن مسلم وكل مسلم لا بد له من إيمان يصحح إسلامه

فإذا أُطلق الإيمان في النصوص دخل فيه الإسلام، وإذا أُطلق الإسلام لم يدخل فيه الإيمان، ومن أُثبت له الإيمان في النصوص فإنه ثابت له الإسلام، والمسلم لا بد أن يكون معه إيمان يصحح إسلامه، وإلا يكون منافقاً، ولكن لا يستحق أن يُمدح به ويُثنى عليه، بل إيمانه ناقص - ويأتي تمثيل بعض العلماء بعد المرتبة الثالثة[١] -.

معنى الإيمان عند أهل السنة

والإيمان الشرعي: «قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح».

وعند أهل السنة: «أنه يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية».

فدخل فيه: جميع المأمورات، سواء كان من الواجبات، أو المستحبات؛ ودخل فيه أيضاً: ترك جميع المنهيات، سواء كان ذلك المنهي ينافي أصول الدين بالكلية أو لا؛ فإن تعريفه المذكور يشمل ذلك، فما من خصلة من خصال الطاعات إلا وهي من الإيمان، ولا تَرْك محرم من المحرمات إلا وهي من الإيمان.

---

(١) في (ص ٢١٢ - ٢١٣).

وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، ....

معنى البِضْع

(وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ) البِضْع: من ثلاثة إلى تسعة، أو من الثلاث إلى السبع؛ يعني: ثلاث وسبعون، أو أربع وسبعون، أو خمس وسبعون، أو ست وسبعون، أو سبع وسبعون.

معنى الشعبة

(شُعْبَةً) خَصلة.

الشعبة: يدخل تحتها أنواع وأفراد من الخصال؛ فهي من حيث هذا العدد يكون تحتها أفراد من الخصال.

دليل الشُّعَب

وهذه الشُّعَب كونُ هذا عددها ومبلغها؛ لأجل حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»[1] - هذا الذي ذكره هنا متن حديث -.

ثم شُعَب الإيمان ألَّف مَن ألَّف في شعبها وتعدادها؛ من جملتهم: البيهقي وغيره، ثم بعض تلك المؤلفات لها شرح.

حكم من فَقَد شعبة من شُعَب الإيمان

وقول المصنف: الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ يعني: خصلة، وهذه البضع والسبعون منها ما فَقْدُه مزيل للإيمان كلِّه، ولا يسع الإنسان إيمانٌ مع فقده؛ كشعبة الشهادتين، والشعب التي تليها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩)، بلفظ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً»، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (٣٥)، بلفظ: «بِضْعٌ وَسَبْعُونَ»، وبالشك: «بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ».

. . . .

ومنها شُعَبٌ يزول بفقده كمال الإيمان الواجب، لا أصله.

ومنها شُعَبٌ يزول بفقده كمال الإيمان المندوب؛ مثل: إماطة الأذى عن الطريق.

كل خصال الدين من شُعَب الإيمان

فكلٌّ شعبة من الشعب من الإيمان، فدخل في ذلك كلُّ خصلة من الدين داخلة في الإيمان؛ فإن الإيمان هو: «قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح»؛ هذا تعريفه وحَدُّه عند أهل السنة والجماعة.

تفسير حد الإيمان عند أهل السنة

وقول القلب: تصديقه.

وعمله: ٱنقياده بمقتضى ما صدَّق به.

فتصديق القلب هذا، وعمله بذلك - من خشية اللَّه، ومحبته، ونحو ذلك - هذه أعمال القلب.

وأما قول القلب: التصديق.

وعمل القلب هو: الٱنقياد بالأعمال القلبية - من الخشية، والمحبة الخاصة، ونحو ذلك -.

أما عمل الجوارح فهو: الٱنقياد بظاهر البدن - الأعمال له - من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

زيادة الإيمان ونقصانه

ثم هو يزيد، وينقص - يزيد بفعل الطاعات، وينقص بفعل المعاصي -، ويتجزأ.

فَأَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

شُعَب الإيمان تنقسم إلى ثلاثة أقسام من حيث فقدها

ثم هو ثلاثة أقسام:

قسم يزول بفقده الإيمان - كشعبة الشهادة وما يليها -.

وقسم يزول كماله المستحب - كشعبة إماطة الطريق وما يليها -.

وبعضه بين هذا وهذا.

مراتب شُعب الإيمان

(فَأَعْلَاهَا) أعلى شعب الإيمان: **(قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** كلمةُ الإخلاص والتوحيد، التي هي أساس الملة.

(وَأَدْنَاهَا) أصغرها **(إِمَاطَةُ)** يعني: إزالة **(الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)** من حجر وشوك وقذر، ونحو ذلك مما يؤذي المارَّ به.

وبين الطرفين شعب.

منها: ما هو إلى قول: (لا إله إلا اللَّه) أقرب.

ومنها: ما هو إلى إماطة الأذى أقرب.

حكم شُعَب الإيمان

ومنها: ما هو من أركان وواجبات الدين.

ومنها: ما هو من مندوباته - كإماطة الأذى عن الطريق -.

وكثير منها فروض.

تعريف الحياء

(وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) الحياء خصلة من خصال الإيمان، والحياء: خُلُق باطن يكون في قلبه، يحمل على فعل

. . . .

كلٍّ ما يجمل ويزين، ويمنع من ٱرتكاب ما يدنس ويشين، وهو شعبة من الإيمان.

خلاصة فوائد

وهذا عرفتَ أنه متن حديث، وهو واضح لقول أهل السنة: أنه يزيد وينقص - هذا الحديث وأمثاله منطبق على ذلك - لو أنه مجرد التصديق لما كانت هذه الأعمال فيه؛ بل هو داخل فيه كل خصلة من خصال الدين - كما تقدم: أن كل خصلة من خصال الدين تُسمَّى إسلاماً ... إلخ -.

مدلول حديث الشُعَب

الفرق بين الإسلام والإيمان

وعرفنا: أن وصف الإيمان أخص بما من شأنه الأٓئتمان والخفاء، وما كان من نوع الإذعان وظاهراً؛ فهو إلى الإسلام أقرب.

الإسلام أوسع من الإيمان

وقد يُنفى عن الشخص الإيمان ولا يُنفى عنه الإسلام؛ فالإسلام أوسع.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، .....

خصائص أركان الإيمان

(وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ) التي أُصِّل وتركَّب منها، والتي يزول بزوالها، ويكون بزوال واحد منها كافراً كفراً يُخرج من الملة، وما عداها لا يزول بزواله؛ فمنها: ما يزول بزواله كمال الإيمان الواجب، ومنها: ما يزول بزواله كمال المندوب.

أساس الأركان الستة

وهذه الستة أساسها جميعاً هو الإيمان باللَّه، كما أن أساس الإسلام شهادة ألا إله إلا اللَّه؛ فهذه أصلها الذي ينبني عليه هو: الإيمان باللَّه؛ أن تؤمن باللَّه في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وٱستحقاقه للعبادة، وتنزّهه عما لا يليق بجلال اللَّه وعظمته.

أصل الأصول ومعناه

(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ) وهذا الركن هو أعظمها، وهو أصل الأصول، ومعناه: الإيمان بوحدانيته، وتفرده بأسمائه وصفاته، والإيمان بأنه الإله الحق، وأن من عُبد من دونه فعبادته من أبطل الباطل، وأضل الضلال.

الإيمان بالملائكة إجمالاً وتفصيلاً

(وَمَلَائِكَتِهِ) كلِّهم، المذكورين في القرآن، والمذكورين في الأحاديث الصحيحة.

يعني: بجميع ملائكته، وهم الجنس المعروفون من الخلق بتعريف النصوص.

الإيمان بجميع ملائكة اللَّه: إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً في التفصيل، إيمانك بالملائكة عموماً، وإيمانك بجبريل وميكائيل ... إلخ.

وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، ....

تؤمن بهم إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي؛ تؤمن بهم إجمالاً، وتؤمن بكل فردٍ فردٍ سمعته في النصوص، مثل ما ورد في الكتاب العزيز وفي السنة المطهرة؛ كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ونحوهم.

الإيمان بالكتب إجمالاً وتفصيلاً

(وَكُتُبِهِ) الإيمان بكتب اللَّه المنزلة على الأنبياء من السماء؛ تؤمن بها إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً في التفصيل، ويفصَّل: الإيمان بالقرآن، والزبور، والإنجيل ... إلى آخر الكتب المُنزلة.

فيجب عليك الإيمان بكتب اللَّه، ويجب عليك بالجملة، ومفصلاً - كالإيمان بالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور -؛ يجب أن تؤمن بها.

الإيمان بالرسل إجمالاً وتفصيلاً

(وَرُسُلِهِ) والإيمان بجميع رسل اللَّه، مَن سمعتَ بهم ومن لم تسمع، ومَن ذُكِرَ ومن لا يُذكر، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي؛ فالإيمان بهم تفصيلاً: من ذُكرت أسماؤهم في القرآن، فيؤمن بمن جاء تفصيلهم في الكتاب والسنة، فمن عرفت ٱسمه في القرآن أو في السنة الثابتة؛ وجب عليك الإيمانُ به - كإيمانك في التفصيل: بمحمد، بإبراهيم، بموسى، وعيسى، ونوح، وهود، ولوط، وشعيب، وصالح، وهكذا -.

. . . .

أعظم الإيمان بالرسل

وأعظم ذلك: الإيمان بنبينا محمد ﷺ.

ويؤمن بغيرهم من المسمَّين.

ومَن لم يُسَمَّ في النصوص يؤمن بهم إجمالاً.

س: ما ذُكر الإيمان بالرسول مع الإيمان باللَّه؟

الجواب عن عدم ذكر الإيمان بالرسول مع الإيمان باللَّه في أركان الإيمان

ج: هذا من الإيمان باللَّه، الإيمان الحقيقي لا بد أن يُؤمن برسوله، ويجيء في بعض الأحاديث ذكر شهادة ألا إله إلا اللَّه دون رسول اللَّه، لكن لعل ذكرها فيها يتعلق بالظواهر أكثر مما يُعتنى به في البواطن؛ وذلك أن لفظ الشهادتين قد جُعل عَلماً للدخول في الإسلام، فالفائدة في الدخول في الإسلام؛ الدخول فيه أحوج من أن يلفظ بها في أصول الإيمان.

أو: لأنه إذا ذُكر الإيمان دخل فيه الإيمان بالرسول.

أو: قول: ﴿**وَرُسُلِهِ**﴾؛ الإيمان بالرسل فيه وأفضله نبينا محمد ﷺ، هذا الإيمان بالرسل، هذا كافي؛ لأن المعنى: أن تؤمن بالرسول محمَّد ﷺ وجميع الرسل وباليوم الآخر، وآية النبيين أول من يدخل فيه محمد، وهذا ليس من الجواب الأول وإن كان فيه يصلح، إذا قيل: هذا من المؤمنين باللَّه؛ فهو مؤمن بالرسول، لكنْ عدُّه في هذا مهم، وأبين وأوضح.

وَالـيَـوْمِ الآخِـرِ، ....

س: هل في هذه الأركان شيء آكد من شيء بالتقديم؟

الإيمان بالرسل آكد من الإيمان بالملائكة

ج: اللَّه أعلم، ولعل الرسل أشد من مسألة الإيمان بالملائكة، ولأن المباشَرَات بالتصديق والتكذيب كما هو من الأُمِّيِّين[١]، إنما طوائف قليلة منهم الذين ينكرون وجود الملائكة، وكله من أمور الإيمان البيِّنة.

الإيمان باليوم الآخر

(وَاليَوْمِ الآخِرِ) والإيمان بجميع أحوال البعث والقيامة ونحوه، هذا الأصل الخامس من أصول وأركان الإيمان.

الإيمان بالبعث

والمراد به: بعث هذه الأجسام بعينها، ورَجْع هذه الروح إليها - شَعْرِها[٢] - في الحياة الأخروية، وفي بعض التعبير: (بالبعث بعد الموت)؛ لأن أهم أمور اليوم الآخر هو الإيمان بالبعث، والمشركون لما أنكروا البعث ٱستبعدوا أن تكون كما كانت، وكونهم لا يَعْدُون ما تقع عليهم أبصارهم، إنما عقولهم في أبصارهم، وليست كاملةً الكمالَ على الإطلاق؛ فبسبب ذلك ردوا الحق.

حقيقة الإيمان باليوم الآخر وأعظم ذلك

فحقيقة الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما يكون بعد الموت في البرزخ، والإيمان بعذاب القبر ونعيمه، ودخل فيه

---

(١) أي: أن الرسل باشرهم أقوامهم بالتصديق والتكذيب.

(٢) أي: حتى الشعر يرجع مع البدن، فغيره أولى.

. . . .

- وهو أَصْعَبُه وأعظَمُه - الإيمان ببعث هذه الأجساد وإعادتها كما كانت - عظامها، وأجسادها، وأعصابها - حتى يُثاب هذا الجسد والروح جميعاً على ما فعلا من طاعة اللَّه، أو يُعاقبا على المعاصي التي صدرت منهما جميعاً؛ فإن الطاعة والمعصية صدرت منهما جميعاً، فلا بد أن يُثابا على ما فعلا، أو يُعاقبا على ما تركا، يقيناً أن الذي أوجد هذا الجسد وٱنفرد بخلقه يبعثه حياً ويعيده كما كان.

ما ينكره الجاهلية

والجاهلية ينكرون أن تعود هذه الأجسام كما كانت، ﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وأمثالها في القرآن، ولهذا كل شبهة تجد ردها في القرآن بعدها.

رد تكذيب الجاهلية

الجاهلية لا يستبعدون وجود ما ليس موجوداً قبل - كالسحاب -، لكن من ضلالتهم وعمايتهم إنكارُهم ذلك، ألا ترى إلى (يسٓ) في قوله: ﴿وَضَرَبَ﴾ - ٱبن آدم - ﴿لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، ﴿قُلْ﴾ أمر اللَّه نبيَّه أن يقول: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

تقرير البعث بالنشأة الأولى

فإيجادها قبل أن لم تكن أصعب؛ ولهذا قال في الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وفي الحديث: «كَذَّبَنِي ٱبْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

. . . .

ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً»[(١)]، هي أنشأت نفسها؟! أنشأها الناس؟! فالذي أنشأها هو القادر على إعادتها.

تقرير البعث بالعلم

ثم قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ قرَّره بالعلم.

تقرير البعث بإخراج الضد من ضده

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ يُعْقَلُ ماءٌ والنار ضد ذلك؟!

وهذا الشجر رطب بارد، والنار حارة يابسة، والعرب يقولون: «في كلِّ شجر رطب نار، واَسْتَمْجَدَ المَرْخُ وَالعَفَار»[(٢)]، وهذا كان عادة العرب يفرضون[(٣)] عود المرخ، ثم يجيئون بعود آخر مذروباً[(٤)]، ويفركون هذا في هذا، ويستعينون على ذلك بأشياء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ﴾، رقم (٤٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال في تهذيب اللغة (٢/ ٢١٢) عن المَرْخ وَالعَفَار: «وهما شجرتان فيهمَا نَار لَيْسَ فِي غَيرهمَا من الشّجر، ويسوَّى من أغصانهما الزِنَاد فيُقْتدح بهَا، وَقد رأيتهما فِي البَادِيَة. وَالعَرَب تضرب المَثَل بهما فِي الشّرف العالي فَتَقول: (فِي كل الشّجر نَار، واَستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار)، اَستَمْجَد: اَستكثر».

(٣) الفرض: الحز في الشيء. يُنظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٨٨).

(٤) أي: محدد الرأس. يُنظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٣٠٦).

وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

تقرير البعث بالقدرة على ما هو أعظم

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ قادر على خلق مثل السموات والأرض، فالذي يقدر على ذلك، يقدر على إيجاد تلك العظام التي عملت الطاعات وتلذَّذ بالنعيم، أو تعاد بنفسه لتعاقب، أما جسد جديد ما عصى فيعذب؟ لا؛ بل هذا الجسد الذي ذاق لذة المعاصي، يذوق ألم العذاب بنفسه.

تقرير البعث بكمال العلم والقدرة

ثم قال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كمال قدرته وعلمه.

أهم أمور الإيمان باليوم الآخر

فالمقصود: أن الإيمان باليوم الآخر؛ المهمُّ منه هو: إيجاد هذا الجسد الذي عمل المعاصي - إعادته بنفسه -؛ ولهذا في بعض الروايات: «والبعث بعد الموت»[1]؛ لكونه هو أهمه.

الإيمان بالقدر

(وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ) الإيمان بجميع قدر اللَّه (خَيْرِهِ) الخير: ما يقدره اللَّه من خير دنيوي أو ديني، (وَشَرِّهِ).

معنى الإيمان بالقدر

والإيمان بجميع قضاء اللَّه وقدره خيره وشره: الإيمان بالعلم، وقدرته عليها، وبأنه شاءه في الوجود، وبأن جميع ما في الوجود بمشيئة اللَّه، وتكوينه.

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم (١٨٤)، من حديث ٱبن عمر رضي الله عنهما.

. . . .

الإيمان بالقدر يتضمن أربعة أشياء

والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربعة أشياء:

الأول: الإيمان بعلم اللَّه القديم؛ فإن الرب تعالى علم - بعلمه القديم - بما هو كائن.

الثاني: الإيمان بالكتابة السابقة؛ بأن اللَّه كتب ما عَلِم أنه كائن من العباد، وفي الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

الثالث: الإيمان بأنَّ اللَّه شاء ما في الوجود وأراده، وبأن ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئته تعالى.

الرابع: الإيمان بأنَّ اللَّه خلق ما في الوجود، وأنه تعالى أوجد جميع الخلق، وأن ما في الكون بتقدير اللَّه وإيجاده.

حقيقة الإيمان بالقدر

فالإيمان بالقدر حقيقته الإيمان بأربعة أشياء: الإيمان بعلم اللَّه القديم لما هو كائن، والإيمان بالكتابة السابقة، والإيمان بأن اللَّه شاء جميع ما في الوجود - ما وُجِد، وما سيُوجد - وأراده، والإيمان بأنَّ اللَّه خلق ما في الكون - ما كان، وما سيكون -.

فلا يصير مؤمناً بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء.

فهو: الإيمان بعلم التقدير، والكتابة؛ وأنه شاء جميع ما وُجد وما سيوجد، والإيمان بأنَّ اللَّه خلق ما في الكون - ما كان، وما سيكون -، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾.

دليل الأركان الخمسة الأولى

(**وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ**) والدليل على ذلك آيات عديدة، من ذلك: (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾**).

معنى البِرِّ

البِرُّ: كلمة جامعة معنى الدِّين.

المراد بالنفي في الآية

المعنى: ليس الدين أن تولي وجهك جهة المشرق والمغرب، ولكن الدِّين من آمن، فهنا نفي الأولويَّة بالتسمية، وليس نفي الدين عن ٱستقبال المشرق والمغرب، نفي الأولويَّة بالتسمية مثل حديث: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ»[1]، و«لَيْسَ المِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ»[2] ... إلخ.

الدين الحقيقي

المعنى: أن الدين الحقيقي هو الإيمان بهذه المذكورات، وهو أولى من تسمية ذاك بالدين، وإلا فٱستقبال القبلة أحد شروط

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٦١١٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، رقم (٢٦٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول اللَّه تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، رقم (١٤٧٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له فيتصدق عليه، رقم (١٠٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَدَلِيلُ القَدَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾.

الصلاة؛ فإنهن أولى بٱسم الدين، والقيام بالدين الذي بعث به محمد ﷺ، وهي فرد من بعض أجناسه وأنواعه ولكن ... إلخ.

مدلول آية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾

فهذه الآية الكريمة دليل خمسة أصول من أصول الإيمان، والسادس ليس فيه دليل عليه، ودليله آيات أُخر؛ منه آية: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، ومن أشملهن آية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

دليل الركن السادس

(وَدَلِيلُ القَدَرِ) أما دليل السادس - وهو القدر -؛ فـ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾)** يعني: إنا خلقنا كل شيء بقدر، وآيات أخرى، وهي قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على القدر.

خلاصة فوائد

فعرفنا: هذه المرتبة.

وعرفنا: أنها أخص.

وعرفنا: تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

وأما أركانه: فهي ستة عرفتموها.

وأدلته عرفتموها.

والبِضْع: من الثلاثة إلى السبعة أو نحو هذا.

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ - رُكْنٌ وَاحِدٌ -، . . . .

المرتبة الثالثة: الإحسان

(المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ) من مراتب الدين الثلاث: مرتبة (الإِحْسَانُ).

معنى الإحسان

الإحسان: هو الإخلاص، وهو: إيقاع العمل على أحسن وجوهه في الظاهر والباطن، بحيث يكون قائماً به في الباطن والظاهر على أكمل ما يكون، فهذا هو الإحسان، ولهذا يُفسَّر بالإخلاص، وٱشتقاقه من الحُسْن؛ نهاية الإخلاص الناشئ عن حقيقة الٱستحضار؛ ومن حيث الظاهر: كمال المتابعة.

علاقة الإخلاص بالإحسان

وتفسير من فسَّره بالإخلاص تفسير له بنتيجته وثمرته؛ فإن من ٱتصف بذلك فإنه يكمِّل العمل في الظاهر والباطن.

(رُكْنٌ وَاحِدٌ) ولهذا جاء في تعريفه: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

مراتب الإحسان

فهذا بيَّن أنه مرتبتان:

إحداهما: أن تعبده كأنك تراه؛ أن تعبده بأنواع العبادة التي أمرك بها كأنك تراه، ومن يعبد اللَّه على الٱستحضار؛ فإنه لا يترك شيئاً من ذلك إلا جاء به.

وإن نقصت فإنه أتى بالكمال إلا أنه دون المرتبة الأولى.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر رضي الله عنه.

. . . .

تقدم لنا أن الدين ثلاث مراتب:

الإسلام، وعرفنا أركانه.

والإيمان، وعرفناه وعرفنا أركانه.

العلاقة بين مراتب الدين

والثالث: الإحسان، وهذه أعلى المراتب، وأعمها من جهة نفسها، وأخصها من جهة أصحابها. كما أن الإيمان: أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه، ولهذا يقال: كل محسنٍ مؤمنٌ مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً.

التمثيل للمراتب الثلاث

والمراتب الثلاث كل واحدة أضيق من الأخرى، فهذه دائرة الإحسان، هو الداخلية الصغيرة؛ فيُقال له: إنَّه في دائرة الإسلام والإيمان والإحسان، فهو فيهن كلِّهن.

التنقل بين المراتب الثلاث

فمن نقص إحسانه؛ خرج من دائرة الإحسان إلى دائرة الإيمان، وإن خَرَج خَرَج إلى دائرة الإسلام، وليس المراد أنه يخرج من الإيمان بالكلية؛ بل يخرج من دائرة الإيمان ويكون في دائرة الإسلام، معه إيمان يُصحِّح إسلامه وإلا كان منافقاً؛ معهم ظاهر الإسلام لكن باطن الإيمان ليس معهم، وحينئذ يقول بعض العلماء: إنَّ كلَّ محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، ولا كل مؤمن محسن؛ فإنه إذا قوي إسلامه وقام بالمندوب؛ فإنه يدخل في مرتبة الإيمان، ثم إنْ كمَّل الإيمان الواجب ولم يأت

. . . .

بالمندوب؛ فإنه لا يخرج من دائرة الإيمان، وإذا أتى بالمندوب من الإيمان مع الواجب؛ فإنه يدخل في دائرة الإحسان، فالأعراب الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ ليسوا بمنافقين، وليسوا بمؤمنين الإيمان الواجب الذي يستحقون به الثناء عليهم.

شمول الإحسان للإيمان والإسلام

وكلَّما أُطلق الإحسان فإنه يدخل فيه الإيمان والإسلام؛ فإن الإسلام والإيمان والإحسان دوائر، أوسعها دائرة الإسلام، ثم يليها في السعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، وهكذا، مِثْلُ الدوائر التي كل واحدة محيطة بالأخرى.

أثر الخروج عن إحدى مراتب الدين

فمن المعلوم: أن من كان في الدائرة الوسطى[١] - وهي دائرة الإحسان -، فهو داخل في الإسلام والإيمان والإحسان، وإذا خرج عن الوسطى، فهو داخل في الثانية - وهي: الإيمان -، وإذا خرج عنهما، فهو داخل في الثالثة - وهي: الإسلام -، وإذا خرج عن هذه الدوائر الثلاث، فهو خارج إلى غضب اللَّه وعقابه، وداخل في دوائر الشيطان - والعياذ باللَّه -.

كل محسن مؤمن مسلم، ولا ينعكس

فعرفت بالتمثيل بهذه الدوائر صحة قول مَن قال: كلُّ محسن مؤمن مسلم، وليس كلُّ مسلم مؤمناً محسناً؛ فلا يلزم من

(١) أي: الداخلية.

وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ ....

المراد بنفي الإيمان عن المسلم

دخوله في الإسلام أن يكون داخلاً في الإحسان والإيمان، وليس المراد: أن من لم يكن في الإحسان والإيمان أنه يكون كافراً؛ فإنه مسلم، لكن لا يكون مؤمناً الإيمان الكامل الذي يستحق أن يُثنى عليه به؛ فإنه لو كان مؤمناً الإيمان الكامل لمنعه من المعاصي والمحرمات.

وقيل للنبي ﷺ: «أَعْطَيْتَهُمْ وَتَرَكْتَ فُلَاناً وَهُوَ مُؤْمِنٌ؟! فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمٌ»[1]، وقوله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...» الحديث، وقوله ﷺ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ»، فالنصوص ما نفت عنهم الإسلام؛ بل أثبتت لهم أحكام الإسلام؛ من عصمة الدم، وإذا ماتوا غُسِّلوا وكُفِّنوا وصلِّي عليهم.

خواص أهل الإيمان والإسلام

فأهل الإحسان هم خواص أهل الإيمان، كما أن أهل الإيمان هم خواص أهل الإسلام، فأهل الإحسان: كمَّلوا عبادة اللَّه إلى أن وصلوا إلى حد المراقبة.

الدرجة الأولى من الإحسان

(وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ) العبادة البدنية - كالصلاة ونحوها -، أو المالية - كالذبح -.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، رقم (٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، رقم (١٥٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

ٱستحضار الرؤية للمعبود

(كَأَنَّكَ تَرَاهُ) كأنك ترى معبودك الذي قرَّبت إليه القربان وأطعته فيما أمرك به، يعني: أن تعبده على ٱستحضار أنك تراه، وأن تكون في عبادتك اللَّه - من صلاةٍ وكذا - كأنك تعاين معبودك، ومن المعلوم: أن الذي يعبد الله على هذه الحالة فإنه لم يكن تاركاً شيئاً في باطنٍ أو ظاهرٍ إلا أتى به.

الدرجة الثانية من الإحسان: مراقبة اللَّه

(فَإِن لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) يعني: فإن لم تعبده على ٱستحضار أنك تراه، فاعبده على ٱستحضار أنه يراك ولا يخفى عليه خافية - إن لم تعبده على ٱستحضار الدرجة الأولى فٱعلم أنه يراك، وأنه سميع عليم مطَّلِع على جميع خفياتك -.

النية في الدرجة الأعلى

النِّية في الأولى لأنك لا تراه، أما الثانية على أنه يراك؛ لأنه يراك حقيقة لا كأنه - فالنية في الأولى - بل يراك في تلك الحالة ويرى خفياتك وجلياتك.

فهذه درجتان إحداهما أكمل من الأخرى.

فالأولى: أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم يصل إلى هذه المرتبة: فليعبد اللَّه على مرأى من اللَّه، وأن اللَّه سميع عليم بجميع ما يفعله.

. . . .

خلاصة فوائد

تقدَّم لنا: أن الدين ثلاث مراتب.

وتقدَّم كلٌّ من الإيمان والإسلام.

وعرفنا: أدلة كل واحد.

التمثيل لمراتب الدين

وعرفنا: أن الإسلام أوسع من الإيمان، وأضيق منه الإحسان، ومن كان في دائرة الإحسان فهو في دائرة الإيمان والإسلام، ومن كان في دائرة الإيمان فهو في دائرة الإسلام.

معنى الإحسان

فالإحسان هو أعلى المراتب، والإحسان هو الإخلاص، يعني: فعل العبادات على أحسن وجوهها بالنسبة إلى ما في باطن العامل، وبالنسبة إلى ما في ظاهره، ولكن بالنسبة إلى ما في باطنه أقرب، ولذلك عُرِّف بالإخلاص المحض عن كمال خشية وٱستحضار، ومن المعلوم: أنك إذا عبدت اللَّه بهذا الٱستحضار أنه لا يبقى شيء في باطن أو ظاهر إلا أتيت به.

ودونه: أن تعبد على ٱستحضار أنه يراك، ولا يخفى عليه منك خافية.

الأكمل من درجتي الإحسان

فهاتان درجتان، الأكمل منهما الأولى، فإن لم تحصل لك الأولى حصلت لك الثانية.

فإن لم تعبده على ٱستحضار كأنك تراه، فهو على ٱعتقاد أنه يراك.

حصول الإحسان من المعلوم أنه لا يدع شيئاً ينفي الٱرتياب إلا أتى به.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، **وقَوْلُهُ تَعالَى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، **وقَوْلُهُ تَعالَى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ **الآيَة.**

الدليل الأول على الإحسان

(**وَالدَّلِيلُ**) على الإحسان، وأنه هذه المرتبة المذكورة: (**قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾) كون اللَّه معهم مفيدٌ عِظَم هذه المرتبة وأنها مرتبة هامة.

أنواع المعية ومقتضاها

هذه هي المعية الخاصة؛ فإن المعية: خاصة، وعامة.

فالعامة من مقتضاها: الحفظ، والإصلاح، ونحو ذلك.

والخاصة: تزيد على العامة بشيء خاص.

الدليل الثاني على الإحسان

(**وَقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾) للصلاة (﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾) التقلب: التَّنقُّل من حالٍ إلى حال، (﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾) يعني: المصلين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الدليل الثالث على الإحسان

(**وَقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾) من الشؤون، وأَمْرٍ من الأمور - أيّ شأن كان من الشؤون؛ كبير أو صغير -.

(﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾) أيّ عمل كان.

(﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾) أي: إلا كنا حضوراً (﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾).

. . . .

خلاصة فوائد

فعرفنا فوائد عديدة:

إحداها: أن هذه هي الثالثة؛ مرتبة الإحسان.

الثانية: عرفنا أنه أخص مما قبل من المراتب.

الثالثة: عرفنا معناه؛ وأنه الإخلاص، والمعنى: إيقاع العمل على أحسن وجوهه.

الإحسان ركن واحد

الرابعة: أنه ركن واحد، ليس له ركنان فأكثر؛ بخلاف الإيمان فإن أركانه ستة، والإسلام خمسة.

ثم تفسيره في الحديث النبوي: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، هذا تفسير نبوي[1].

السادسة: معرفة الدرجتين.

وعرفنا أدلة ذلك:

الأول: دليلٌ على جنس أخصيَّته، قوله: ﴿مَعَ﴾.

والثانية والثالثة: دالان على أنك بٱطلاع من الرب، ومرأى منه - حين تعبد - ومسمع.

---

(١) وهذه الفائدة الخامسة.

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، ....

دليل مراتب الدين وأركان كل مرتبة

(وَالدَّلِيلُ) على مراتب الدين الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وعلى أن أركان الإسلام خمسة، وأن الإيمان أركانه ستة، والإحسان واحد؛ **(مِنَ السُّنَّةِ)** من الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في ذلك؛ **(حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ، عَنْ عُمَرَ)** بن الخطاب (رضي الله عنه).

سبب تعجب الصحابة

(قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ) تعجب الصحابة من هذا الرجل؛ حيث كان شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، والمسافر من شأنه ألا يكون كذلك، ومع ذلك لا يُرى عليه أثر السفر، ولم يعرفه الحاضرون.

أدب الطالب

(حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ) وهذه كيفية جلوس الطالب المستفيد المسترشد، والأدب في حقه: أن يكون في هيئة الجلوس

وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ ٱسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ - فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ -.

كذلك؛ حذاء أستاذه - كما في هذا الحديث -.

أركان الإسلام

(وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ ٱسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) دلَّنا هذا على أن المذكورات هي أركانه؛ جعل ﷺ هذه هي الإسلام، فدلَّ على أنها أركانه ومبانيه، وفي حديث ٱبن عمر رضي الله عنهما: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ ...».

فهذه أركان الإسلام، عرفت دليلها من هذا الحديث.

تعجبٌ آخر للصحابة

(قَالَ: صَدَقْتَ - فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ -) فعجب الصحابة منه؛ فإنَّ السائل من شأنه ألا يعلم المسؤول عنه - أن يجهل ما يسأل عنه -.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟

قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

أركان الإيمان

ثم دليل الإيمان والأركان ما في قوله: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ) جعل ﷺ هذه الستة هي أركانه ومبانيه.

الفرق بين الإسلام والإيمان

ثم في الحديث الفرق بين الإسلام والإيمان: أنهما إذا ٱقترنا في نص؛ فإن الإسلام يُفسَّر بالظاهرة، والإيمان بالباطنة.

شمول القدر لكل ما يقع

(وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) ولا فصَّلنا فيه لأنه متقدِّم لكم؛ بأن تؤمن بأن الخير من دين أو دنيا أنه بقدر، وما في الدنيا من شرور - في دين، أو بدن، أو أهل، أو مال - أنه بقدر، تؤمن به؛ الخير والشر، وأن كلّاً منهما بقدر، لا هذا وحده، ولا هذا وحده؛ بل كلٌّ منهما.

ركن الإحسان

(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) هذا دليل على الإحسان، وأنَّه هذا الركن الواحد.

جعل ﷺ هذا هو الإحسان؛ فدلَّ على أنه هو الإحسان، وهو ركن واحد.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ.

دليل المرتبة الأولى

فقوله: (**أَن تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** ...) إلخ، هذا دليل المرتبة الأولى.

دليل المرتبة الثانية

وقوله: (**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ** ...) إلخ، هذا دليل المرتبة الثانية.

دليل المرتبة الثالثة

وقوله: (**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ** ...) هذا دليل المرتبة الثالثة.

ففي هذا الحديث دليل هذه المراتب الثلاث، وأن أركان كلٍّ واحدةٍ هي التي عدَّد المصنف.

اقتران الإسلام بالإيمان

ودل الحديث على أن الإسلام والإيمان إذا اقترنا: فُسِّر الإسلامُ بالأعمال الظاهرة، والإيمانُ بالأعمال الباطنة.

(**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟**) متى قيامها؟

علم الساعة

(**قَالَ: مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**) يعني: أنا وأنت سواء في عدم العلم بها؛ لأنها من الخمس التي لا يعلمها إلا اللَّه؛ فإنها مما ٱستأثر اللَّه بعلمه، كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ الآية، وفي الحديث: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ

المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ»[١].

الفرق بين الأمارة والإمارة

(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟) الأمارات: جمع أمارة - بالفتح - وهي: العلامة، وبالكسر هي: الولاية.

من علامات الساعة

(قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ) المملوكة (رَبَّتَهَا) سيدتها .

من علامات قربها ذلك، هذه هي العلامة الأولى.

معنى: (أن تلد الأمة ربتها)

المعنى: أن السراري المسبيات يكثرن، ويستولدونهن، فمن ولدته فهو سيدها؛ لأنه سبب عتقها.

يعني: أن السراري تكثر في العرب حتى تلد الإماء من السادة ولداً يكون سيدها؛ يعني: سبب عتقها.

علامة ثانية من علامات الساعة

(وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ) جمع حافٍ، وهو: الذي لا نعال له.

(العُرَاةَ) جمع العموم؛ من عارٍ، والعاري هو: الذي لا ثياب عليه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول اللَّه تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، رقم (٧٣٧٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ.

قَالَ: ثُمَّ ٱنْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً، فَقَالَ: يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، . . . .

(العَالَةَ) جمع عائل، والعائل: هو الفقير.

(رِعَاءَ) الرعاة: جمع راعٍ.

(الشَّاءِ) هي الغنم.

(يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ) وهذه هي العلامة الثانية.

حال العرب قبل البعثة

وهذه الصفات كانت للعرب قبل البعثة؛ كانوا جوعى الناس وعراتهم، فكانوا بأسوأ حال، فلما جاءت الخلافة وفاض المال تطاول الناس في البنيان، فالعرب كانوا قبل بعثة النبي ﷺ حفاة عراة - كما في هذا الحديث -، وكانوا على أشد حالة وأدناها؛ فمنَّ اللَّه عليهم بالإسلام وقوّاهم حتى ٱستنفقوا خزائن كسرى وقيصر، ثم وصَلُوا إلى أن وقعوا فيما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث.

(قَالَ: ثُمَّ ٱنْطَلَقَ) ثم ذهب هذا السائل.

(فَلَبِثْتُ مَلِيّاً) طويلاً، وفي بعضها: «ثَلَاثاً»[1].

الجواب عمّا لا يعلم

(فَقَالَ: يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) هذا فيه حَقُّ مَنْ سُئل عما لا يعلم أن يكِلَ العلم إلى

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنَّة، باب في القدر، رقم (٤٦٩٥)، من حديث عمر رضي الله عنه.

قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ».

عالمه ولا يتكلَّف، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، فإن من أعظم التكلُّف: أن تسأل الإنسان عن شيء فيتكلَّف العلم، ولهذا قيل في (اللَّهُ أعلم): نصف العلم؛ يعني: أن العلم منقسم إلى قسمين:

نصف العلم

فوظيفة ما تعلم: أن تجيب عنه بما تعلمه.

ووظيفة ما لا تعلمه: تجيب عنه بقول: (اللَّهُ أعلم).

(قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ) جعل ﷺ ما ذكر في هذا الحديث أنه أمر الدين، وفي حديث: «يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1]، فجعله هو الدين.

جلالة قَدْرِ حديثِ جبريلَ

فأفاد فضيلته وجلالته؛ وذلك أن النبي ﷺ جعل ما فيه هو الدين وأمْر الدين.

فدل على عظم شأن شُعَبه - أنه جليل القدر -، ولهذا مدار عقائد أهل السنة على هذا الحديث، فهو العمدة، وهو أصلها؛ العقائد كلها ترجع إلى ما في هذا الحديث.

خلاصة فوائد

المقصود: عرفنا أنه دليلٌ على كلٍّ من المراتب الثلاث.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر، وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

. . . .

وأن عدد أركانهن الماضي هو هذا، فهذا دليل لِمَا تقدَّم من الأركان.

وأن الإيمان والإسلام عند الاقتران: يفترقان.

ودل على اقترابها[١].

وعرفنا: أنها من الخمس التي لا يعلمها إلا اللَّه.

وعرفنا: أن لها أمارات وعلامات؛ وذكر منها: ولادة الأَمَة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

وعرفنا: معنى: ولادة الأَمَة ربها، ومعنى: الحفاة، والعراة، والعالة، ومَلِيّاً.

وعرفنا: عظم شأن الحديث؛ بقول الرسول ﷺ: «يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»، فجعله هو أمر الدين، وفي اللفظ الآخر: «يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

أشمل حديث في العقيدة

وهذا الحديث أشملُ حديثٍ جاء في أصول الدين والعقائد، فهذه عقيدة مستقلة بنفسها؛ فإن عقيدة أهل السنة والجماعة على هذا الحديث.

---

(١) أي: الساعة.

الأَصْلُ الثَّالِثُ

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، ....

تقدم الأصل الأول وهو معرفة الرب، ومعه الثاني معرفة دين الإسلام.

الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ

(الأَصْلُ الثَّالِثُ) عرفنا أن الأصول ثلاثة:

أولها: معرفة الرب تعالى، وتقدَّم ذلك تفصيلاً.

والثاني: معرفة الدِّين، وتقدَّم تفصيلاً.

والثالث: هو هذا.

وجه كون معرفة النبي ﷺ من أصول الدين

أصل من أصول الدين: معرفة نبينا محمد ﷺ، وإنما كان أصلاً؛ لأنه الواسطة بيننا وبين ربنا فيما يُرضيه ويُنجي من عقابه، فهو الواسطة في ذلك؛ فصارت معرفته من أهم أصول الدين.

(مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّدٍ ﷺ) هذا ثالث الأصول الثلاثة؛ من أصول الدين التي تقدمت:

أحدها: معرفة ربه.

الثاني: معرفة دينه: وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

وهذا هو الثالث؛ لكونه الواسطة بيننا وبين اللَّه فيما يبلغنا به ربنا.

. . . .

منزلة الأصول الثلاثة

نعرف أن معرفة نبيِّنا محمَّد ﷺ أحد الأصول الثلاثة، كما أن الأصل الأول - وهو معرفة اللَّه تعالى - عظيم، وكذلك معرفة أمره - الذي خلقنا له وتعبّدنا بالقيام به - أصل عظيم، فكذلك معرفة الواسطة بيننا وبين اللَّه تعالى أصل عظيم من أصول الدين؛ فإنه لا وصول لنا، ولا ٱطلاع لنا فيما ينجينا، ولا طريق لنا، ولا نعرف ما ينجينا من غضبه وعقابه؛ إلا بما جاء به نبينا ﷺ.

الطريق إلى معرفة اللَّه ودينه

وإذا كان كذلك؛ عرفنا وجه كون معرفته أحد الأصول الثلاثة، فإنا لا نعرف الأصل الأول - الذي هو معرفة الرب جلَّ جلاله -، ومعرفة الثاني - الذي هو دين الإسلام -؛ إلا بالواسطة بيننا وبين اللَّه، فصارت معرفته ﷺ أصلاً ثالثاً؛ فلا يمكن معرفة المُرْسِل ولا معرفة ما جاء به المُرسَل[1] إلا بمعرفة المُرسَل، فعرفنا بذلك معرفة الرسول وأنه أحد الأصول الثلاثة.

ما تنتظمه معرفة النبي ﷺ

ومعرفته ﷺ تنتظم أشياء عديدة - كما يأتي في هذه الأسطر عدة أمور من معرفته ﷺ - من عرفها فقد عرف بذلك نبيَّه ﷺ:

---

(١) وهو دين الإسلام.

. . . .

أحدها: معرفة ٱسمه.

ومنها: معرفة نسبه[١]، وعمره وبقائه في الدنيا[٢].

ومنها: معرفة ما كان منه نبيّاً، وما كان منه رسولاً، ودخل في ذلك: كونه نبيّاً، وكونه رسولاً - أيضاً -.

ومنها: معرفة ما نُبِّئ به.

ومنها: معرفة ما أُرسل به.

ومنها: معرفة بلده، ومهاجَره - ومن جملة معرفته: معرفة بلده التي نشأ بها، ومعرفة بلده التي هاجر إليها وتوفي؛ فالتي ولد بها فهي مكة، والبلد التي هاجر إليها المدينة -.

ومنها - وهو أعظمها -: معرفة ما بُعث به.

فصار ثمانية أمور.

وكل هذا ذكره المصنف - فيما يأتي إن شاء اللَّه تعالى - وغير ذلك.

---

(١) وهذا الأمر الثاني.

(٢) وهذا الأمر الثالث.

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، ....

(وَهُوَ مُحَمَّدُ) ثم معرفته تشتمل على أمور عديدة، منها: ٱسمه، ومنها: نسبه.

أسماء النبي ﷺ، وأشهرها

يعني: أن له أسماء عديدة، فٱسمه محمَّد ﷺ - وله أسماء أُخر؛ فإنها كثيرة - وأحمد، والماحي، والعاقب، والحاشر؛ وأشهرها هذان: محمد رسول اللَّه، وأحمد، ولكن أشهرها: ٱسمه محمد، ولهذا جاء في القرآن في عدة مواضع، ذُكِرَ بهذا الٱسم على وجه التَّنويه؛ ولهذا كان أشهر أسمائه، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، وغير ذلك؛ فهذا أشهر أسمائه ﷺ.

معنى ٱسم النبي محمد ﷺ

ومعناه: الذي يُحمد أكثر مما يُحمَدُ غيره، الذي يحمده الناس حمداً أكثر من حمد غيره، وهو عَلَمٌ مشتق فيه المعنى؛ وٱشتقاقه من الحمد الذي هو ضد الذم، ولما فيه من الخصال الحميدة.

نسب النبي ﷺ

وأما نسبه فهو: **(ٱبْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ)** فهو من بني هاشم.

(وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ) القبيلة الكبيرة المعروفة.

وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ -.

العرب المستعربة أفضل من العاربة

(وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ) يعني: المستعربة، فإن العرب على قسمين: عاربة؛ ومستعربة.

فالعاربة: هم قحطان.

والمستعربة: الذين منهم النبي ﷺ؛ هم ذرية الأنبياء العدنانيين، وهم أفضل من العرب العرباء.

(وَالعَرَبُ) يعني: المستعربة **(مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ -)**.

أقسام العرب

فإن العرب ثلاث:

بائدة - وهي: طَسْم وجَديس وثمود -؛ سُمُّوا بائدة لذلك.

وعرب عاربة، ويُقال لهم: عرب عَرِباء، وهم: قحطان.

وعرب مستعربة، وهم: العدنانيون.

وقريش من العدنانيين؛ فإنهم من ذريَّة إسماعيل بن إبراهيم.

خلاصة فوائد

عرفنا: أن هذه الأمور من معرفته؛ عرفنا ٱسمه، وعرفنا نسبه، فهو محمد بن عبد اللَّه ... إلى قوله: **(عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ)**.

فعرفت: ٱسمه، ونسبه، وأنه ينتهي إلى إبراهيم عليه السلام.

وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً - مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيّاً رَسُولاً -.

عُمُرُ النبي ﷺ

وأما عمره وبقاؤه في الدنيا فبيَّنه المصنف بقوله: (وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً).

من جملة معرفته: معرفة عمره؛ معرفة لُبثه في الدنيا، ثم لبث في الدنيا ثلاثاً وستين سنة، فهو عُمِّر.

معنى النبوة لغة

(مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ) والنبوة ٱشتقاقها من النبأ؛ وهو الخبر.

وقيل: من النَّبْوة، وهي: الٱرتفاع، وإنما كان كذلك؛ لأنه ٱرتفع على غيره.

وقيل: إنَّ أصل النَّبيّ: النبيء.

زمن نبوةِ النبي ﷺ ورسالته

(وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ) بعد مضي أربعين سنة من عمر نبيِّنا ﷺ، (نَبِيّاً رَسُولاً) منها ما هو نبي، ومنها ما هو رسول.

تعريف النبي

فالنبي: شخص ذَكَرٌ، أُوحي إليه بشرع، وإن لم يُؤمر بتبليغه.

تعريف الرسول

والرسول: شخص - إنسان - ذكر، أُوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه.

الفرق بين النبي والرسول

وإذا عرفنا تعريف النبي والرسول ما هما؛ فنعرف أن بينهما عموماً وخصوصاً، وأن الرسالة أعم من جهة لفظها، وأخص من جهة أصحابها، وأن الرسالة إنما هي للرسل؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

نُبِّئَ بِٱقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ.

معرفة ما نبئ به، وما أرسل به، وما يدخل في ذلك

ثم من معرفته: معرفة ما نُبِّئ به، وما أُرسل به، ويدخل في ذلك معرفة النبي ومعرفة الرسول.

فالنبي: هو مَنْ أُوحي إليه بشرع، وإن لم يُؤمر بتبليغه.

وأما الرسول: فهو مَنْ أُوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه.

فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، فإن منهم من لم يُؤمر بالتبليغ.

والذي نُبِّئ به: ﴿ٱقْرَأْ﴾، فإنه أُوحي إليه بشرع، ولكن ليس فيه يبلغه الناس، أما المدثر فهو أمر: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ يعني: الناس.

ما نُبئ به ﷺ

(**نُبِّئَ بِٱقْرَأْ**) من معرفته: معرفة ما نُبِّئ به؛ فإنه نُبِّئ بٱقرأ، فحين أنزلت عليه سورة ٱقرأ؛ صار بذلك نبياً.

فمن المعلوم: أنه موحى إليه وهو في غار حراء؛ ولم يُؤمر بتبليغه.

ما أُرسل به ﷺ

(**وَأُرْسِلَ**) وصار رسولاً (**بِالمُدَّثِّرِ**) بإنزال المدثر عليه، فحين أنزلت عليه سورة المدثر صار بذلك نبياً رسولاً، فإنه أُوحي إليه بشرعٍ في سورة ٱقرأ، وأُمر بتبليغه في سورة المدثر.

فعرفنا: الذي كان فيه نبيّاً، والذي كان به رسولاً.

. . . .

خلاصة فوائد

ثم المصنف قال: (**نُبِّئَ بِٱقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ**) فعرفنا أنه نبي رسول، فنعرف الفرق بين النبي والرسول؛ فالنبي ﷺ مَن أُوحي إليه بسورة ٱقرأ، هو نُبِّئ لكن ما أُمر بإبلاغ الناس، فلمَّا نزلت عليه سورة المدثر كان فيها الأمر بالتبليغ؛ فكان رسولاً - التي فيها النِّذارة نِذارة الناس؛ كان رسولاً -.

الفرق بين النبي والرسول

فنعرف: حَدّ النبي والرسول:

فالنبي: هو مَن أُوحي إليه بشرع، وإن لم يُؤمر بتبليغ.

والرسول: هو مَن أُوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه.

وكل رسول نبي، ولا ينعكس.

وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

كذلك من ضمن معرفته: معرفة بلده - ويأتينا زيادة أشياء من بيان معرفته ﷺ -.

بلد النبي ﷺ

(وَبَلَدُهُ مَكَّةُ) بها ولد، وبها نشأ ﷺ.

هذا فيه بيان وطنه؛ فإن من معرفته: معرفة وطنه؛ فإنه بها وُلِد، وبها نشأ؛ إلا ما كان مع مرضعته السعدية في البرية، ثم بعد ذلك كان في حضانة جده، ثم في حضانة عمه، فكانت وطنه إلى أن هاجر منها إلى المدينة.

. . . .

ما تتضمنه معرفة النبي ﷺ

تقدم أن معرفة نبيِّنا محمَّد ﷺ تنتظم أشياء عديدة، وتقدَّم تعداد بعض ما ذكر المصنف من معرفة النبي ﷺ.

فمن جملة معرفته: معرفة ٱسمه ﷺ.

ومن جملة معرفته: معرفة نسبه، وهو محمد بن عبد اللَّه ... إلخ.

ومن معرفته: معرفة سِنِّه، ومدة لُبثه في الدنيا، وعرفنا تفصيل تلك السِّنين.

وعرفنا أن تفصيل ذلك: ثلاث وعشرون بعد النبوة، وأربعون قبل.

وعرفنا: أنه نبيُّ اللَّه ورسوله إلينا.

ومن جملة معرفته: معرفة ما نُبِّئ به.

ومن جملة معرفته: معرفة ما أُرسل به.

ومن جملة معرفته: معرفة بلده التي ٱستقرَّ بها أكثر عمره، وأنها مكة.

أعظم أنواع معرفة النبي ﷺ

ومن جملة معرفته أيضاً؛ بل من أعظم أنواع معرفته - بل أهمها ـ: معرفة ما بُعث به؛ لأنها لم تكن معرفته أصلاً من أصول الدِّين إلا من أجل البعث به، فمن أعظم معرفته معرفة ما بُعث به.

بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ؛

النذارة على الشرك

(بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ) والبالغة في ذلك المبالغة، فهو ﷺ بعثه اللَّهُ بالنِّذارة، يعني: الحذر عن الشرك، وبيان ما فيه من الأضرار الدينية والدنيوية والأخروية؛ فإن فيه الضرر الذي لا ضرر بعده، والهلاك الذي لا هلاك بعده.

الدعوة إلى التوحيد

(وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ) ويبين لهم التوحيد، وهو: عبادة اللَّه وحده، وكما أنه بيَّن الشرك فحضَّ وحرَّض على أسباب النجاة والحياة السعيدة.

هذا أيضاً من جملة معرفة النبي ﷺ، بل هذا أعظمها وأعلاها، فهذه الطِّلْبة ما هم عليه وِحْدَتهم وجُملتهم؛ على أن يفردوا ربَّ العالمين بالعبادة؛ يعني: أن عبادة هُبَل ونحوها باطل.

معناه: أن كل إله موجود يُعبد بباطل، ولا في الوجود معبود يُعبد بحق إلا اللَّه؛ إنما عُبدوا بالظلم والجهل.

بأي شيء بعث النبي ﷺ

بأيِّ شيء بُعث به؟

بُعث بالنِّذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد؛ فإن الناس هلكوا هلاكاً لا حياة بعده - فإنَّ الهلاك هلاك الأرزاق ممكنٌ منه الٱنفكاك - فهو موت الدِّين، والحياة حياة الدِّين، فمن وفقه اللَّه وعمل بالخير فهو الناجي.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ . . . .

أعظم أنواع الموت

بعثه اللَّه بحياة الناس من هذا الموت الذي هو الموت؛ فإن الموت: هذا الموت، لا موت مفارقة الأجساد؛ بل الموت الذي هو الموت: موت الدين وموت الآخرة، وهو أنهم في جهنم لا يموتون ولا يحيون؛ فإنها حالة أشر من الموت، ولهذا يدعون بالموت ويطلبونه: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فنودوا ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

علة ذكر النذارة عن الشرك قبل التوحيد

وذكر المصنف النِّذارة عن الشرك قبل الدعوة إلى التوحيد؛ لأن هذا مدلول كلمة التوحيد (لا إله إلا اللَّه)، ولأن الآية الآتية تقتضي ذلك، فبدأ بجانب الشرك لكون العبادة والعمل لا تصح مع وجود المنافي، فإذا وجدت والمنافي موجود ما صحت.

الدليل على الحكمة من رسالته ﷺ

(**وَالدَّلِيلُ**) على ذلك صدر هذه السورة: (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾**) كان حين أول ما أنزلت عليه متدثراً عندما جاء من الغار، بعدما جاءه مجيئَه الذي هو مجيئُه بٱقرأ.

أول سورة أُنزلت

وهذه أول سورة طرقت صدره.

من أهل العلم من ذهب إلى أن أول سورة أنزلت عليه هذه السورة، والبعض يقول: ٱقرأ، وإن كان لقائل يقول: هي أول سورة على الإطلاق.

والكلُّ حقٌّ؛ بٱعتبار أنها أول سورة أنزلت عليه في رسالته بالنسبة للرسالة، والأولية المطلقة: ٱقرأ، والنسبية للمدثر؛ يعني

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ....

بالنسبة إلى ما بعدها هي الأولى، ولا سيما في الرسالة؛ بل هي في الرسالة أولية مطلقة.

(﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾) يعني: عن عبادة غير اللَّه.

أول آية أُرسل بها النبي ﷺ

هذه أول آية أُرسِل بها، وأول أمرٍ طَرق سمعه في حال إرساله ﷺ.

هذه أول كلمة وأول أَمر أُمر به في رسالته؛ لأنه أُرْسِل بالمدثر - كما سبق -، فالقرآن الذي صار بإنزاله رسولاً هذه السورة، وأول أَمر أُمر به من رسالته: قوله ﷻ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

أول شيء أُمر به الرسول ﷺ

أول شيء أُمر به: النِّذارة، والنفي مقدَّم على الإثبات؛ وذلك أنه لا يصح التوحيد إلا بعد زوال والسلامة من الشرك، ولا ترى التركيب في الأدلة إلا أنه مقدَّم النفي، وإن كان يمكن من حيث التركيب، فقد يكون مراعى النفي أولاً، فالشرك مذكور قبل التوحيد؛ لأن من شرط التوحيد السلامة من الشرك، وقد يُقدَّم التوحيد ويكون بٱعتبار أنه المقصود بالذات، كقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾، ثم قُدِّم نفي الشرك في نصوص بٱعتبار أنه لا يصح التوحيد إلا بالسلامة منه.

سبب تقديم نفي الشرك أو التوحيد في النصوص

ثم لهذا البحث تكميل ليس هذا محله، يعني: لو قيل: لِـمَ روعي ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ أولاً؟ لِـمَ لا يُذكر في جميع المواطن،

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ....

ويكون البداءة بالتوحيد؟ فإنه يبقى الجواب عنه في محل آخر.

شرط التوحيد: السلامةُ من الشرك

المقصود: أنكم عرفتم أنه لا بد في التوحيد ووجوده السلامةُ من الشرك.

مقتضى لفظ ﴿قُمْ﴾

ثم قوله: ﴿قُمْ﴾ يعني: أنه أمر هام، وإن كان المناسبة أنه متدثر - يعني: من رقادك -، لكنها بحالة لا ينافيها ما تفيده لفظة ﴿قُمْ﴾، هي بحالها، فإن المقام مقام جد وبذل للوسع الذي يُستطاع.

تعظيم الرب بعبادته وحده

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾) عظِّمه وأَجِلَّه بعبادته وحده لا شريك له.

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾) يعني: طهِّر أعمالك عن الشرك، فإن

تطهير الأعمال

الأعمال من جنس الثياب؛ فإنها أشياء تُلبس وتُخلع، إلا أن هذه قُطْنٌ، وتلك معنوية، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

أنواع اللباس

الإنسان له لباس مما يَدفع عنه الحر والبرد، ولباس معنوي - وهو أخلاقه، ودينه، وما يستر سوءته المعنوية - وهو: الأعمال.

ثم الدنس يُدنِّس هذه الأشياء الحسية، وتلك تُدنِّس المعنوية - من معاصي اللَّه ومخالفاته -.

ولهذا يُقال في العِرض كذلك:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يُدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ ... فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ[1]

(١) يُنسب للسموأل بن عاديا. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ١٧٦).

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾.

وَمَعْنَى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، . . . .

معنى الرجز

(﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾) الرجز هي: الأصنام التي تُعبد من دون اللَّه.

معنى هجر الأصنام

(﴿فَٱهۡجُرۡ﴾) وهجرها الواجب هو: تركها، والبراءة منها ومن عابديها، وأن عابدها مشرك، وأنه - إذا قامت عليه حجة - كافر ضال.

وهذا تفسيرها الذي ذكره المصنف.

تفسير المصنف لآياتِ صدرِ سورة المدثر

ثم فسَّر المصنف هذه الآياتِ الكريماتِ من صدر السورة، فقال:

(وَمَعْنَى) هذا شروع في تفسير الآية، وما ٱتَّصل بها من الآيتين، تقدم معنى ذلك، وهنا بعض كلمات ما تقدم فيها.

معنى النِّذارة

(﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾) يعني: (يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ)، فالنِّذارة هي: ذِكْر أسباب المخاوف والتحذير منها؛ ذِكْرُ الأشياء التي تُخاف، وتحذير المخاطب بها أن تصيبه.

والشريك ٱشتقاقه من الٱشتراك؛ أن يجعل العمل الذي للَّه له شريك.

وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

أنواع التشريك

وهو تارتان:

تارة يشرك اللَّه؛ يجعل له شريكاً في ذلك الدعاء.

وتارة لا يجعله شريكاً؛ كأن يدعو الله تارة وغيره أخرى؛ فإنه شرك وإن لم يُشْركه في نفس العبادة.

أنواع الشرك

والشرك نوعان: أكبر، وأصغر.

حد الشرك الأكبر

الشرك الأكبر: هو جعل مِثْلٍ للَّه في العبادة.

حد الشرك الأصغر

والأصغر: ما جاء تسميته شركاً ولا وصل إلى أنه شرك وتنديد في العبادة، وإلَّا شيء ما سُمِّي شركاً لا نُسمِّيه نحن شركاً.

التوحيد دعوة الرسل

(وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ) ودعوة الرسل هي إلى توحيد العبادة، وفي ضمن ذلك الدعوة إلى النوعين الآخرين.

الخصومة في توحيد العبادة

الخصومة إنما كانت في أن يُعبد اللَّه وحده، ولا يُعبد معه أحد سواه؛ ولذلك قال المصنف[1]: «الثَّانِيَةُ: أَنَّ العِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الخُصَومَةَ فِيهِ»، فإن الجاهلية لا تجحد النوعين: الصفات والربوبية إلا قليلاً؛ ولكن الخصومة في أن يَصرف تلك العبادات للَّه لا يجعل لغيره فيه شيئاً - لا نبي، ولا ولي، ولا مَلَكٍ، ولا غيرهم من الخلق -.

---

(١) في المسألة الثانية من مسائل الباب الأول في كتاب التوحيد، ضمن «متون طالب العلم» (ص ١٧٠).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.

الحكمة في تقديم التوحيد

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ) وقَدَّم بالتوحيد؛ فإن التوحيد تقديس وإجلال، والشرك تنقيص ومنافاة له؛ فإن المشرك نَسَبَ إلى المخلوق إلى أنه يليق ويصلح أن يُدعى، فالرسل هم المعظِّمون لرب العالمين، وأهل الشرك هم الناقصون المنتقِصون لرب العالمين.

ٱستدلال المصنف بالآية على الطهارة الحسية والمعنوية، ووجه ذلك

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ) والمصنف نفسُه ٱستدل بالآية على طهارة البدن والثوب والبقعة من النجاسة[١]، وهنا جعل الثياب الأعمال، وهناك ثياب الصلاة، فكيف هذا؟

كلٌّ صحيح، أما هذا فالسورة مكية، ولا بعدها صلاة[٢]؛ بل الصلاة بعد عشر سنوات، ولكن هي إذا كان معلوماً تطهيرُ الثياب المعنوية؛ عُرف أن فيها دلالةً على تطهير الثياب الحسية مما ينجسها من البول والعذرة ونحو ذلك؛ فإنها دلَّت على أن جنس الثياب ينبغي تطهيرها ويشرع تطهيرها، وهو في الثياب المعنوية أولى؛ لأنها التي نزلت فيها، ومع ذلك هي تدل على تطهير الحسية.

---

(١) في شروط الصلاة وأركانها وواجباتها، ضمن «متون طالب العلم» (ص ١٤٧).

(٢) أي: ولم تُفرض الصلاة بعد.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ. وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا.

(﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ **الرُّجْزُ**) هي: (**الأَصْنَامُ**) المعبودة من دون اللَّه.

معنى هجر الأصنام

(**وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا**) ترك عبادتها، وبغضها، والبعد عن عبادتها.

(**وَأَهْلِهَا**) يعني: هجرانها وهجران أهلها، فكما يهجر الشرك يهجر عامليه، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فابتدأ باعتزال العابد قبل المعبود.

اعتزال العابد قَبْل المعبود

وفي الآية الأخرى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، بدأ بالبراءة من العابد قبل البراءة من المعبود، فلا تتم البراءة من الشرك إلا بالبراءة من المعبود؛ فإن أبغض البغضاء إلى اللَّه ما جُعل عدلاً له، فيكون مَنْ جَعَل ذلك كذلك.

من أصول الدين: بغض المشركين وهجرهم

فصار هجر المشركين فريضته وشرعيَّته قبل أن تفرض الصلاة، وبذلك تعرف أنه داخل في أصل الدين؛ بغضهم وهجرهم.

(تَرْكُهَا وَأَهْلِهَا) يجوز (وَأَهْلَهَا)، يجوز فيها النَّصب، والجر:

. . . .

(وأهل) يجوز نصبه، ويجوز جره محل نصب على المفعولية مراعاة للهاء، وجر بالخيار، معناه: أنه عامل، فيكون في محل نصب، فيكون عطف عليه.

يراعى فيه هذا وهذا.

خلاصة فوائد

فعرفنا: ما بُعث به ﷺ.

وعرفنا: دليل ذلك - أنه هذه الآية -.

وعرفنا: تفسير هذه الآيات الكريمات من صدر السورة.

أولاً: عرفنا أنه ﷺ بعث بالنِّذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد.

ثانياً: دليل ذلك.

ثالثاً: عرفنا تفسير هذه الآيات الكريمات من صدر هذه السورة؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ يعني: عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، وأن معنى الرجز: الأصنام، والهجر المأمور به في ﴿فَٱهْجُرْ﴾ أنه الترك؛ تركها وأهلها - وترك أهلها - والبراءة منهم.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، ....

عشر سنين كلها في التوحيد

(أَخَذَ عَلَى هَذَا) أخذ على بيان الشرك والنِّذارة عنه، والتوحيد والدعوة إليه: (عَشْرَ سِنِينَ) كلها في بيان الشرك والنِّذارة عنه، وفي بيان التوحيد والدعوة إليه، قبل فرض الصلاة التي هي عماد الدين.

حقيقة ما بُعث به النبي ﷺ وسائر الأنبياء

فهذا يُبيِّن لك أن حقيقة ما بُعث به النبي ﷺ هو: النِّذارة عن الشرك والنهي عنه، والدعوة إلى التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، وقال تعالى عن نوح وهود وشعيب وصالح: إنَّ أوَّل شيء بدؤوا به قومهم أن قالوا: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾، فتتبَّع الآيات القرآنية والقَصَص مع الرسل وقومهم؛ تعرف أن هذا هو أوَّلُ شيء دعوا إليه، وزبدته هو هذا التوحيد.

التوحيد قبل الصلاة وغيرها

(يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ) بمكة، لم يفرض عليه صلاةٌ ولا زكاةٌ ولا حجٌّ، كلُّه في بيان التوحيد والأمر به والدعوة إليه، وبيان الشرك والإنذار عنه.

وهذا مما يُبيِّن لك قول المصنف أنه بُعث به.

وأين الصلاة التي هي عمود الدين؟! عشر سنوات أتى يصيح ويصرخ في أعلى الجبال، بعض الأحيان يقول:

. . . .

دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد

«وَاصَبَاحَاهُ!»، حتى عُدَّ بذلك مجنوناً، فصاح وصرخ وأنذر، وقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»[1]، وقال: «أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ»[2]، والنذير العريان هو: الذي رأى عدواً خشي أن يسبقه فجعل يُومي بثوبه؛ وهذا يعني أن الخطر قريب وخطير أن يفوت النذير.

نعم؛ الصلاة هي فروع، ومن مكملاته، أما حقيقة ما بُعث به فهو الدعوة إلى التوحيد، والصلاةُ ونحوها تفاريعُ وتفاصيل.

مكث نبينا محمد ﷺ على هذه الحالة عشر سنوات، كلها في شيء واحد، وهو: الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك.

في الشيء الذي بُعث به: مكث فيه مدة عشر سنوات، لم تنزل فيها الشرائع - من الصلاة فما بعدها -؛ عشر سنوات كلّه في النِّذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، لا فُرض صلاة، ولا زكاة، ولا حج.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، رقم (٤٨٠١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٨)، من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الٱنتهاء عن المعاصي، رقم (٦٤٨٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، رقم (٢٢٨٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

. . . .

زبدة الرسالة

هذا يدل على أن كله في الدعوة إلى التوحيد، والنِّذارة عن الشرك، ولهذا كان هذا الشيء هو زبدة الرسالة، الرسلُ كلُّهم ما بُعثوا إلا لهذا؛ معرفة التوحيد وٱمتثاله، والأمر به وٱعتقاده، والنهي عن الشرك والتحذير منه.

شأن التوحيد

عشر سنوات من بعثة سيد الخلق ﷺ لم تفرض الصلاة مع مكانها من الدين، إنما هو: الأمر بالتوحيد، والنِّذارة عن الشرك؛ وبهذا تعرف: شأن التوحيد، وأنه ينبغي أن يُعطى العناية.

أعظم الأذى في بيان التوحيد والشرك

وإلقاء التهديد والأذى الشيء الكثير من أعداء الرسول ﷺ إنما كان في مدة عشر السنوات، يعني: معظم ذلك وأشدُّه وأصعبه؛ فإنه لقي من المشركين ما اللّٰه به عليم، كله في بيان الشرك والإنذار عنه، وبيان التوحيد والدعوة إليه.

وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، ....

الإسراء والمعراج بالروح والجسد

(وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ) يعني: صُعد به - بروحه وجسده - (إِلَى السَّمَاءِ)، لا بروحه فقط - كما زعم من زعمه -، ولا بجسده فقط؛ بل بهما، وكان ذلك حسّاً لا مناماً، يعني: عُرج بجسده وروحه، ويقظة - أيضاً - لا مناماً؛ وقد قال اللَّه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، بعبده: هذا ٱسم لجسد النبي ﷺ وروحه، ليس ٱسماً للجسد فقط، ولا للروح فقط؛ كما أنه أوحى إلى عبده: جسده وروحه.

الإسراء ليلاً

وذلك بالليل، وهو: الإسراء؛ فالسير في الليل يُسمَّى: الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

فرض الصلاة في السماء

(وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ) في السماء (الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ) وهو في السماء قبل أن يرجع إلى الأرض، وصار فيها التردد الذي سمعتموه بين موسى عليه السلام وبين ربه.

أصل فرضيتها خمسون، ثم صارت إلى خمس تخفيفاً وتيسيراً، ثم إن اللَّه مَنَّ بأن جعل أجر تلك الخمسين في الخمس.

وجاء بها إلى أمته، وبيَّن الصلاة التي هي عمود الدين.

وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ.

فرضت الصلواتُ الخمسُ في مكةَ، والجمعةُ في المدينةِ

(وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ) الصلوات الخمس دون جمعة - الجمعة ما شُرعت إلا في المدينة - الفجر، الظهر، العصر، المغرب، العشاء.

مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً

فصار مكثه في مكة ثلاثة عشر:

عشر في بيان التوحيد والدعوة إليه، والنهي عن الشرك والتحذير منه.

وثلاث في الصلاة.

أمر الله نبيه ﷺ بالهجرة

(وَبَعْدَهَا) بعد الثلاث التي بعد المعراج، وقبلها عشر؛ بعد هذه الثلاثة عشر: **(أُمِرَ)**؛ الرسول ﷺ ما هاجر إلا عن أمر من ربه، ولا ذكر المؤلف دليلاً على الهجرة؛ لتواترها التواتر المعنوي.

الدليل على هجرة النبي ﷺ: التواتر المعنوي

(بِالهِجْرَةِ) من مكة **(إِلَى المَدِينَةِ)** بعد ذلك أُمر بالهجرة من أجل التخلُّص من المشركين؛ فإنهم أضروا بالضعفاء من المسلمين؛ بل النبي ﷺ يتصدون له بشيء من الأذى، كإلقاء سلا الجزور عليه وهو ساجد، ووضعِ الشوك في طريقه، والوقوفِ على بابه ليتخرَّج[1]، فأُمِر بالهجرة للتصريح بعداوة

الحكمة من الهجرة

---

(١) بأذيته.

. . . .

المشركين، وبما أوجب اللَّه عليه إظهاره من تكفير المشركين والغلظةِ عليهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ، فإنهم لا يتمكَّنون من واجب ذلك إلا بمفارقة المشركين، وفرض اللَّه على النبي ﷺ وأصحابه الهجرة إلى مأمنٍ ومكانٍ يتمكَّن فيه من تكفيرهم وتضليلهم، ويكونون بذلك أعزاء يأمنون على أنفسهم وعلى دينهم؛ بأن يَظهر كمال الظهور، ويصرح به غاية الصراحة؛ فإن اللَّه قال لنبيه ﷺ ذلك: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾.

هذا كله في الأصل الثالث من معرفة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ.

خلاصة فوائد

تقدم لنا من معرفته أشياء عديدة، كلها من معرفته؛ تأريخية، وغير تأريخية.

ومعرفته عرفناها: أنها معرفة ٱسمه، ومعرفة نسبه، ومعرفة بلده، ومعرفة لبثه في الدنيا، وأن مدة حياته تنقسم إلى قسمين، وأَخذْتَ منها ما هو قبل البعثة، ومنها ما هو بعدها، وعرفنا ما نُبِّئ به، وما أُرسل به، والبلدة التي سكن بها وبنى.

حياة النبي ﷺ قسمان

أعظم المعرفة للنبي ﷺ

وعرفنا أن بعضها أهم من بعض؛ فإن أهمها: معرفة ما بُعث به - وتقدم لنا ذلك -.

. . . .

الهجرة من واجبات الدين

ومن جملة معرفته: أنه مكث بمكة ما مكث، ثم هاجر إلى المدينة؛ لإظهار ما أوجب اللَّه إظهاره من الدين، فإن هذا واجب من واجبات الدين؛ ليتمكَّن الإنسان من التصريح بعداوة المشركين - فإنهم كانوا لا يتمكَّنون من ذلك تماماً - والتصريح بالتكفير وعداوة المشركين، وهاجر معه من هاجر.

وَالهِجْرَةُ: الِٱنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ.

وَهِيَ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

معنى الهجرة لغة وشرعاً

(وَالهِجْرَةُ) أصلها من الهَجْر؛ وهو الترك.

وفي الشرع: ترك بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام؛ يعني: لأجل الإسلام، وإلا شخص ينتقل ليس مراده الإسلام، فهذا ليس مهاجراً؛ بل (الِٱنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ) لكونها بلد شرك، (إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ)؛ لإقامته، أو للتخلُّص من أذيتهم.

حكم الهجرة

(وَهِيَ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ)، وهي فرض عين في حق القادر، وأما العاجز فمعذور.

الهجرة محكمة غير منسوخة

(وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ) وفرضيتها مستمر إلى قيام الساعة، لا ينسخها شيء، ولم ينسخها شيء.

خلاصة فوائد

فعرفنا الهجرة: أنها الٱنتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

وٱشتقاقها من: الهَجْر والترك - وسبق لكم أن الهجر هو الترك، ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ﴾ -.

وإذا قيل لك: ما حكمها؟

قلتَ: واجبة على هذه الأمة؛ أن تفارق بلاد المشركين إلى بلاد المسلمين.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ ....

وقد يقولون لك: هل هو وجوبٌ باقٍ، أم لمن مضى؟ وهذا معنى كلام المؤلف.

معنى حديث «لا هجرة بعد الفتح»

ثم قد يقول قائل: إن في حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ»[1].

الإجماع على بقاء الهجرة

قيل: إنه من مكة إلى المدينة لمَّا فُتحت بَعدَ إذ كانت بلاد كفر، وإلا بإجماع أهل العلم أن الهجرة باقية، إنما يَستدل بالحديث أغمارٌ جهَّال، لا يعرفون معنى الحديث ولا وجهَه؛ يعني: بقي في حقكم الجهاد والنية الصالحة، يعني: أن بلد مكة وقعت بلد إسلام - كالمدينة -.

الدليل على فرضية الهجرة من القرآن

(وَالدَّلِيلُ) على فرضية الهجرة من القرآن: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾) يعني: بالإقامة بين أظهر المشركين بمكة - وحكم غيرها حكمُها -.

(﴿قَالُوٓا۟﴾) يعني: الملائكة، والملائكة تعلم، لكن هذا توبيخ لهم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، رقم (٢٧٨٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣)، ولفظه: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا ٱسْتُنْفِرْتُمْ فَٱنْفِرُوا».

فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً . . . .

(﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾) في أي فريق كنتم، فريق المسلمين أو المشركين؟

(﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾) ٱعتذروا بالٱستضعاف، علموا أنهم عالمون في أيِّ بلد عاشوا.

ليس كل عذر عن الهجرة مقبولاً

فلم تعذرهم الملائكة؛ فإنه ليس بعذر على التمام - وليس كل عذر مقبولاً -؛ بل أنكروا عليهم المقالة (﴿قَالُوٓا﴾) قالت الملائكة رادة عليهم: (﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾) أخبر سبحانه أن الأرض غير ضيقة، وأن المسلم يخرج إلى ما وسَّع اللَّه من أرضه.

قالوا: بلى؛ يعني: أنهم تركوا الهجرة مع القدرة.

(﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾).

ليس كل ٱستضعاف عذراً

العذر المقبول في التخلف عن الهجرة

ولهذا ٱستثنى المستضعفين (﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾)، ثم بيَّنهم - ليس كل ٱستضعاف عذراً - فبيَّنهم بقوله: (﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾) من فراق المشركين؛ ليس في أيديهم حيلة.

وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

مفهومُ ﴿حِيلَةً﴾

﴿حِيلَةً﴾ نكرة؛ يعني: ولا أقل حيلة، لا حيلة لهم في أن يبرزوا إلى غير البلد، ولو قُدِّر أنهم يستطيعون الخروج ما دلُّوا الدرب[1].

ومفهوم ﴿حِيلَةً﴾: أنهم لو أدركوا أدنى حيلة ولم يخرج وترك؛ فهذا غير معذور؛ لأنها نكرة، إنما المعذور الذي لا يستطيع حيلة أبداً ولا يهتدي لو خرج.

(﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾) ولا يستطيعون سبيلاً للخروج، لا يدلُّون[2]، ولو ٱحتاجوا إلى الغير ربما يُلبِّس عليهم.

فهذا هو المعذور؛ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

عسى من اللّه واجب

(﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ﴾) عسى من اللَّه واجب (﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾) يعني: عن كلٍّ فضلاً وعدلاً؛ عفا عنهم تعالى، (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾).

دلالة الآية

فهذه الآية واضحة في وجوب الهجرة، وأنه لا يُعذر إلا مَنْ لا يستطيع حيلةً من الحيل، والذين يستطيعون؛ مَن له ٱستضعاف لا يمنعه، فإنه واجب عليه.

---

(١) أي: ما عرفوا الطريق.

(٢) أي: لا يعرفون الطريق.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ . . . .

التفصيل في حكم الهجرة

ثم عند معرفتكم هذا الواجب، ونعرف أنه في حق مَنْ لا يستطيع إظهار دينه، أما مَنْ لا يبالي بهم - إما لقوة فيه، أو جماعة - فهذا ما هي بواجبة في حقه؛ بل مستحبة مخافة الفتنة.

ثم إن بعض الناس يستثني ٱستثناءً آخر، وهو: أنه إذا كان داعياً يُرجى نشرُه ونفعه؛ فقد يستحب.

ضابط إظهار الدين

وإظهار الدين ما هو بالصلاة؛ بل هو إظهار التوحيد، وأنه دين اللَّه، وأن ما سواه هو دين الكفر، ويُصارَح لهم بالعداوة، ولكن قليل من يظهر الدين، وقليلٌ الداعي له، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ هذا لا بد من التصريح به، وأن يعرفه المشركون من المسلم حقيقةً لا دعوى؛ فإنه يجوز له المقام، والهجرة أفضل، فإنه قليلٌ ما هُمْ، كما أن من يظهر الدعوة أقل وأقل.

دليل ثانٍ على الهجرة

(وَقَوْلُهُ تَعَالَى) هذا دليلٌ: (﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾) هذه من أدلة الهجرة أيضاً.

يريد المصنف أن هذا دليلٌ آخر على وجوب الهجرة؛ الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ

إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ۞ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

وهذا من آية العنكبوت ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ناداهم اللَّه بٱسم الإيمان، فما قال: «يا أيها الناس».

(﴿إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ﴾) أخبر تعالى أن أرضه التي خلقها للعبادة - التي خلقها لعباده يعبدونه فيها - غير ضيقة، فمن لم يمكنه أن يعبد اللَّه تعالى ويقوم بالواجب في أرضٍ؛ فالأرض واسعة - ليست مكة وحدها ـ، فيخرج إلى ما وسَّع اللَّه من أرضه.

(﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾) فٱعبدوني فيما وسَّعت منها.

حكم ترك الهجرة

فدلَّت على: وجوب الهجرة، وعلى أن تاركها مرتكب كبيرة.

قَالَ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللَّهُ بِٱسْمِ الإِيمَانِ».

(**قَالَ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللَّهُ بِٱسْمِ الإِيمَانِ»**) الذين آمنوا فإنهم ليسوا بكفار؛ بل مسلمين مؤمنين، وترتَّب في حقهم الإيمان، فليسوا بكافرين؛ فإن الكافرين ليسوا مخاطبين بالهجرة بعد.

من أسباب ترك الهجرة

يقول عنهم: هم مسلمون يدينون بدين الإسلام، ولكن ما هاجروا، واحدٌ مشقةً بوطنه، وواحدٌ بعشيرته؛ لضعف الإيمان تقوَّى عليه الشيطان، ومن كان إيمانه قوياً خرج.

حكم تارك الهجرة

يعني: فيدل على أن تارك الهجرة ليس بكافر، وكون عليه معصيةُ تركِ الهجرة لا يجعله كافراً، ولهذا في آية النساء: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ٱستثناؤهم يفيد أنه مرتكب كبيرة، مثل: ما قال في آكل أموال اليتامى.

المقصود: أنها كبيرة.

خلاصة فوائد

فعرفنا: دلالتها على الهجرة، وعلى أن تاركها ليس بكافر.

وعرفنا: وجوب الهجرة، وأنها لم تنقطع، أما حديث: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ»؛ فإن أناساً في مكة أرادوا الهجرة بعدما فُتحت ... إلخ.

. . . .

بقاء الهجرة ببقاء جهاد العدو

وبقاء الهجرة ببقاء جهاد العدو - والعدو يتقاتل[(١)] - والحديث الآخر: «الجِهَادُ مَاضٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لَا يُبْطِلُهُ عَدْلُ عَادِلٍ وَلَا جَوْرُ جَائِرٍ»[(٢)].

المراد بحديث «لا هجرة»

فالمراد بـ «لَا هِجْرَةَ»: المراد من مكة إلى المدينة، فهي جواب سؤال خاص؛ أن حكم المهاجر من مكة إلى المدينة - الحكم يدور مع العلة - المراد: قبل أن تكون بلد إسلام، أما لما كانت بلد الإسلام؛ المعنى: بقي عليكم الجهاد ونفيركم، والنية الصالحة في الإسلام، وإذا ٱستنفرتم فٱنفروا.

---

(١) أي: مع المسلمين.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجور، رقم (٢٥٣٢)، من حديث أنس رضي الله عنه.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ؛ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

الدليل على الهجرة من السنة

(وَالدَّلِيلُ عَلَى) وجوب (الهِجْرَةِ)، وأن وجوبَها مستمرٌّ (مِنَ السُّنَّةِ) حديث: (قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[(١)]).

مدلول حديث الهجرة

وهذا دليلٌ على أنه ما نُسخ ولا ينتسخ أبداً.

ولهذا في الحديث الآخر: «بَاقِيَةٌ مَا قُوتِلَ العَدُوُّ»[(٢)]، والعدو مقاتلته إلى آخر الزمان.

وجوب الهجرة مستمر إلى يوم القيامة

فدلَّ على: أنه مستمرٌّ وجوبُها، وأنها مستمرة، وأنها لا تنقطع حتى تنقطع التوبة، والتوبة لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، فإنها إذا طلعت آمنوا جميعاً فلا ينفعهم ذلك الإيمان.

التوبة لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها

أدلة أخرى على بقاء الهجرة

وقد دلَّ على هذا المعنى أحاديث: «الهِجْرَةُ وَاجِبَةٌ مَا قُوتِلَ العَدُوُّ» يعني: ما دام الجهاد باقياً وأنَّ هنا كفاراً يُقاتَلون، ومن

---

(١) أخرجه أحمد، رقم (١٦٩٠٦)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟، رقم (٢٤٧٩)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد، رقم (٢٢٣٢٤)، عن عبد اللَّه بن السعدي، ولفظه: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ مَا قُوتِلَ العَدُوُّ».

. . . .

المعلوم: أن الجهاد ماضٍ لا يبطله جور جائر، ومن المعلوم: حديث «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ؟ قَالَ: لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا»[1]، وحديث: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ؛ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ»[2] الحديث، وغيره من عدة أحاديث، كلها دالة على ٱستمرار وجوبها إلى يوم القيامة.

خلاصة فوائد

المقصود: عرفنا من الآية وجوب وفرضية الهجرة، وأن تاركها مؤمن لكنْ مرتكبٌ كبيرة.

وعرفنا من الحديث: أنها واجبة، وأن وجوبها مستمر إلى قيام الساعة.

وعرفنا: الجواب عن قوله: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»، وسبب قوله: «لَا هِجْرَةَ» أن مكة بَعْدَما فُتحت - أن حكم الهجرة من مكة إلى المدينة واجب - فبيَّن أن حكمها قد ٱنقطع؛ لكونها وقعت بلاد إسلام، «وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا ٱسْتُنْفِرْتُمْ فَٱنْفِرُوا» هذا خطاب لأهل مكة؛ يعني: ولكن بقي في حقكم «جِهَادٌ وَنِيَّةٌ» صادقة مع المسلمين «وَإِذَا ٱسْتُنْفِرْتُمْ» في الجهاد «فَٱنْفِرُوا».

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من ٱعتصم بالسجود، رقم (٢٦٤٥)، والترمذي، أبواب السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، رقم (١٦٠٤)، من حديث جرير بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

. . . .

حكم السفر إلى بلاد المشركين

مسألة السفر إلى بلاد المشركين:

لا يجوز إذا لم يتمكن من إظهار دينه، والتجارة لا تزاحم الدين؛ بل لا بد من إظهار الدين، ولا تُخْرَم واجبات الدين، المصالح في كل مكان، ما ضاقت الأرض، وقد جعل اللَّه الرزق في كل مكان، وإن كانت تتفاوت الأرزاق والأسباب لها، ولكن الأرض فيها معايش - في أي أرض - ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ؛ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ - مِثْلُ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، ....

الشرائع فرضت في المدينة إلا الصلاة

(**فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ؛ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ**) الشرائع تقدم أنها ما شُرعت إلا بالمدينة، وتقدم أن الصلاة مشروعة قبل؛ فإنه بمكة فرضت عليه الصلوات.

أما الحج، والزكاة، والصوم - والأذان: فإنه لم يُشرع إلا بالمدينة - والجهاد، وكافة شرائع الإسلام؛ ما شُرعت إلا بالمدينة، ولهذا تجد الآيات التي فيها الأحكام؛ تجدها في السور المدنية.

(**مِثْلُ: الزَّكَاةِ**) الزكاةُ مدنية، ذاتُ الأنصاب والمقادير المعروفة.

(**وَالصَّوْمِ**) وصومُ رمضان كذلك في المدينة؛ ما فُرض على النبي ﷺ إلا في السنة الثانية.

(**وَالحَجِّ**) في المدينة؛ بل في آخر حياة النبي ﷺ؛ ما فُرض إلا في آخر حياة النبي ﷺ.

(**وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ**) ما شُرع إلا في المدينة.

أَعْرَفُ المعروف وأَنْكَرُ المنكر

(**وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ**) يعني: المتبادر إلى الذهن؛ وإلا فأَعْرَفُ المعروف التوحيد، وأَنْكَرُ المنكر الشرك؛

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ - أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ.

فإنه يتبادر النهي عن المنكر: المحرمات - كالمسكر، ونحو ذلك -، والمشروعات: التي غير التوحيد.

منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والمراد: عامة المعروف وعامة المنكرات؛ فإنه جنسٌ مستقل، وبعضهم يُلحِق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأركان الإسلام، كما أن الجهاد بعضهم يُلحقه بأركان الإسلام.

المراد: أنه ما شُرعت إلا بالمدينة؛ ما شُرع بمكة إلا الشيء القليل.

والمصنف ذكر ما هو من أهمها؛ بعضه من أركان الإسلام - كالزكاة، والصوم -، وبعضه من مهمات الدين - وإن لم يكن من أركانه -؛ فذروة سنامه: الجهاد.

ثم قال بعد ذلك: **(وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ)** الكثيرة، إلى غير ذلك من شرائع كثيرة بالمرة، يعرفها الإنسان من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

عرفنا: أن هذا من جملة معرفته ﷺ.

تفصيل حياة النبي ﷺ بعد البعثة

(أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ)، وهذا في الحقيقة يرجع إلى تفصيل ما سبق؛ أن مدة ما مكث في مكة ثلاث عشرة سنة: عشر قبل المعراج، وثلاث بعد المعراج، وعشر في المدينة يوحَى إليه بقية الشرائع في المدينة؛ بل كافة وعامة وأكثر الشرائع

وَتُوُفِّيَ ﷺ وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ.

إنما أُوجِبت عليه وأُمر بها في المدينة، إنما في مكة شيء قليل، في مكة قيامه وغايته إنما هو بالأمر بالتوحيد والدعوة إليه، والنهي عن الشرك والتحذير منه.

فهذا عرفناه من حياة النبي ﷺ ومن حاله.

خلاصة فوائد

فهذا كله من جملة معرفته؛ معرفة تأريخية، ومعرفة دينية.

وكان عُمُر المصطفى ﷺ ثلاثاً وستين:

أربعون قبل البعثة.

وثلاث وعشرون بعد البعثة؛ وهذه ٱنقسمت إلى قسمين:

- قسم بمكة، وهو ثلاث عشرة.

- وقسم في المدينة، وهو عشر.

والذي بمكة قسمان:

- قسم: قبل فرض الصلاة، كلها في الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك.

- والقسم الآخر: أوحي إليه بعض شرائع الإسلام كالصلاة[١].

---

(١) قال الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلت: وأيضاً هو في الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك».

وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ.

وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ: الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ.

المقصود: عرفنا أن هذين السطرين أنها من جملة بَحْثِ معرفته ﷺ التي هي أحد أصول الدين الثلاثة:

أحدها: معرفة الرب.

والثاني: معرفة دين الإسلام.

والثالث: معرفة النبي ﷺ.

وجنس معرفته ﷺ أصل عظيم؛ لأنه هو الواسطة في التبليغ، فكانت معرفته أمراً عظيماً؛ فإن طريقنا إلى ربِّنا في معرفتنا ما خُلقنا له: هو ﷺ، فإن به عَرَفنا أن اللَّه عرَّفنا بما خُلقنا له على لسان محمد ﷺ؛ فكانت معرفته هي الأصل الثالث.

ومعرفته ﷺ تشتمل على أشياء وأمور عديدة، وعَرَفنا أنَّ بعضها أهم من بعض، وأنَّ أهم ذلك هو معرفة ما بُعث به؛ فمعرفة الإسلام من معرفته ﷺ؛ لكنه هو أهمها، وهنا ذَكَرَه في جملة معرفته ﷺ.

بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَٱفْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ - الجِنِّ وَالإِنْسِ -؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

عموم رسالة النبي ﷺ

(بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً) يعني: بعث اللَّه نبيَّنا محمَّداً ﷺ إلى الناس جميعهم - عربهم، وعجمهم، أحمرهم، وأسودهم -، (وَٱفْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ - الجِنِّ وَالإِنْسِ -).

الدليل على عموم بعثته ﷺ لجميع الخلق

(وَالدَّلِيلُ) على شمول رسالته، وعموم بعثته للجميع: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾) هذا نداءٌ للناس كلهم (﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾) ويدلُّ على أنه رسول إلى الجن بدليل آخر.

وجه الدلالة من الآية على عموم رسالته ﷺ

فقوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾، و﴿جَمِيعًا﴾، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ كلٌّ منها يفيد عموم رسالته وبعثته.

فهو من جهتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾.

من جهة: ﴿إِلَيْكُمْ﴾، ومن جهة: ﴿جَمِيعًا﴾.

طريقة المصنف في الاستدلال

والنصوص في الباب غير هذا معروفة، وأنتم تعرفون أن مؤلَّف المصنِّف هذا مختصَر جدّاً؛ فيذكر من الأدلة دليلاً واحداً، أو من الكتاب واحداً ومن السنة واحداً؛ تسهيلاً للطالب، ولا سيما في أصول الدين؛ فإنه يحتاج إلى أن يقلل أول مرة،

. . . .

فإذا تقرر الأصل في قلبه أمكنه على معرفة الأدلة، مع أن الواحد يكفي، والكثرة توسُّع.

أدلة أخرى على عموم بعثة النبي ﷺ

وفي الحديث عنه ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي ...» إلى قوله: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1]، وقوله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»[2].

وقوله: «مَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[3]، الدَّال على أن بعثته لليهود والنصارى وغيرهم.

فهذا أيضاً من جملة معرفته ﷺ.

خلاصة فوائد

سبق لنا الأصل الثالث: معرفة نبينا ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التيمم، رقم (٣٣٥) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما، وتمامه: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار».

. . . .

من خصائص النبي ﷺ

ومن جملة معرفته: أن رسالته عامة لجميع الناس، وهذه خاصة له؛ فإن كلَّ نبيٍّ بُعث إلى قومه، والنبي ﷺ إلى عموم الناس؛ بل وإلى الجن والإنس.

ومعرفةُ أنه رسولٌ إلى الناس كافة.

ومن أهل الباطل من يقول: إلى العرب، ومنهم من قال: إلى أهل الحجاز، كما أن من اليهود والنصارى من لا يؤمن برسالته أصلاً.

وَكَمَّلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ؛ . . . .

كمال الدين من جميع نواحيه

(وَكَمَّلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ) يعني: أن اللَّه تعالى كمَّل بنبينا محمد ﷺ؛ يعني: لم يتوف إلا بعدما كمَّل اللَّه به الدين وبلَّغ البلاغ المبين، بمعرفته ﷺ تماماً أن يعرف أن اللَّه كمَّل به الدين، لم يمت إلا وقد كَمُل به الدين من جميع نواحيه؛ لا من ناحية الاعتقاد، ولا من ناحية العبادات، ولا من ناحية الأحكام، ولا من ناحية السياسة.

الأدلة على كمال الدين

وقد تقدم لكم ذكر شيء من الأحاديث الدالة على شيء من ذلك؛ قوله ﷺ: «تَرَكْتُكُم عَلَى البَيْضَاءِ»[(١)]، وحديث: «مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ»[(٢)]، وحديث: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَه عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»، وقول أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُحَرِّكُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْماً»، ولمَّا قيل لسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ، قَالَ: أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم (١٧١٤٢)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم (١٦٤٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ».

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»[١]، ومعناها: آداب التخلي، حتى آداب التخلي؛ فكيف غير؟ فيكون علَّمهم كلَّ شيء تحتاجه أمته، ودليل أن محمداً رسول اللَّه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فهكذا كانت حاله - صلوات اللَّه وسلامه عليه -؛ أنه ما ترك شيئاً إلا وبيَّنه، فكملت به النعمة والدين.

الدليل من القرآن على كمال الدين

(**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**) وأنزل اللَّه عليه في آخر حياته: (﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾) هذه نزلت عليه ﷺ في آخر حياته، نزلت عليه - صلوات اللَّه وسلامه عليه - في حجة الوداع سنة عشرٍ، في يوم عرفة.

متى نزلت الآية؟

في أفضلِ يومٍ، في أشرفِ موقفٍ، أُنزل عليه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

هذا قبل وفاته بنحو من ثمانين يوماً، فإنه عاش بعد ذلك شهر محرم وصفر، وتوفي في أول ربيع الأول؛ هو توفي - صلوات اللَّه وسلامه عليه - في ربيع الأول في أوله، لم يعش بعدها إلا قريباً من ثمانين يوماً.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢).

. . . .

خلاصة فوائد

فهذا يدلُّ على أنه ما مات إلا وقد كمَل به الدين إلى النهاية، فما توفي رسول اللَّه ﷺ إلا بعد ما كمَل به الدين، وبلَّغ البلاغ المبين.

وعرفنا: أنه في كلِّ شيء حتى النهاية.

كمال الدين يَرُدُّ على أهل البدعة

وكون اللَّه كمَّل به الدين؛ يرد بدع المبتدعين القائلين: إن الدين يحتاج إلى كذا - فما مات إلا ولم يبق كمال، والمبتدعة أفسدوا الدين ـ، ولا يقولونه بلفظهم، لكن بفعلهم، لا يستقيم إلا على القول بأن الدين كامل، فالدين كامل - هذا كتاب اللَّه وسنةُ رسوله ﷺ، لم يُتوفَّ إلا وقد كمل - هو ما في الكتاب والسنة.

مدلول الآية

ففي هذه الآية: بيان أن اللَّه أكمل لنا الدين، وأنه كمُل من جميع وجوهه، فمن ٱدعى أنه يحتاج إلى زيادة؛ فقد كذب وٱفترى، ورد مدلول هذه الآية.

وَالدَّلِيلُ عَلَى وَفَاتِهِ ﷺ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

الدليل على وفاة النبي ﷺ

(وَالدَّلِيلُ عَلَى وَفَاتِهِ ﷺ) وأنه مات ﷺ، وأتاه اليقين من ربه، ونال حظه الذي يناله البشر: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾)، والآيات على وفاته ﷺ معلومة، والوجود والحس والإجماع - الذي هو كالشمس - على أنه توفي شيء معلوم معروف.

بقاء ما جاء به الرسول ﷺ

أما ما جاء به فهو باقٍ، وجسمه جاءه الموت؛ من الدليل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ يعني: ستموت، فمات كما أخبر اللَّه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾.

النبي ﷺ حي في قبره حياة برزخية

نعم؛ هو حيٌّ في قبره حياةً برزخيةً أكمل من حياة الشهداء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

موت النبي ﷺ موتاً جسمانياً

وأما الحياة الجثمانية؛ فلا، فمات ﷺ، وغُسِّل، وكُفِّن، وصُلِّي عليه، ودفن بضريحه الشريف - صلوات اللَّه وسلامه عليه -، ولم يقل أحد: إنه لم يمت، إلا المبتدعة الخارجين عن الكتاب والسنة؛ فإنهم قالوا ذلك ٱستناداً إلى أصل فاسد، فأنكروا موته مخافة أن يَنْتقض عليهم، وإلا فمعلوم موته ﷺ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾،

الرد على أهل الباطل

وهذا من العلم المعلوم المتواتر المشهور المستفيض عند الناس،

. . . .

يعلمه العام والخاص؛ أنه ﷺ توفي، وأنه ميت وليس حيّاً في قبره حياة جثمانية.

الفرق بين الحياة البرزخية والجسمانية

وتقدم لك أنه في البرزخ حي حياة برزخية لا جسمانية، فإنه حاشاه أن يكون حيّاً، ثم مع ذلك أنه في الضريح وعليه ما عليه مما عليه من الأضرحة؛ بل مات ﷺ، وهذه الحياة البرزخية التي هي أكمل مما في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فوق، له من هذه الحياة أكملها وأعلاها، أما الذي مثل حياتنا هذه - يأكل، ويشرب، ويمشي، وكذا -؛ فلا، فإنه قد توفي، وجرت عليه سنة اللّه من الوفاة؛ لقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وغير ذلك من الآيات.

ثم الذين قالوا - فهم قالوا حي - على قسمين:

أقسام القائلين بحياة النبي ﷺ الجسمانية بعد موته

قسم يحسبون أن الموت نقص، وهم ما دروا أن اللوازم البشرية آتية على البرية، وهذا ليس نقصاً؛ بل كمال.

وأما الذين يقولون: إنه حي - وهم القسم الآخر -؛ فهم ناس قالوا بقول باطل في النبوات خشية الإخلال بتلك الأصول؛ فضلوا وتركوا الكتاب، فلم يسعهم على أصولهم إلا أنه حي الحياة الجثمانية؛ فردوا النصوص والمحسوس والمعقول.

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛ ....

خاتمة «ثلاثة الأصول» في ذكر أصولٍ شرعية

(وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ) من هنا كمَل ما يتعلق بمعرفته ﷺ؛ فإن الأصول ثلاثة:

- معرفة اللَّه - وتقدم لكم ذلك إجمالاً، وتفصيلاً -.
- والثاني: معرفة دين الإسلام.
- والثالث: معرفة النبي ﷺ - وتقدم إجمالاً، وتفصيلاً -، ٱنتهى.

بعدما ٱنتهى مما تقدَّم ذَكَر أصولاً شرعية.

الإيمان بالبعث ومنزلته

وأهميته: فهو زائد بالنسبة إلى الأصل الثالث، وإلا فقد يعود إلى الأصول السابقة؛ فإنه من جملة الإيمان، لكن لما كان أمر البعث هاماً؛ جاء المصنف وكرر، فإنه أصل مستقل، وإن كان قد دلَّ عليه دليل أصول الإيمان الستة.

والإيمان باليوم الآخر: هو الإيمان بالبعث، ومن المعلوم أنه يشمل أكثر من البعث، لكنَّ أهمَّه البعث؛ فإنه الذي ينكره قريشٌ وأضرابُهم، ولهذا ذُكر في القرآن؛ والحديثُ في رواياته: «البعث»، ويقرر تعالى ذلك بقدرته وعلمه.

الحاصل: أنه وإن كان من أصول الإيمان الذي هو داخل في الأصل الثاني، فإن الجاهليين لا يعرفون كمال علمه بالكبائر والصغائر، وهو تعالى كامل القدرة، فإنَّ تفرُّقها ما تضر؛ فهو مما في علم اللَّه وقدرته.

. . . .

الحكمة من البعث

هذه الأجسام - لحومُها، وأعصابُها، وعظامُها - تعود كما كانت، وتُردُّ له تلك الروح؛ ليجازى على ما عمل من خير وشر؛ فإنَّ الذي عمل الخيرات فإن اللَّه لا يضيع عمله، وكذلك هذه الروح يجازيها بكمال فضله وعدله وجوده، وإن كان عاصياً فلا يجازى جسد ما عصى؛ بل ذلك الجسد نفسه، وترد إليه روحه.

(يُبْعَثُونَ) يعني: ليجزيهم بأعمالهم.

الإيمان بالبعث أهم أمور الإيمان باليوم الآخر

والإيمان بالبعث والنشور من القبور من جملة الإيمان باليوم الآخر، بل هو أهم أمور الإيمان باليوم الآخر؛ فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل: الإيمان بالبعث؛ بل هذا هو معظم الإيمان باليوم الآخر.

حقيقة البعث

الأجسام التي كانت منها الطاعات أو المعاصي تبعث وتجازى على عملها؛ فتجزى بالإحسان الذي صدر منها، وكذلك العكس إذا كانت عملت السوء، فتبعث وتجازى على تلك الإساءة، وهذا هو الذي كان ينكره أهل الجاهلية.

ما أنكره أهل الجاهلية

وأهل الجاهلية ما ٱستبعدوا إلا إعادة هذه الأجسام بعينها، أنكروا أن تعود هذه الأجساد كما كانت - عظامُها ولحمُها وأعصابُها -، وذلك من جهلهم بكمال علمه تعالى وقدرته على كل شيء، فإن اللَّه خلق آدم أبا البشر من طين، ولهذا يقرر

. . . .

تقرير البعث بكمال العلم والقدرة

تعالى بَعْثَ الأجسادِ وردَّها كما كانت في مواضع من كتابه بكمال علمه وقدرته، ولهذا قرر اللَّه ذلك بأمور: فقرره بكمال قدرته وعلمه في سور من القرآن، كصدر (ق)، وكما في سورة (القيامة)، وآخر سورة (يس)، وغيرها من السور.

وفي آية (يس): ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ يعني: صارت رمماً بالية.

من دلائل البعث

مِن جهل الجاهلية ٱستبعدوا بعثها وقد كانت كذلك؛ فقرر أن ذلك عليه يسير بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾ فالإعادة أهون من البداءة، والكلُّ سهلٌ عليه، وهو أهون عليه سبحانه وتعالى.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ هذا تقريره بالعلم.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ ضرب لهم مثلاً فيما يشاهدونه ويعاينونه ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾ العَفار، والعوشز، والمرخ ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ معروف؛ يعني: ما دام رطباً ﴿نَارًا﴾ فيه نار، ثم تجد فيه ماء يسيل، فالنار حارة يابسة أخرجها من بارد رطب، يعني: فيقدر على إعادتها باردة رطبة.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تُولِّعون وتشبُّون، وهو من ماء!

. . . .

ثم ٱنتقل إلى آخر فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ قرر البعث بكمال القدرة، ﴿بَلَىٰ﴾ هو قادر، ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ثم قرره بدليل آخر: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أن يكون، ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قال له هذه الكلمة فيكون، ولا يحتاج تكراراً لكمال قدرته، ولكون كلٍّ يأتيه طائعاً، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

ثم قال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يدبرها كل التدبير وجزئيه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

بهذه الأمور وما يشبهها يقرر تعالى بعث الأجساد، وردَّها كما كانت.

وكما في صدر سورة (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، وغير ذلك من مواضع؛ يقررها بكمال قدرته، وعلمه، ونحو ذلك.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾.

دليل البعث

(**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾**) يعني: من الأرض (﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً﴾) مرة (﴿أُخۡرَىٰ﴾) غير الأولى.

وجه الدلالة

والضمير للآدميين في كليهما، فكما أن الكاف في ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ شامل للعظم واللحم والعصب والشعر وجميع الأجزاء؛ فالكاف الثانية تتناول جميع ما تناولته الأولى من جميع أجزائه.

دليل آخر على البعث

(**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾**) يعني: منها؛ فعرفنا أنه هو الذي يُعاد ويُخرَج ثانية.

البعث من جملة الإيمان باليوم الآخر

المراد: أن البعث والنشور من القبور من جملة الإيمان باليوم الآخر - الذي هو أحد الأصول الستة -.

المراد بالبعث

والمراد بالبعث: بعث هذه الأجساد الجديدة، تُردُّ إليها أرواحها فتُبعث، لا جسداً جديداً.

ما ٱستبعده أهل الجاهلية

والجاهلية ما ٱستبعدوا إلا هذه المسألة، يُقرُّون بمكونات جديدة فهم يعرفون هذا بعقولهم وفطرهم، فهم إنما ٱستبعدوا أن هذه الأجسام تُبعث بعد ما تكون رِمَماً وتراباً؛ ولهذا ردّ اللّه عليهم بالبداءة على الرجعة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾.

. . . .

الاستدلال بالبداءة على العودة

ولهذا في الحديث الصحيح: «كَذَّبَنِي ٱبْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً»؛ فهذا ٱستدلال بالبداءة على العودة، إذا كان أوجدها قبل ألا تكون شيئاً؛ فإن الإنسان ما وُجد شيء من أجزائه في العالم أبداً.

الرد على أهل الجاهلية

أكثرُ ما يُعلِّل به أهل الجاهلية، ردَّها بقوله: إنه عالِمٌ. وكونها أجزاءً: القدرة كاملة للإعادة.

ثم عُلِّل بأنها فقدت الرطوبة؛ فردَّ اللَّه عليهم بأن اللَّه يأتي بالضد من ضده، فإن اللَّه قادر على أن يعيد إليه جنس الرطوبة والحرارة إن كان قد يَبِس.

وقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ﴾، فإذا قدر على الأكبر فمن باب الأولى على الأصغر.

المقصود: أن من أدلة الرجعة: البداءة؛ كونه هو الذي بدأ الخلق وأبدعه بعد أن لم يكن، فالإعادة أهون من البداءة.

خلاصة فوائد

فعرفنا أموراً:

كمال الدين من جميع الجهات

أحدها: أن الرسول ﷺ ما توفي إلا بعد ما أكمل من جهته عقائده وأحكامه وسياسته؛ فإنه جاء يُكمِّل السياسة، فإنه لا

. . . .

سياسة فوق كل السياسة، فإنه جاء بالسياسة التي ما من مَلِكٍ يفقدها إلا ويَفْسُد، ولكن أربابه لجهالتهم ٱستولت عليهم تلك الأمور - كالأعمى لا يُميِّز شمساً من ظل -، فكذلك أولئك الذين فقدوا البصائر - هذا النظام - فأفسدوا البلاد والعباد، وحاشوا فيها غش الحمير والكلاب، والحمير عايشة فكذلك الكفرة؛ وتجد في تصاريفهم من التدافع.

فالرسول ﷺ كمَّل اللَّه به الدين، لا يقال: إنما جاء به الرسول نجاة في الآخرة، وإلا فهناك مصالح دنيوية؛ بل هذه وهذه، حتى الجزئية، لا صلاح للناس إلا بما جاء به الرسول ﷺ.

وعرفنا أمراً آخر؛ وهو: دليله.

ثم هذا اليوم؛ أنه يوم عرفة، قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر.

هذه ثلاث هامة.

وعرفنا: الدليل على وفاته.

وعرفنا: الإيمان بالبعث، وأنه لهذه الأجسام؛ تُعاد كما كانت، وتُرد إليها روحها للمجازاة بما عملت.

. . . .

والدليل على بعثها قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، ودليلٌ آخر، وهو: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

الإيمان بالحساب على الأعمال - حسناتها، وسيئاتها، وعددها - والمجازاة عليها من جملة الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان بالجزاء والحساب

(وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ) وبعد هذا: الإيمان بالجزاء والحساب، فإنه من أهم الإيمان باليوم الآخر؛ عملتَ كذا في يوم كذا - حتى يُقر ويُذعن -، فلو جحد نطقت الجوارح ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

(وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ) يعني: إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

الدليل على الجزاء والحساب

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: كل ذلك.

(﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾) عدلاً.

(﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾) يعني: فضلاً.

محاسبة المسلمين

ومن المهمات: الإيمان بالمحاسبة، فالمسلمون يحاسَبون للآية هذه وغيرها.

محاسبة الكفار

وأما الكفار، فقيل: لا يحاسَبون أبداً.

. . . .

وفصل النزاع أن يُقال: إنهم يُحاسبون لا محاسبة من تُوزن حسناته وسيئاته؛ بل تُحصى وتُعد، ثم يُوقفون عليها، ويُقرَّرون بها، ويُجزون بها، كما قال في العقيدة[١].

الجزاء على الأعمال السيئة

الجزاء على الأعمال[٢] لا بد منه، إن لم يُغْفَرْ له ويرحمْ من المسلمين.

وأما الكفار فلا يغفرُ لهم.

أما التي من الموحدين؛ فقد يُعذَّبون عدلاً، وقد يُعفى عنهم فضلاً، وكَونُ قسمٍ كذا، مَن يعلم اللَّه مِن أحوالهم؛ منهم من يرى أن الفضل عليه أنسب، ومنهم من يرى العدل أنسب.

---

(١) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية، ينظر: العقيدة الواسطية، ضمن «متون طالب العلم» (ص ٥٢٤ - ٥٢٥).

(٢) أي: السيئة.

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفرَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ ....

حكم من أنكر البعث

(وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ) وأنكره؛ (كَفَرَ) وذلك لتكذيبه اللَّه ورسوله وإجماع المسلمين.

فمن كَذَّبَ بالبعث وأنكره فهو كافر؛ لجحده أصلاً من أصول الإيمان، ومنه: قول بعض الكفرة، الذين يقولون: لا يُعاد إلا الروح.

الدليل على كفر منكر البعث ووجه الدلالة

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾) فأسند هذه المقالة إلى الكفار؛ فدلَّ على أن المكذِّب به كافر.

مدلول ﴿زَعَمَ﴾

قوله: ﴿زَعَمَ﴾ هذا تكذيب لهم، وأن ما قالوه باطل وضلال.

من معاني: ﴿زَعَمَ﴾

والزعم تستعمل كناية عن كَذِبِ قول القائل، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «كُنَّا لَا نَرَى بِالخِبْرِ بَأْساً حَتَّى كَانَ عَامُ أَوَّلَ، فَزَعَمَ رَافِعٌ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ»[(١)].

وقد تُستعمل بمعنى: قال؛ من ذلك حديث: «زَعَمَ رَسُولُكَ»[(٢)] وهذا الرجل مؤمن، وإنما أراد أن يسمع من الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البيوع، باب كراء الأرض، رقم (١٥٤٧).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في بيان الإيمان باللَّه وشرائع الدين، رقم (١٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

فقوله: ﴿زَعَمَ﴾ يعني: قال، وإلا فوضعها تثبُّتٌ لِمَن يقول قولاً لم تركن إلى تصديقه؛ إما مكذِّبه، أو عندك في قوله شك.

والتعبير بالزعم: تكذيب لما ذكروه؛ بل هم مبعوثون ولا بد.

وجه الدلالة من الآية

فكفَّرهم بإنكارهم للبعث - في زعمهم أن لن يبعثوا -، وكفَّرهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فدلَّ على أن إنكار البعث كفر، وهو من أعظم كفر أهل الجاهلية.

(﴿قُلْ بَلَىٰ﴾) يعني: سيبعثون، فـ ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة تصديق؛ كنعم.

(﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾) أقسم جلَّ جلاله على البعث؛ أنهم مبعوثون ولا بد.

(﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾) لتُخْبَرُنَّ بما عملتم.

الاستدلال بالبداءة على العودة

(﴿وَذَٰلِكَ﴾) يعني: البعث (﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾) يعني: سهل عليه هين جدّاً، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، البدء بدء الخلق بكمال قدرته، ولا أعجزه ولا أكرثه[1]؛ بل أسهَلُه، فإذا كان الابتداء أهون شيء فالإعادة أهون، كما في الأخرى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

إذا كان هذا النوع الإنساني في العدم لم يوجد، ثم أوجده

---

(١) أي: ولا شقَّ عليه. يُنظر: الصحاح (١/ ٢٩٠).

. . . .

اللَّه وذراريه من الماء المهين، ثم جعل هذا التناسل فيه؛ فإنه لا يعجزه شيء أن يعيدهم وهو الذي أبدعهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية، وفي الحديث: «كَذَّبَنِي ٱبْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي ٱبْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»[1].

فالآية واضحة في تكفير منكري البعث.

خلاصة فوائد

وعرفتم - فيما سبق - أنهم أنكروا بعث هذه الأجسام بعينها، فأقسم تعالى أنهم مبعوثون ولا بد، وأنهم مُجْزَوْن بأعمالهم، وفي آياتٍ قرر ذلك بالعلم - كما تقدم -.

وعرفنا: أن من جحده؛ أنه كافر من أكفر الخلق، فكفَّرهم تعالى، فدلَّ على أنه من عقائد الكفار؛ بل من أبلغها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ ، رقم (٤٩٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ . . . .

الحكمة من إرسال الرسل

(وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ) من أولهم إلى آخرهم؛ كلهم داعون إلى عبادة اللَّه وحده، وترك عبادة ما سواه.

(مُبَشِّرِينَ) من أجابهم إلى ذلك برضوان اللَّه وكرامته.

(وَمُنْذِرِينَ) ومحذِّرين من عصاهم غضب الربِّ، وسخطه، وعقابه.

يعني: أرسلهم - تعالى وتقدَّس - داعين إلى التوحيد، ومنذرين من أقام على الشرك بعقاب اللَّه؛ ويعني: أنهم بُعثوا بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك.

الرسل جميعهم بُعثوا داعين إلى توحيد اللَّه وترك الشرك به، ومبشرين لمن ترك ذلك برضا اللَّه وكرامته، ومنذرين لمن كذَّبهم بغضب اللَّه وسطوته، منذرين من أقام على ما هو عليه من الضلال بعقاب الربِّ وسخطه.

الدليل على حكمة الرسالة

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾) من أجابهم برضوان الربِّ وكرامته.

(﴿وَمُنذِرِينَ﴾) من عصاهم بعقاب الربِّ وسخطه.

الجمع بين كون الرسل أُرسلوا بالتوحيد وكونهم مبشرين ومنذرين

فيكون لا منافاة لكونهم أُرسلوا بالتوحيد؛ فهم أُرسلوا بذلك، ومبشرين لمن اتبعهم على ذلك ومنذرين، بُعثوا دعاةً إلى التوحيد، ناهين عن الشرك؛ مبشرين من أجاب إلى ذلك برضوان اللَّه، ومنذرين من لم يجبهم - من أقام على ذلك - بعقاب الربِّ وسخطه.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾.

بالرسل قَطْعُ الحجة

(﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾) هذا من فائدة إرسال الرسل؛ لقطع الحجة وإزاحة العلة، فحجة الخلق ٱنقطعت ببعثة الرسل، وقد رَكَز فيهم العقول التي تُميِّز بين الخبيث والطيب، والصدق والكذب؛ كل عاقل في قلبه هذا، وإن تفاوتوا كتفاوتهم في البصر، فكذلك العقل، ولهذا تجده يأتي النافع ويسعى في حصوله، ويبتعد عن الضار، ما دام ما غطى عليه حجاب الشهوات، فحينئذٍ يقع في الورطات[1].

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وفي الحديث: «لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»[2].

أمورٌ ٱنقطعت بها حجة الخلق

حجة الخلق على اللَّه ٱنقطعت بإرساله لهم الرُّسل، وإنزال الكتب، وإقامة الحجج، وتبيين الحق لهم، وركز الفطر في قلوبهم؛ فٱنقطعت بذلك المعذرة، ولم يبق للناس على اللَّه حجة بعد ذلك.

الفرق بين الحجة والمحجة

المحجة: الطريق، والحجة: الدليل، وبينهما ٱشتراك في

(١) أي: في الهلاك. ينظر: لسان العرب (٧/ ٤٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ «لا شخص أغير من اللَّه» رقم (٧٤١٦) بلفظ: «لا أحد أحب إليه العذر من اللَّه، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»، ومسلم، كتاب التوبة، باب غيرة اللَّه تعالى وتحريم الفواحش، رقم (٢٧٦٠) بلفظ: «وليس أحد أحب إليه العذر من اللَّه، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل»، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

. . . .

أصل المعنى؛ لأن الحجة تدلُّك على المحجة؛ فإن المادة لا يُقال للجادة حجة، وأصل المعنى فيهن، فهو ما يُوصلك إلى أصل المطلوب؛ فالمحجة تُوصلك إلى البلد ونحوه، والدليل يُوصلك إلى المطلوب.

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ....

أول الرسل

(وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ) هو أول رسول من بني آدم أرسل إلى الأرض؛ لأن الكفر أول ما وجد في بني آدم في قوم نوح - لأن الناس عشرة قرون كانوا على الإسلام - بسبب الغلو في أهل الصلاح وتجاوز الحد في محبتهم؛ حبُّوهم أكثر من اللازم - وإلا فمحبة أهل الخير قربة - لمَّا مات أهل الصلاح من بينهم، فلما أسفوا عليهم أسفاً زائداً؛ رأى[1] أنْ قد حصلت له الفرصة فزيَّن لهم التردد، ثم لما حصل له ذلك حصل له شيء آخر، فقال: ألا أخبركم بما هو أنشط لكم وأشوق للعبادة؟ فقال: صَوِّروا تماثيلهم؛ فصوَّروا تلك الصور؛ فصوَّروا وَدّاً وجعلوا صورته في مجلسه، وهكذا، وسُرَّ الشيطان.

مبدأ الشرك

أيضاً ٱنتفعوا بذلك في الدين لكنها بدع، فأضعفت هذا النفع وأبطلته؛ فإنَّ فعلهم هذا ما هو بمشروع.

فلما ٱنقرض ذلك الجيل، وجاء جيلٌ آخر، ورأوا أنها معظَّمة؛ ثم جاء جيل رأى أنها معظمة تعظيماً دِينيّاً، فجاءهم بعدما تأخر الزمن حتى لم يبق من يعرف القصة ولا عندهم علم؛ فزيَّن لهم أنهم كانوا يعبدونهم، فوقع الشرك في بني آدم.

سبب الشرك في بني آدم

فوقع الشرك في بني آدم بسبب محبة الصالحين؛ يعني:

(١) أي: الشيطان.

وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

المحبة الزائدة، وإلا فمحبة الصالحين قربة، وطبع يرجع إلى لِينٍ أيضاً، لكن هؤلاء فعلوا ما ليس من شرط المحبة - فالتردد إلى القبور ليس منها، ولا التصوير -، وإلا فالمحبة في القلوب، والحث على طريقتهم، ونحو ذلك.

آخر الرسل

(وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ) هو آخر رسولٍ أُرسل إلى أهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

الدليل على ختم الرسل بنبينا محمد ﷺ

والقصد من ذلك: قد دلَّ الكتاب والسنة والإجماع على أنه لا نبيَّ بعده.

الدليل على أن نوحاً عليه السلام أول الرسل

(وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾)؛ فدلَّ على أن النبيِّين من بعد نوح.

حال الناس قبل نوح عليه السلام

والعشرة القرون كانوا على الإسلام؛ على الوحي الذي أوحاه اللَّه إلى آدم، وكان فيهم أنبياء أيضاً.

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولاً - مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ - يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، . . . .

الحكمة من إرسال الرسل

(وَكُلُّ أُمَّةٍ) من الأمم (بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولاً) إزاحةً للحُجَّة، وقطعاً للمحجَّة.

أول الرسل وآخرهم

(مِنْ نُوحٍ) أولهم - هو أول رسول من بني آدم أُرسل إلى أهل الأرض -.

(إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ) آخرهم وخاتمهم محمد ﷺ.

من خصائص النبي ﷺ

كل واحدٍ منهم بعثه اللَّه إلى قومه خاصَّة، إلا محمداً ﷺ فبُعث إلى الناس كافة.

شمول الرسالة لجميع الخلق

فما من أمة من الأمم ولا طائفة من الطوائف إلا وقد بعث اللَّه فيهم رسولاً؛ إقامة منه تعالى الحُجَّة على عباده، وأيضاً حالكم[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

حقيقة ما بُعث به جميع الرسل

(يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ) يدعوهم إلى هذا الذي بُعِثْت به الرسل، وكلُّهم دعوتُهم إلى عبادة اللَّه وحده وتَرْك عبادة ما سواه؛ جميع ما أُرسلت به الرسل هو التوحيد، وما سواه من تحريم كذا أو تحليل كذا فهو فروع، وإلا حقيقة ما بُعثت به الرسل هو هذا.

---

(١) أي: أرسل اللَّه إليكم رسولاً.

وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

الدليل على أن التوحيد دعوة جميع الرسل

ودليل ذلك: القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، كل آية واحدة من هاتين الآيتين فيها العموم الواضح أن أول شيء بدؤوهم به قومهم: التوحيد؛ فالجميع بُعثوا بالدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك.

(وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ) يعني: غير اللَّه.

الدليل على أن الرسل بعثوا بالدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾) كل طائفة من الناس بُعث إليهم رسول، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ يرسل إليهم رسولاً بلسانهم الذي يتخاطبون به؛ لتقوم الحُجَّة وتنقطع المحجَّة.

كل رسول يرسله اللّه بلسان قومه

(﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾) يعني: وَحْده، وهو معنى: وحِّدوا اللّه.

وٱعبدوا اللَّه، ووحِّدوا اللَّه؛ معناهن واحد.

(﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾) يعني: ٱتركوا عبادة ما سواه.

معنى الطاغوت لغة

والطاغوت: ٱشتقاقه من الطغيان؛ طغى يطغى طغياناً، وهو: مجاوزة الحد، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ في قصة غرق قوم نوح؛ طغى: تجاوز حده.

. . . .

فالطغيان هو مجاوزة الحد؛ هذا أصله في كلام العرب، فصار الطاغوت طاغوتاً؛ لتجاوزه ما حُدَّ له شرعاً إلى أن كان كذا أو كذا - مما يأتي بيانه -.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أبلغ من (ٱتركوا)

ثم في كلمة ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أبلغ من ٱتركوا، يعني: ٱتركوا وكونوا في جانبٍ بعيد، مثل: ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ فلا بد من تركه والبعد عنه كله؛ مزيد تباعدٍ عن الشر.

ما بُعث به الرسل

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هذا فيه بيان ما بُعث به كلُّ رسولٍ إلى أمته ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وهذا معنى لا إله إلا اللَّه؛ فإن لا إله إلا اللَّه لها ركنان: النفي، والإثبات.

آيات بمعنى كلمة التوحيد

فـ (لا إله) نفي جميع ما يُعبد من دون اللَّه، وهو معنى ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

و﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بمعنى (إلا اللَّه)؛ إثبات العبادة للَّه وحده.

وهذا كما في الآية الأخرى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ هو معنى (لا إله).

ومعنى (إلا اللَّه): ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾.

وأيضاً في أفراد الرسل جاءت الآيات؛ كما قال عن نوح

. . . .

وهود وصالح؛ أنَّ أَوَّلَ شيءٍ بدؤوا به قولهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

زبدة الرسالة

فهذه زبدة الرسالة ودعوة الرسل، وبه تَعْرف عِظَمَ شأن التوحيد، ومعرفتك عظمته؛ بأنْ تصرف الهمم إليه ومعرفته والعمل به غاية الٱنصراف، ومعرفة ما يضادُّه، وما سواه من أنواع العلوم الفروعية بعد ذلك.

ما يجب معرفته أولاً

فيهتم الإنسان كلَّ الٱهتمام بمعرفة أصل الدين إجمالاً قبل الواجب من الفروع - كالصلاة، والزكاة، ونحو ذلك -؛ فلا تصح الصلاة ولا الزكاة قبل الأصل، فلا بد من معرفة أصل الدين إجمالاً، ثم معرفة فروعه تفصيلاً، وتقدم حديث معاذ[(١)] أنه لما بعثه إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ...» إلى أن قال: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[(٢)]، وهذا يفيد أنهم إذا لم يعلموا بالدين ولم يعملوا به فلا يدعوهم للصلاة أبداً - إن لم يطيعوه في الدخول في الإسلام -؛ فإن الصلاة ليست نافعتهم وليست شيئاً، فلا يستقيم بناءٌ على غير أساس،

(١) في شرح سماحته - رَحِمَهُ اللَّهُ - لكتاب التوحيد «مخطوط».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم (١٤٥٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩) من حديث ٱبن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

. . . .

ولا شجرةٌ على غير أصل، والصلاة هي عمود الإسلام؛ ومع ذلك لم تفرض إلا بعد التوحيد.

البرهان على أن التوحيد هو الأصل

ومما يبين أن التوحيد هو الأصل: كونه يوجد من يدخل الجنة ولم يُصلِّ ولا ركعة؛ وذلك إذا ٱعتقد الدين وعمل به ومات متمسكاً به؛ كأن يُقتل قبل أن يصلي أو يموت، لا إذا ترك الصلاة أو جحدها؛ فإنه يكفر؛ والصلاة لا تنفع وحدها، ولو صلى ثم صلى وصام وزكّى، إذا لم يعتقد التوحيد.

سبب الهلاك

وما هلك من هلك إلا بترك العلم بالتوحيد والعمل به، وما دخل الشيطان ولا مزَّق عقولهم ولا وقع منهم ما وقع إلا بمجرد قولهم: يكفي في التوحيد مجرد المعرفة! حتى إن من علمائهم من لا يعرف التوحيد أصلاً - والعياذ باللَّه -.

أسباب خفاء التوحيد على بعض الناس

وإنما كانوا لا يعرفونه لكونهم ٱبتلوا بالشرك، وعبادة الأوثان، وتلويث الملوثين، وتشويش المشوشين، وكثرة الشبهات، فبذلك خفي التوحيد على كثير ممن يدَّعي العلم؛ لعدم المعرفة به، وإلا فالتوحيد والشرك من أهون ما يكون وأسهله معرفة؛ الشرك باطل والتوحيد حق إجمالاً، كما في زمن الصحابة؛ فإنهم كانوا يعرفون التوحيد والشرك، فمن يعمل بالتوحيد يترك الشرك، ويعلم أنه باطل منافٍ له، ولهذا لمَّا

. . . .

دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، وأما حين كثرة الشبهات والمشوشات فلا[1].

خلاصة فوائد

فٱستفدنا ما قدَّمه المصنف، فكلُّ أمة بُعث إليهم رسول؛ من أمَّة نوح إلى أمَّة محمَّد ﷺ.

كل أمة بعث فيهم رسول

ما بُعث به جميع الرسل

وفيه فائدة أخرى: وهو ما بُعث به كلُّ رسول، وهو شيء واحد: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾.

ومعنى ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾: يعني ٱتركوا ذلك، وٱبْعُدوا عنه.

الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب

وعرفنا من هذه الآية: الحكمة في إرسال الرسل؛ أنه هو التوحيد، كما أنه هو الحكمة في ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وهو الحكمة في إنزال الكتب السماوية؛ ما أُنزل الكتاب - القرآن وغيره - إلا ليُعبد اللَّه وحده، كما في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يعني: بٱعتقاد وعمل؛ فإن العلم الذي لا يكون معه العمل والٱعتقاد لا ينفع.

فعرفنا: أن هذه الآية من أدلة كون الحكمة في إنزال الكتب هو التوحيد، فإذا كانت هذه الحكمة في إنزال القرآن فبطريق الأولى الكتب السماوية، ومن دليل ذلك: قول اللَّه تعالى:

---

(١) قال الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: فصعبت معرفته والتخلُّص من ضده، واللَّه أعلم».

. . . .

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أُحكمت ثم فُصِّلت؛ لئلَّا تعبدوا إلا اللَّه، وهذا نزل محكماً مفصلاً لـ (لا إله إلا اللَّه)؛ يعني: لئلَّا تعبدوا إلا اللَّه وحده.

فعرفنا: أن الحكمة في إنزال الكتب هو: ألا تعبدوا إلا اللَّه، وهذا هو معنى (لا إله إلا اللَّه) كلمة الإخلاص.

وأظن في القرآن أدلة مثل هذا - أعني: الخاصة -، وإلا فههنا أدلة عامة كثيرة؛ أدلة تدل على أنه الحكمة في إنزال الكتب إزاحة للعلة - يعني: إزالة للتَّعلُّل -؛ يقول: ما جاءني رسول! وقطعاً للمعذرة، لا يُعذر أحد.

وَٱفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ: الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ، وَالإِيمَانَ بِاللَّهِ.

ٱفترض اللَّه على جميع العباد أمرين مجتمعين

(وَٱفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ) ٱفترض اللَّه على جميع العباد - ظاهرٌ كلمةُ جميعِ العباد - **(الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ، وَالإِيمَانَ بِاللَّهِ)** يعني: ٱفترض عليهم أمرين:

الأول: الكفر بالطاغوت.

الثاني: الإيمان باللَّه.

فأحدهما لا يكفي.

معنى: (الكفر بالطاغوت، والإيمان باللَّه)

الكفر بالطاغوت هو معنى: (لا إله).

والإيمان باللَّه هو معنى: (إلا اللَّه).

فعرفنا أمرين:

أحدهما: في معنى (لا إله).

والآخر: في معنى (إلا اللَّه).

يعني: هذين الأمرين أعظم فرضٍ فرضه اللَّه.

الدين أمران

وتقدَّم لكم أن أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك؛ يعني: أعظم فرض هما الأمران - وتقدَّم -؛ بل الدين أمران: الكفر بالطاغوت، والإيمان باللَّه.

قَالَ ٱبْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «الطَّاغُوتُ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ - مِنْ مَعْبُودٍ، . . . .

معنى الطاغوت لغة

وٱشتقاق الطاغوت في لغة العرب: من الطغيان؛ وهو مجاوزة الحد، يقال: فلان طغى؛ يعني: تجاوز حده، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، يعني: تجاوز حدوده.

أقوال السلف في معنى الطاغوت

وللسلف في معنى الطاغوت أقوالٌ وتفاسيرُ عديدة؛ قال عمر: «الطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ» يعني: أنه ما خُلق إلا للعبادة، فأَبَق وتعدَّى حدَّه فعصى.

وقال جابر: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ» تعَدَّوا وزادوا ما ليس لهم به علم.

وقال مالك: «الطَّاغُوتُ: مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» يعني: ومِنْ حدِّه أنه عابدٌ، فجُعل معبوداً.

(قَالَ ٱبْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -) الإمام الشهير، والعَلَمُ الكبير، المحقِّق المدقِّق.

تعريف ٱبن القيم للطاغوت

(الطَّاغُوتُ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ) يعني: كل شيء يتعدَّى به العبد حدَّه في الشرع؛ يصير بهذا الشيء طاغوتاً.

(مِنْ مَعْبُودٍ) مع اللَّه، بأي نوعٍ من أنواع العبادة.

أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ -».

(أَوْ مَتْبُوعٍ) من دون اللَّه في التحليل والتحريم؛ بأن كان يُحرِّم ما أحل اللَّه، ويُحلُّ ما حرَّم اللَّه.

(أَوْ مُطَاعٍ) في معاصي اللَّه.

أنواع الطواغيت

فمن الطواغيت: القبور المعظمة من دون اللَّه.

ومن المتبوع: الطواغيت في التشريع، الذين نُصبوا في التشريع إلى أن جُعلت أقوالهم ميزاناً للشرع، وهذا منافٍ مطلقاً أو كمال (أن محمَّداً رسول اللَّه).

والأول منافٍ لشهادة (ألا إله إلا اللَّه).

فواحدٌ أخلَّ بالألوهية، والآخر أخلَّ بالرسالة.

الثالث: المطاع في معاصي اللَّه؛ من ملوك السوء، وأمراء السوء، وكبار السوء؛ فهؤلاء الغالب عليهم الشهوات، وغيرهم الغالب عليهم الشبهات.

فالأمراء ونحوهم، أو رئيسٌ، أو نحوهم؛ هؤلاء مُخِلُّون بجانبٍ من الامتثال، فالذين يُتَّبَعُون في ذلك إما لأجل المال أو الرياسة، هؤلاء هم من الطواغيت.

فإن المطاع الأخير ما يقال له: متَّبع، أما هؤلاء فيطيعونهم الخلق.

. . . .

مَرَدُّ الطواغيت

ثم قال ٱبن القيم - بعد كلام له -: «إذا تأمَّلت طواغيت العالَم فإذا هي لا تخرج عن هذه الثلاثة»[١].

وكون كل واحد كافراً؛ فالمطاع: فيه تفصيل، والمعبود: قد لا يكفر أولَ وهلة؛ فإنه قد يقوم له عارف ... إلخ.

لكن تعرف أن هنا شيئاً يختلف؛ فشيء يكفر فيه أول وهلة - ولو في الفروع -، كأن يقول شخص: الصلاة ما هي واجبة؛ فإنه يكفر.

معنى الطاغوت عند السلف

تعرف أن للعلماء في الطاغوت كلاماً وتفسيراً؛ أحدها: تفسير عمر، وتفسير جابر، وتفسير مالك، يعني: أن السلف لهم فيه عبارات، منها: عبارة «كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» وتفسير عمر وتفسير جابر، وللسلف غيرها عبارات.

تعريف ٱبن القيم جامع لغيره

وقد حدَّه ٱبن القيم حداً يجمع هذه المرويات وغيرها، فقال: (**مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ - مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ -**)؛ يعني: كل شيء يتجاوز حده في الشرع، يعني: لأن ٱشتقاقه من الطغيان - وهو مجاوزة الحد -، وفي الآية: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ يعني: علا، أهلك اللَّه به قوم نوح لما غلوا ... إلخ. المقصود به: المعنى اللغوي، يعني: تجاوز حدوده؛ فإن من

معنى الطاغوت لغة

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٠).

. . . .

طغى فإنه تجاوز حدوده في الشرع، قال تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾.

سبب تسمية الطاغوت بهذا

وسُمِّي الطاغوت طاغوتاً؛ لكونه جاوز حده، من ذلك: الشيطان؛ فإنه أبى أن يسجد وصار قائداً لكل معصية، ٱستنكف من أن يسجد لربِّ العالمين وقال: إن فيه ذلّاً! فرجع إلى أعظم ذلٍّ، فصار قَوَّاداً لكل فاحشة، وكان داعياً لكل رذيلة، إماماً لكل رذيلة، وهذا شأن من لا يدخل في الدين للربِّ؛ يُعاقب بأن يذل ذلّاً لا مزيد عليه، مثل: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يرغب عن مجالس الخير، ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ فيقيض له شيطاناً، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ ما تظن أن يفعل به إنْ إبليس تجاوز حده؟

وقول مالك: «مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» فصار عبادة من دون اللَّه، وكذلك الكهان تجاوزوا.

فتعريف ٱبن القيم هنا جمع المتبوع في التحليل والتحريم، أو مطاع في معصية، وقال كلاماً؛ قال معناه شيخه[1]: «إنك إذا تأمَّلت طواغيت العالَم وجدتها ترجع إلى هذه الثلاثة».

---

(١) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ. يُنظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٢٠٠).

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللَّهُ -، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ٱدَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ، . . . .

كثرة الطواغيت

وقوله: (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ) من كلام المؤلف، يقول: الطواغيت كثير في كلام اللَّه، يعني: إذا عرفت حدَّ ٱبن القيم بتحقق؛ تبيَّن لك أنَّ الطواغيت كثيرون جدّاً من بني آدم بلا حصر، وذلك أنه إذا تجاوز حده في الشرع - وتجاوزه: بخروجه منه -؛ صار طاغوتاً.

تعرف أن الطواغيت كثير، لكن منهم كبار، ومنهم صغار، على حسب تجاوزهم ما تجاوزوه.

رؤوس الطواغيت

(وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللَّهُ -) هو رأسهم.

إبليس هو من: الإبلاس، وهو اليأس من رحمة اللَّه.

أو من: البُعد، وهو بُعده عن الخير.

(وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ) بذلك، بأي نوع من أنواع العبادة؛ فهو طاغوت من رؤساء الطواغيت وكبرائهم.

(وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ) فهو من رؤساء الطواغيت وكبرائهم.

(وَمَنِ ٱدَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ) كالمُنجِّمين والرمَّالين ونحوهم.

وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

(وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) كمَن يحكم بسوالف الآباء، وقوانين الجاهلية؛ بل جميع مَن حكم بغير ما أنزل اللَّه - سواء بالقوانين، أو بشيء مخترع وهو ليس من الشرع، أو بالخوض في الحكم - فهذا الذي يحكم به طاغوت من أكبر الطواغيت.

خلاصة فوائد

والطواغيت كثير؛ إذا عرفت معنى الطاغوت عرفت أنهم كثير:

وأكبرهم: إبليس - رأس كل طاغوت -.

ومَن عُبد بشيءٍ من أنواع العبادة.

ومَن دعا الناس إلى عبادة نفسه - عُبد، أو لم يُعبد -.

ومَن ٱدعى شيئاً من علم الغيب - كالكهان، والرمالين -.

ومَن حكم بغير ما أنزل اللَّه.

وقول الشيخ: (إبليس)؛ ظاهر.

ومَن عُبد وهو راضٍ، كتفسير مالك «مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ومِن الطواغيت: مَن حكم بغير ما أنزل اللَّه، ومَن يتحاكمون إلى الطواغيت.

ومَن ٱدعى شيئاً من علم الغيب؛ لقول جابر.

فالتنصيص عليهم يدل أنهم رؤوسهم، وبالتأمل نجدهم كذلك؛ أنهم رؤساؤهم.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ....

دليل أعظم ما فرضه اللَّه على العباد

(**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**) يعني: ٱفترض الكفر بالطاغوت والإيمان باللَّه والدليل على ذلك، ويصير ما بين العبارتين حدّاً للطاغوت.

والعبارة الأخرى (**وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَةٌ**) فيه بيان أنهم كثير، لمَّا ذكر الحد نصَّص على أن لهم رؤوساً - وهم خمسة -.

ثم ذكر دليل أن اللَّه فرض على جميع العباد الكفر بالطاغوت.

دليله: (﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾) ليهلك من هلك.

معنى الرشد والغي

الرُّشْد: ما بُعث به الرسول ﷺ.

والغي: ما كان عليه أبو جهل.

(﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾) تَجوَّدَ وَتَقَضَّبَ، وأخذ بالرشد وٱجتنب الغي.

الٱستمساك: مبالغته في الإمساك؛ يعني: أمسكها إمساك خائف عليها أن تفوت من يده.

عروة النجاة

(﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾) الوثيقة القوية؛ التي لا تنفك ولا تنقطع.

(﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾) لا تنفصم أبداً؛ فإنها عروة النجاة، فلا

وَهَذَا مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

يخاف أن يسقط إذا تمسك تماماً، إنما يُخشى على من لم يستمسك تماماً، فمن تمسَّك بها إلى الوفاة فهو واصلٌ إلى الجنة بكلِّ حال.

الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هو معنى (لا إله إلا اللَّه)

(وَهَذَا) يعني قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ (مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»)، فإن (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه): كفرٌ بالطاغوت وإيمانٌ باللَّه - كما تقدم -.

فكانت هذه الآية تفسير (لا إله إلا اللَّه) وبيان معناها، وإذا كان هذا هو المستمسك بالعروة الوثقى دلَّ على أنها أفرض الفروض؛ فإنه لا أعظم منها ولا أوجب، وهي مشتملة على النفي والإثبات؛ فلا بد من نفي ألوهية غير اللَّه وإثبات ألوهية اللَّه وحده؛ أما الآلهة الأخرى فلا حق لها في الألوهية أبداً، وزَعْمٌ خاطئٌ ضال، لا حقَّ لها في الألوهية أبداً؛ بل هي باطلة؛ قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، وأيُّ حُجَّةٍ على أنها آلهة؟! مجرد أسماءٌ كاذبةٌ وتسميةٌ خاطئةٌ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾، هوى وجهل آزدوجا، فيُوصلان أقصى موارد العطب.

أعظم الفروض

بطلان ألوهية غير اللَّه

وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلَامُ، ....

الإسلام هو رأس الأمر الذي جاءت به الرسل

(وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلَامُ) هذا طرف من حديث معاذ الشهير - وهو عندكم في كتاب الأربعين[1] - آخره هذه الجملة.

(رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلَامُ) يعني: رأس الأمر الذي جاء به الرسول ﷺ: الإسلام؛ فوجوده ضروري.

من فقد حقيقة الإسلام؛ فهو فاقد الإسلام ولو ٱدعاه

الأمر هذا كونُ رأسِه الإسلام يفيدك: أنَّ مَن ٱدعى أنه على ما بُعِث به النبي ﷺ ولا وُجدت منه حقيقة الإسلام؛ أنه قد كذب على ما جاء به الإسلام، كما أن المجنون الذي لا رأس له قد فَقَد الحياة، فكذلك الذي فقد حقيقة الإسلام فهو فاقد الإسلام.

فمن ٱنتسب إلى ما جاء به النبي ﷺ وٱدَّعى أنه من أمة الإجابة، وقد فُقد منه رأس الإسلام وحقيقته؛ فقد كذب وٱفترى، كما أن الحيوان إذا فُقد رأسه فأيُّ شيء ينفعه سائر جسده؟

والمدَّعي للإسلام فُقد منه التوحيد؛ الذي هو إفراد اللَّه بالعبادة، وأساس الإسلام وحصنها، فلا وجود لما يدَّعيه هذا

(١) أي: الأربعين النووية، الحديث التاسع والعشرون، أخرجه الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، من حديث معاذ رضي الله عنه، وكان سماحة الشيخ رحمه الله يشرحها لطلابه.

وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، ....

المدَّعي ولا صحة لدعواه؛ لفقد حقيقة الانتساب، كالذي يزعم ويدَّعي أنه من أهل الإجابة للنبي ﷺ، وأنه متَّبع له في جميع ما يأمر به وينهى عنه، وهو يدعو مع اللَّه غيره، ويسأله قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، ويزعم أن ذلك قربة إلى اللَّه، وأنه مما يحبه النبي ﷺ؛ بل هو المضاد المعاند للنبي ﷺ، المتنقِّص المستهزي بدين النبي ﷺ، فإذا كان يقر أنه هو الحق الواجب اتباعه، ومع ذلك يعمل بخلافه - بل عكس الدِّين والشرع جميعاً -، وخالف ما جاء به الرسول ﷺ؛ فجعل الشرك توحيداً وديناً، وزعم أن هذا مما أمر اللَّه به؛ فعطَّل الدِّين والشرع جميعاً.

من أدعى الإسلام وهو يدعو مع اللَّه غيره؛ فقد عطل الدين والشرع معاً

عمود الدين

(وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ) يفيد أنها ضرورية.

هذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنها من الدِّين بهذا المكان العظيم، ومكانها من الدِّين مكان العمود من الفسطاط؛ فكما أن عموده إذا سقطت سقط الفسطاط، فكذلك إذا فُقدت الصلاة سقط دينه بتركه الصلاة ولم يبق له دين؛ لأن مجرد ترك الصلاة كفر يُخرِج من الملة.

من فوائد الحديث

وهذا الحديث من أدلة ما اختاره أحمد؛ أنه إذا تركها كسلاً فهو كافر.

حكم ترك الصلاة

وقوله: **(عَمُودُهُ: الصَّلَاةُ)** يعني: فعل الصلاة، ليس المراد الإقرار بها؛ فإن المبتدأ والخبر معرفتان تقتضي الحصر، وأنها

. . . .

وحدها عمود الدين، فلو قيل: إن المراد الإقرار بوجوب الصلاة لٱنتقض ذلك، فجَحْدُ الصلاة وحدها كفر، وجَحْدُ الصيام أو الحج كفر؛ جَحْدُ شيء مجمع عليه عند الأمة كفر، كما أن تحليل شيء مجمع عليه عند الأمة كفر، وتحريم شيء مجمع عليه عند الأمة كفر، فإن هذا كفر؛ يعني: مجرد ترك الصلاة تهاوناً وكسلاً يُصيِّره كافراً حلال الدم والمال.

الفسطاط هو: الشراع؛ فإن له عموداً - ولا بد - ولا يستقيم مبنيّاً إلا بذلك العمود، وهذا يدل على أن مجرد تركها - ولو تهاوناً، وكسلاً - كفر، أما إذا كان جاحداً للوجوب هذا ظاهر.

الأدلة على كفر تارك الصلاة كسلاً

وتركها كسلاً عليه عدة أدلة: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ؛ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[١]، «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[٢]، وقول عبد اللّه بن شقيق: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئاً مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ»[٣].

ومذهب أحمد وإسحاق أنه كافر، وهذا هو الصحيح في الدليل، أن تاركها ولو مجرد تهاونٍ وكسلٍ؛ أنه كافر كفراً ناقلاً عن الملة.

---

(١) أخرجه أحمد، رقم (٢٢٩٣٧)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق ٱسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

مسألة فرضها الفقهاء

وهنا مسألة فرضها الفقهاء؛ وقالوا: إذا دعاه إمام أو نائبه فأصرَّ حتى ضاق وقت الثانية عنها؛ أنه يكفر ويقتل بعد ٱستتابته ثلاثاً، ٱنتقده شيخ الإسلام[١] وقال: ما يمكن أن يدعوه الإمام أو نائبه ثم لا يفعل إلا وهو جاحد للوجوب؛ لأن دعوة الإمام أو نائبه لا بد أن تقع عن تهديد أو حبس.

ترك الجماعة سبب ترك الصلاة

ومن يترك الجماعة لم يُتكلَّم أنه كافر، لكنَّه من أسباب الترك بالكُلِّية، فهو وسيلةٌ، وموجودٌ جنسُ هذا، كثيرٌ من الناس أول ما جاءهم الشيطان[٢]، كما أن سيما المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى.

(وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ) سنام البعير: أعلاه. ذروة الشيء: أعلاه. وذروة البعير: سنامه، وهو أعلاه وأرفعه.

الجهاد أعلى خصال الدين

(الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هذا يفيدك أن الجهاد هو أعلى وأرفع خصال الدين، وذلك لأن فيه بذْل المهجة، الذي لا شيء أنفس منها، ولا شيء يعادلها؛ فيجود بمهجته ويبذل المال لتأييد الدين وجهاد الكفار والمنافقين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية، فبذلك ٱستحق أن يكون من الدين بهذا المكان.

(١) يُنظر: مجموع فتاواه (٧/ ٢١٩).
(٢) بترك الجماعة، فتركوا الصلاة.

. . . .

والجهاد ما هو معروف موافق؛ لأنه سنام الدين، فمنزلة الجهاد من الدين ومكانته أعلى مكانة.

أبواب الخير

(أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ)؛ يعني: النوافل بعد الفرائض.

من فوائد الصوم

(الصَّوْمُ جُنَّةٌ) يعني: من الشيطان في الدنيا، وفي الآخرة من النيران.

معنى (الجَنة)

سميت الجَنة جَنة؛ لأجل ٱحتجابها عن عيون الناظِرين، وهي في الأصل ٱسم للبستان.

(أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ)؛ يعني: بما يملك عليك ذلك.

خطر معاصي اللسان

(قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)، واللسان هو المرتبة الثانية في الكِبَر، وبعده الجوارح، فإن القلب هو الأصل، ولهذا كُتُب العقائد كلُّها مما يتبع القلب وعمله، ولهذا معاصي اللسان دون معاصي القلب في الجملة، وكذلك معاصي الجوارح الأخرى دون الثانية.

ولهذا القلبُ أسرعُ ما يقع فيه أو ينفي بعزمه، أما اللسان فعندما يعزم القلب إذا هو ذاهب.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

خلاصة فوائد

فصار الحاصل من ذلك: فرض هذين الأمرين، وأنه لا يصح أحدهما بدون الآخر.

وعرفنا: دليل ذلك ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وعرفنا: أن هذا معنى (لا إله إلا اللَّه).

وعرفنا: حد الطاغوت.

وعرفنا: (مِنْ) البيانية؛ أنه إذا تؤوَّل.

وعرفنا: أن هؤلاء هم الرؤوس.

ونعرف: لِمَ كانوا رؤوساً.

وعرفنا: ما ختم به المصنفُ؛ هذه جملٌ نبويةٌ مشتملةٌ على أصول عظيمة.

وٱختار المصنف أن يختم هذا الفصل بهذه الكلمات التي هي قطعة من كلام العرب، وإلا لا تعلُّق لها تعلقاً خاصاً بـ (ٱفْتَرَضَ اللَّهُ).

(وَاللَّهُ) سبحانه **(أَعْلَمُ)**[(١)].

---

(١) قال الوالد ﷺ في خاتمة إحدى النسخ: «وبذلك كملت ثلاثة الأصول (١٣٦٥هـ)».

فهرس الموضوعات



لطلب الكميات ٠٥٦٤٤٤٨٤٥٤